



بحيرة العشق اللازوردي

حسن إمامي

رواية

بحيرة العشق اللازوردي
البحيرة والمدينة
(حبل الخلود)

حسن إمامي

تصاعد دويّ طبولٍ صاخبةٍ ومنذرة... تسارع إيقاعها غامرا
فضاء عينيها المغمضتين، وشبكة العروق المغلفة لكيئونة
رأسها. كان الصوت آتيا من أعماق نومها الذي صَبَّبَهَا عرقا
وأرقصها ارتعادا وارتعاشا... لم تع بعدُ هجوم هذا الكابوس
على ذاتها. استغلاله لفترة استراحتها وسعادة موتها القصير...
لم تتورّد الأحلام إذاً. رغم أنها جعلتْ فأل الرحلة قبل نومها في
الإنصات لموسيقى هادئة. نغمات بيان محلقة بأجنحة خيال
مسكرة مع (جورج مارادي)، وسريزٌ جدّد بتلاتِ شراشيفه
ومآزره، وجسد تطهّر لطقس استرخاء في عالم غيبوبة
مرغوبة، راحة الوجود وسكون من حركة.

دقات قلبٍ كانت مستنفرة وغير طبيعية، وتصفيق جمهور
معلق على الجدار الحائطي لغرفة النوم، بلا ألوان، سوى إيقاع
عقارب الساعة الحائطية التي ترتق الظلام بخيط العدم،
والصمت بوقع العمى.

ياه ! كابوس جديد. شيء ما غير عادي في الدواخل إذاً. شيء
ما، لم تتِمَّ أقليمته ولا عقلنته ولا عملية استيعابه... ماذا سيكون
إذاً؟

كانت علامات الاستفهام حبلَ التعلق للنجاة من غرق عتمة
الغرفة وخميس معركتها الذي يريد استصدار قرار انهزامها.

بملاء يديها اللتين قوّستهما على مدار رأسها ووسادتها خلفه،
متثابئة وساخطة على هذه الليلة الغريبة، غير المرغوبة أبداً،
تشبثت بقوس الاستفهام حتى تقلص إيقاع الطبول والعقارب.
هامتُ برؤيا الخيال، وفتحت في الظلام الدامس صفحات
الكتاب الوجودي الذاتي، مَنفذ العالم ومسكن الوعي.

هذا الوجود الوتر الذي تنفر منه النفس وتستوحش معه الرغبة
غربة، كيف السبيل إلى كسر وهدم جدار حصاره؟

في محاكمة الذات، استحضرت كل المعائبات ومرافعات لوم
النفس وعتابها. هذا الشعور بالذنب الذي يحل بها كشبح
مزروع عمداً من أجل الهدم وإحداث الرعب، وتعتيم صورة
وصفاء مرآتها. شعور بالذنب سيكون شرخاً في الجدار لكي
يهدم بنيان الذات وتوازن النفس. أخطر وعي هو هذا الذي
يجعلك متفرجاً على ذاتك في صراعاتها الوجودية، وفي
تهينتها لهذه الانكسارات، وفي زرع أَلغام العقد النفسية داخل
ثناياها وفضاءاتها. مَنْ سأحاكم كسبب في هذا الاختراق؟ أنا أم
الأخر أم المحيط أم البيئة؟

سأسافر من جديد مع شريط الصور والأحداث، رغم أنني أعلم
أنها مخادعة، إذ أنها كل مرة تفاجئني بإخراج جديد مباغت،
تتصيدني لوقع تأثير متجدد في الاندهاش. هذا سر هذا العالم
الخارجي إذاً. لا يصادقني إلا بما يشاء هو في أخذه مني. لا
استسلام إذاً!

كانت الصفحة الأولى التي فتحها شريط الحياة داخل هذا
الكتاب التفاعلي في جوف عتمة الليل، هو شريط الحب.

ما يزال حبله مشدودا إلى شرايين هذا القلب، كأنه يريد انتزاعها وقطع أوردتها. يستغفلك كل حين لكي يعود عاصفة نوتية تكسر وتغرق أقوى الأساطيل البحرية، فما بالنا بقارب صغير تعلّق على منته قلب محطم ضعيف يبحث عن شاطئ نجاة وأمان.

هي، لا تريد تذكر اسمه، أو بالأحرى لا تريد نطق حروفه. رغم أنها تطفو فوق سطح بركة الذكريات المنسية. رغم أن البركة ترتج بزحف المحيط الهائج. ورغم، ورغم، فإنها تعاند. ولعلها لا تمتلك من كسبٍ وتحديٍّ لهذا القدر الغادر والكاسر إلا هذا العناد، وللعناد قصة وشريط هو سر استمرار رغبتها وطلبها لهذه الحياة...

كيف ستقلب المد جزرا؟ والدفاع هجوما؟ ستبدأ بمهاجمة الآخر، رغم أن العاصفة ستخونها وستخترق كل شقوق سفينتها النفسية، وستجعلها تبحث عن ألف مبرر، عن ألف ممكن، عن ألف ذريعة وطريقة لتغيير القدر وما قدر. لا بد من العناد.

انفتحت قلعة الحب لقدمه، رغم أن رياح الأفاق كلّ مرة تنذر أحوال طقسها بمتغيرات وزوابع وصعقات رعدية.

جال بابتساماته أولا، ثم انفعالاته... واشترط للمعركة قيادة، وطالب بالعناد والسيادة. خضعت القلعة منقادة. فتحت خزائنها ووهبت ذخائرها، وكانت له رصيда وذهبا منصهرا، وسيولة نقدية تحقق أمانيه ورغباته.

الحلم كبير والواقع مريّر. الحلم قلبها، والواقع عيشها وتضحيتها. كان الحلم ضحية، ما دام كماله مستحيلا، وعطشه

قائما ومستمرًا. كان الواقع المنتصر والمفترس للضحية،
والذي قام بنهش القلب وفتكه. إنما لا دموع الآن.

على هذا السرير، وداخل هذه العتمة، يريد التذكر أن يخترق
الحاضر. لعله شبَّحَ مرسل من جهة الشر والفناء والدمار
والألم والحرق والحسرة. لعله في كل هذا مملكة أرسلت حيث
الشعور بالذنب لكي تغزو هذه الجزيرة المعزولة والمنسحبة
من لعبة الأمواج وهيجان المد والجزر.

على هذا السرير مدَّت يدها اليمنى إلى جهة النافذة القريبة.
أمسكت بحدس المقام وألفة المكان، بالشريط المتحكم في فتح
ستار النافذة الخشبي علويا في التقاف يرحب بالبصر في حفل
مسرحي على خشبة أبواب السماء والنجوم. زرقة ماسية
داكنة، لكنها مليئة بالنور. تبدو قوته كمركِّزٍ نووي في تميزه
عن بريق النجوم اللامع البياض... مشهد لا تملك له هي إلا
التصفيق بلا يدين، بمسك الشفتين، وفتحهما على ابتسامة قلبية
وأخرى بصرية، انشרכת لها الأسارير والقسمات، وارتعشت
لها زوايا وأركان الجسد - القلعة المنسية الموحشة.

تمايل الجسد على جنبه الأيمن منجذبا لهدية الليل اللازوردية
داخل شاشة النافذة وإطارها: اختراق شهابٍ للوحة، بصمة فنية
رائعة.

صدر صوت الدهشة المرجوة. لو أن كل جمهور العالم كان
جالسا ومتابعا للمشهد واللقطة، لأُحنى إعجابا للصوت
المباحوح بغنج النوم ودفء السرير... في ضحكة من نوتة
واحدة، لكنها عامرة بكل فرح العالم وبكل عمق المحيطات
المتألئى بالجواهر: ها! نوتة رطبة وغنية بالسرور وغدقة.

شكرت بعدها وحمدت وتماوجت انبساطا، دائما على جنبها الأيمن.

كانت اليد اليسرى مستلقية على ما انسدل من شعرها الأسود الناعم، واضعة راحتها على ما علا من وسادة الأحلام ورفيقة السفر بعد هدوء الأنام.

استرجعت وضعية الامتداد والاستلقاء على ظهرها، واسترجعت عهدة اليمنى على اليسرى، وعادت لتحكي للزمن والوجود، أو ليحكيا هما لها سير الزمن والتذكر من جديد. ذاك الشريط الذي تربعت صورته على خيال تذكرها. تُرافعه الآن في حضوره الغائب، وغيابه الحاضر:

يوم آمنت أن الحب تضحية، أو هكذا كانت هي ضحية ثقافة متفافة. ضحت بوقتها، بمالها، بصدقها، ومشاعرها. رغم أنها كانت تقول أن الربا حرام في الشرع، وأنها تريد أن تبقى طاهرة من واقع ما انفك يسقط بالإنسان في دائرة الحرام والشر والفساد... رغم أنها قد تحولت إلى محاربة هذه الربا بمبادئ فلسفتها الاشتراكية في محاربة الإمبريالية والاستغلال، ها هي تتنازل عن عرش مبادئها وتنصاع لأولى محطة لأجله، وتستلغ قدرها مهما من المال، لأجله، لطموحاته، لإرضائه، لأنها تحبه.

آه ! هذا الفعل الأخير هو السر، وهو الجرح، وهو البوح ونقطة الضعف.

لكن الأرض اليباب لا تلتئم تربتها لتنتب لك خضرة حتى ترتوي في أعماقها... لكن هذه الأرض اليباب البشرية تتيه في

دواخلها جذور منسية، وشقوق عميقة... بقدر ما تسقيها، بقدر ما تبتعد مستنبتة بعيدا خارج جزيرتها وجنانها المرجوة.

ياه ! ستهجم على ذهني هذه الثقافة الشعبية والمجتمعية لكي تصفني بالحقيقة: شَبَع الجيعان يتجرع عليك. وبالمقابل: جَوْع كلبك يتبعك.

كان جوعه وعطشه كبتا متشعبا، نتاجا عنكبوتيا لبيئة متخلفة.

تناسى هدف القرض البنكي في تأسيس المشروع. تربّع على عرش الأحلام والسلطين الكبار، وأفلام السفر للجزر الاستوائية. كانت الليالي الملاح، بالكؤوس الروحية التي تراقصها الأقداح. يدق بأخمص قدميه طلبا مع الأغنية ومعانقة للراقصة أو الغانيات: هات كأس الروح واسقني الأقداح! هكذا استمتع بثقافة الأغاني المنتشرة انتصارا لذكورية في غرائزية الاشتهااء، تجعل من المرأة وسيلة لتحقيق الرغبات بل رغبة غرائزية في كل تأوهات الرجل.

يا سلام! سعادة كبيرة عاشها في تحقيق أمنياته، أو لنقل في تعويض جوعه وعطشه وحرمانه، أو كما فسره الطبيب النفسي لها: مرضه هو وليس مرضها، كبت نفسي يطفو على السطح، فيغيب المنطق ويحجب حكمة العقل ويقظة الضمير، وتتربع الغرائز الحيوانية على سطح الحياة اليومية أمره وموجهة. وبسؤال الثقافة والتربية الاجتماعية، أجابها الطبيب النفسي بتحليل التاريخ المجتمعي، وما نحن قد توارثناه عبر الأجيال في اللاشعور، والذي يوجهنا خفية عن شعورنا وخذع وعينا.

- أريد أن أفهم يا دكتور !

وهي تسترجع هذا الطلب في الفهم فوق سرير نومها، تذكرت
وضعية العيادة النفسية التي كانت تزورها. لملمت قدمها
اليسرى بجانب السرير... تحسست وجود وسادة صغيرة
مربعة وطائشة في زاوية منه. سحبتها بكوعها وأسفل قدميها،
ورفعتهما فوقها، واستوت مسترخية من جديد كأنها مستلقية
على سرير العيادة أو (الكانايبه*) كما يحب الطبيب النفسي أن
يناديه به.

لماذا يبقى هذا الجوع والعطش والحرمان مكبوتا عبر الأجيال؟
أسئلة العقل التي تنتقذها من تحطيم النفس في واقع لا يرضي
ولا يشفي. يرجع صوت الطبيب من جديد:

- لقد عاش مغربنا مجاعات وأشكال حرمان، وتربيتنا على
شعور بتهديد وجودي. والآن، فإن كل تلبية تصل إلى درجة
الإشباع، تذكرنا بالنقيض في الدواخل النفسية المطمورة.
المسألة خفية لأنها تُمرَّر في التربية والتفاعل بين الشخصيات.
ولا ننس أننا مجتمعاتٌ أميةٌ وجهلٌ وفقرٌ... فكيف لا يمكن لها
أن تستمر تمظهرات التخلف وأمراضه وتعفناته الماضوية
هاته. إذا كنت تحبين الاطلاع أكثر، سأحملك على بعض
المقالات. ولكنني لا أنصحك بالقراءة بدرجة أكبر. فقط لكي
تلمسي حقيقة الموضوع، ولكي تصبحي أنت بريئة من هذا
الواقع وتستأصلي جرحه من دواخلك. وإنني أعلم أنك لست
بمجروحة. إنك مجرد متسائلة ومستغربة. كيف لا يرقى هذا
الواقع لطموحاتي ومشاعري الإنسانية؟ من حقا أن تحاكمي
الواقع. ومن حقا أن تترفعي عن دناياه. ومن حقا كذلك أن

تنفسي غبار تلوته عن فضائك. لك الخيار والقرار والقيادة والحفاظ على درجات التوازن التي تشعرين بها بحدسك. تعلمين أنه ليست عندي أدوية عقاقير أصفها لك. إنما دواؤك هو هذا الكشف والاكتشاف والتخلص منه في أنه.

سيكون عندي يا دكتور سؤال، لكنني سأؤجله إلى حين بعد أن أنتهي مما أرشدتني إلى قراءته.

- لك ذلك. جميل أن تكوني في وضعية المحاورة وليس في وضعية المعالجة. أهنتك على شخصيتك وتوازنك! والآن أدعوك إلى الوقوف بجانب نافذة هذه الغرفة المطلة على الشارع. أنظري إلى المارة بتمعن جديد. سأكتب لك عناوين لمقالات تجدينها في صفحات المواقع الإلكترونية خلال ذلك. فقط، هذا الكتيب، سأعطيه لك حتى ترجعيه بعد قراءته، في موعدنا الشهر المقبل.

تقوم من فراش نومها في عز هذا الليل البارد. تقف بجانب شرفة الغرفة وتفتح نوافذها ليتم اختراق دماء الفضاء الداخلي بنسيم رطب اقشعر له جسدها. ربما كانت في حاجة لهذه الوصفة المناخية حتى تتحكم في هذيان أفكارها وتشعبات تحليلها، وحتى تنفقت من عمليات التذكر التي أرققتها وحرمت متعة النوم من جفونها.

حينما ناولها الطبيب الورقة وهي في وضعية التأمل للشارع العام، أزاح ستار النافذة المستطيلة والتي تجعل الوقوف في إطارها جامعا للمنتصف العلوي من جسد الواقف:

- تعلمين أن كل هؤلاء الذين يمرون في الشارع الآن، جيئة وذهابا، ربما كلهم في حاجة إلى علاج نفسي وإعادة التوازن

إلى شخصياتهم. فأنت مثلا لست المريضة، بل المرضى هي هذه الشخصيات التي تصرفت في واقعك بهذا الشكل البشع من الاستغلال والكذب والنفاق.

- لي سؤال يا دكتور لو سمحت.

- تفضلي!

- لماذا عمليات القراءة التي سأقوم بها؟

- هل هذا هو السؤال الذي أجتنيه قبل قليل ؟

- لا ذاك سؤال غاب عن ذهني وعن أولوية تساؤلي الآن.

- تفضلي.

- لماذا هذه الدعوة للقراءة ؟ كنت أظن أن صفاتك خاصة وغريبة؟

- ربما سأسبق الأحداث في الشرح. إنما، سأشير فقط إلى عملية نحتاجها الآن، وهي عملية التسامي... بدل أن تكوني ضحية وضع، ستكونين ملاحظة ومراقبة له. سيتغلب عقلك على مشاعرك في التحليل. ستترفعين عن كل انفعال وشعور بالذنب أو بالوقوع كضحية. لكي يصفو الماء علينا أن نجعل بقع المكونات الزائدة تطفو فوق سطحه وبعدها يسهل علينا إبعادها عن صفائه. هل أعجبك هذا التشبيه؟

- نعم واضح وجميل.

- هذا ما أرغب فيه، في حثك على عملية القراءة.

لقد تحول فضاء غرفة النوم الذي اخترقه متسللا هذا الضوء اللازوردي الهامد والباهت إلى مجال تموّج هيئة جسدٍ انسدل على تشكيله لونُ فستان نومٍ تحوّل من الوردي إلى القرمزي الغامق. تنافس في لمعانٍ بريقه مع بريق النجوم التي بقيت حارسةً لليل ومتابعةً للنافذة المفتوحة وما تراقص فيها من حركات.

فتحت قمطرا وأخرجت منه كتيبا صغيرا خلخل عنوانه صمت الليل. احتاجت إذًا إلى إنارة مصباح جانبي في زاوية يمنى قريبة من الشرفة. أصبح النور رفيقا جديدا. حمل صفحات داخل الكتاب، وظلال أشياء ممتدة بشكل يغطي الجهة اليسرى من زاوية رؤيتها للسريير والأريكة الصغيرة أمامه والدواليب الثلاثة في الغرفة. داخل الصفحة 76 من الكتيب قرأت: لماذا التسامي؟

قرأت العنوان ثم رفعت رأسها إلى ثريا السماء. سبحت من جديد بين السطور والصفحات، مخترقة المعاني والدلالات. تساءلت بعد استيعاب: هل يمكن للطبيب أن يكون قد تعمّد الإشارة إلى المصطلح وتقديم هذا الكتيب من أجل قراءته؟ وهو يعلم من خلال بوجها شغفها بالقراءة والمطالعة؟ طبعا ستساعده الإشارة على توفير ساعات من اللقاء العيادي والعلاجي مع مريدته النفسية. لقد أصبح توجيهه مرافقا لذهنها واختيارها وقرارها، وسلوكها. تبتسم لاستنتاجاتها التي تحتكم

إلى بعض الأمثلة الشعبية كل حين: انزع رأسك من فتات
الزرع حتى لا ينقبك الدجاج. انزع رجلك من طمي حتى لا
يطمع فيك الدود.

تحتاج إلى الحيلة والحذر بين الثقافة الشعبية ومضامينها، وما
تحتاجه من تشكل في الوعي مع هذه القراءات الموجهة من
طرف الطبيب النفسي.

تأخذ تهيدة طويلة استجاباً لها تمايلات ستار الشرفة... انتقلت
إلى عنوان جديد داخل الكتيب (توجهات غريزية)... لم يشف
غليلها هذا التحليل المجرد والمكثف للموضوع. إنما هو
منطلقات لاستنتاجات تأخذ طابع الحتمية النسبية في الملاحظة
والإقرار.

بعد حوالي الساعة من الزمن، احتاجت معها إلى استرخاء
جديد فوق سريرها ورفيق خيالها. أطفأت النور الكهربائي
وتركت للأخر اللازوردي شرف الاستحواذ على الفضاء
الداخلي لغرفتها والحلول في سماء نظرتها.

ما مشكل الغريزة؟ ساءلت نفسها مستلقية. لابد أن أكتب. ربما
اختمرت في الذهن تلك المقالات ومضامين هذا الكتيب.
سأضع ما سأكتبه بين يدي الطبيب علّه يزيد اطلاعا على
خفاياي. علّه يستريح مني أو أستريح منه.

كيف يهيم المريض المعالج بطيبه؟ لم تخلُ دراساتها
وقراءتها من أمثلة دالة. إنما في وضعيتها تستحضر قسّمات
وجهه وصوته. عدد الساعات التي رافقت استلقاءها فوق
سرير العيادة. صوته الذي اخترق لحظات بوحها وضعفها
ودموعها. جدارات الحرج التي كسرتها أمامه بأسرارها. حتى

ما كان من علاقاتها الغرامية والجنسية المرافقة، والتي تعتبر بالنسبة للمرأة صلد الكبرياء الذي لا ينأى المرء عنه ولا يخرج به إلى نور الكلام. هو يعرفها أكثر مما تعرف هي نفسها الآن.

هي الآن في عمليات غسل الذهن وتطهير النفس وتجفيف الذاكرة مما علق من أدران. رغم ذلك تشعر بالمسافة التي تحتاجها معه. تكبت ذلك الشعور الذي يراودها حوله، وتعلم أنها تحتاج إلى قوة لمصارحته ومكالمته حول هذا الإشكال الجديد. فهل نخرج من أعراض لكي نقع في أخرى؟ ليس الآن هو وقت التفصيل في هذا الموضوع. المهمة كتابية في هذا الليل اللازوردي الغيور على نومها والحارم لجفونها من أحلامها وأفكارها:

ضوء جديد وقلم وأوراق بيضاء. إنما هذه المرة ستكون طاولة الكتابة عبارة عن ملف كرتوني مقوى أضعه فوق فخذي في جلسة شبه مقرفة وشبه طفولية معتمدة على الحائط في الاتكاء وعلى الوسائد في الاستواء.

لقد أثارت انتباهي هذه القولة، واعتبرتها مركزة في إشاراتها لمجموعة من الحقائق التي تناولها التحليل لظاهرة المجاعة:

((الجوع المغربي الحالي لا يقتل، لكنه يخلف آثارا فزيولوجية ونفسية وسياسية.

فزيولوجيا، يؤدي نقص وسوء التغذية إلى سهولة انتشار السل والتوفيس وبوحمرون والكوليرا وطبعا ضعف المناعة لدى المسنين والأطفال أساسا، فأنصاف الجياع يمكن لموجة برد عابرة أن تقتلهم.

نفسياً، الشخص الذي لا يشبع لا يثق بنفسه، تركيزه يقل، يشعر بالدوار وتزيد لديه ضبابية الرؤية، ينصرف اهتمامه لتدبير الطعام بكل الوسائل، وخاصة الدنيئة.

سياسياً، يعتبر الجياح الديمقراطية مجرد ترف، يتجاهلون الانتخابات، وإن اهتموا بها فلتدبير منافع فورية. والأخطر أن الحقل السياسي يعاني من كل الآثار السابقة، فهو هش، ومناعته ضعيفة أمام أي نعرة تطرف، وتسوده الانتهازية وضبابية الرؤية، إنه حقل سياسي جائع))، ((محمد بنعزيز)).

رغم أن صاحب هذه القولة لم يشر إلى الجانب العلاقتي بين الشخصيات والأزواج، إلا أن الإشارة إلى الجانب السياسي تجعل تخندق نفسية الفرد في نفس السلوك. وحينما أستحضر صور برلمانين متلهفين للنهم أمام مائدة أميرية رسمية، أستحضر ما كُتِبَ عن المجاعة وصورتها خارج أبواب القصور، بينما داخلها رغد العيش ويسره. هناك كذلك صورة حفلاتنا التي يكثر فيها البذخ والتي يتخم الفرد فيها لدرجات المرض. ولا ننسى وضعية رمضان، التي جعلنا نتلهف للأكل بكثرة حين الأذان لوجبة الإفطار. غريب أمر هذا الإنسان.

والغريب سيدي الطبيب أنني الآن وأنا أخط هذه السطور والملاحظات في عز هذا الليل، شعرت بجوع كبير. لذا سأقوم للأكل ثم أعود للكتابة. لا أدري إن كنت ستشعر بالحاجة للأكل أنت كذلك خلال قراءتك لهذه الفقرات. فهل هو شعور إنساني غريزي أم ثقافي مرتبط بكذا مجتمعات؟

كما تعلم، فإن تخصصي الجامعي هو مادة التاريخ. لذا سأجدي مضطرة إلى تسجيل مقالي هذا منضافاً إلى ما تراكم من

قراءات حول موضوع المجاعة وارتباطه بموضوع الغريزة.
كما سأترك الاستنتاجات لما سيأتي بعده:

حينما نأخذ منحى الأنثروبولوجيا، نفتح صفحات للتاريخ الموضوعي والواقعي، النسبية، نزوح القراءات الميتافيزيقية بجميع امتداداتها المثالية، نشرع لعلوم حديثة متعددة الأبواب لكي تقوم بعملياتها المختبرية بما توفر لها من أدوات التحليل وأساليب المعالجة. إنها حفريات في التاريخ واللغة والآثار المستمرة الدالة على حياة وثقافة عيشٍ وأسلوبه وتعبيره العام.

... †

† ثنايا المقال:

تساعدنا الدراسات الأنثروبولوجية على تفسير مجموعة من الظواهر الثقافية الإنسانية المعقدة اليوم. فمن طلاسم السحر إلى رمزيات وشيفرات فكها مع العلم الحديث التجريبي الدقيق أو الإنساني التحليلي.

أما ثقافتنا المعاصرة، فهي ليست النتاج الجديد الذي، تشكل، بل ذلك الكل المركب بين أزمنة متداخلة و ثقافات متداخلة وأحداث فاعلة، في سلوكنا العام الفردي والجماعي.

الاختيار الأول في هذا البعد من التناول الموضوعاتي، اهتم بظاهرتين تاريخيتين مجتمعيتين (سوسيو تاريخيتين)، هما ظاهرة الجوع وظاهرة الغنيمة.

الظاهرتان مرتبطتان غريزيا بالإشباع والحرمان. فإذا كانت التغذية عاملاً أساسياً في حياة الإنسان، فإن الجوع يعتبر ظاهرة مهددة للوجود الإنساني، قاضية على نوعه الخُلقي.

عوامل تواجه كثيرة، منها الجفاف الذي يجعل شحا في الطبيعة من نبات وحيوان وإنسان، وللتوازن الموجود فيها بين عناصرها العامة.

كل الشعوب عانت من ظاهرة المجاعة، وإن بنسب متفاوتة. لكنها هرميا وبنائيا يخلت توازنها واستقرارها وتطورها، بسبب المجاعات المتنوعة والأوبئة التي تحل بها.

أما الغنيمة، فمرتبطة بمحصول حرب أو غزوة أو هجوم، وبغيرها من أشكال التفوق بالقوة الرمزية والمادية التي تمارسها جماعة أو فرد على جماعة أو فرد آخرين.

وإلى جانب منطق الصراع حول النفوذ وبسطه، وصراع البقاء للأقوى، والأطماع الكبيرة التي يفتحها الاستقواء وتضخم الذات والحكم، نجد كذلك ظاهرة المجاعة كأحد العوامل التي تدفع إلى البحث عن الغنيمة والحصول عليها.

كيف يمكن الحديث عن حضور الظاهرتين داخل حياتنا المغربية، وقد تقلصت المجاعة كظاهرة منذ أكثر من سبعين سنة تقريبا، سبعة عقود وزيادة - رغم أنها قصيرة الأمد بقياس

في إطار دراساته التحليلية التاريخية، خصص المفكر الكبير محمد عابد الجابري، دراسة مهمة لموضوع الغنيمة، وجعلها بالنسبة للقبيلة عاملا اقتصاديا أساسيا لاستمرارها، وربط سياستها ونشاطها العام في مختلف الميادين بإحدى الأهداف المهمة في التحقيق، وهي الوصول إلى الغنيمة وكيفية تحقيقه.

لم يكن منطوق العدل هو المؤسس لموضوع الغنيمة، بقدر ما هو منطوق القوة والبقاء للأقوى، ومنطق مصارعة ما يهدد الوجود في الطبيعة والحياة... ومن بين عوامل هذا التهديد نجد ظاهرة المجاعة التي تدفع إلى الحصول على تغذية، وكل الطرق تكون مباحة وتصبح مشروعة بما فيها السرقة والقتل والنهب والغصب.

لكن الغرائز تتجاوز، وتتدافع إلى التحقيق الخارجي، وتكون الأنا هي كرسي عرشها لأجل هذا التملك والاستقواء والإشباع والابتهاج - كشعور بعد تحقيق اللذة، لذة الإشباع - فغريزة الأكل والإشباع تحضر معها غريزة الجنس كذلك، وغريزة التملك ترتبط بها أفاق بسط النفوذ، فيتحول الاحتماء من التهديد المباشر إلى غير المباشر... تتراكم معه الأحداث والأفعال، وتتداخل بناياها، فتصبح لها مستويات وجود وعدم، تهديد وأمان، خوف واطمئنان، إشباع وحرمان... يتراكم أنطولوجيا ووجوديا، الوعي المركب بالظاهرة، فيجعل لها سياسة أمان وسياسة تحقق، فنتج الظاهرة الثقافية المعقدة، وتخلق لها رمزيات وشيفرات فك الرموز... كما ينتقل التناول من الفردي إلى المؤسساتي... ولعل أرقى أشكال التعبير عن هذه الظاهرة الانتقالية هو تجلي ظاهرة الاستعمار في العصر الحديث، والظاهرة الرأسمالية الإمبريالية وعولمتها المعاصرة... حيث تتوالد تاريخيا وجدليا معادلات وإشكالات ومصالح جديدة تجعل من الصعب تلمس الطبيعي الغرائزي داخل الثقافي والحضاري الإنساني عموما.

في ثقافتنا المغربية، كما العربية الإسلامية، حضرت الظاهرتان معا، المجاعة والغنيمة، ورافقهما المنتوج الثقافي والديني والسياسي والطقوسي العادتي، وشرعن مجموعة من القوانين والأحكام والعادات التي أنتجها الواقع المرتبط بهما. وبين الإنساني والسياسي، كان البحث عن العدل مع الكرامة الإنسانية وعدم إقصائها وإذلالها، والبحث عن توافق مصالح، وكذا توازن قوة بين منتصر ومنهزم في حرب أو قتال وغيرهما... كان فضل الطعام للجائع السائل، وكانت شرعية الهجوم على القافلة التجارية مثلا لسد الخصائص الفردي والجماعي، مع غياب نظام سياسي مؤثر للحياة في منطقة جغرافية قاسية. كما انتقل هذا التشرذم مع الوعي السياسي التاريخي، والنهوض الديني شبه الجزيرة العربية، من رؤية محاربة المجاعة وتحصيل الغنيمة، ومعهما مكونات الأنا الطبيعية في الجنس والتمتع في العيش، من الإطار القبلي المستنزف إلى الإطار الدولي المجاور. وكانت الرسالة الدينية والثقافية والحضارية تغلف الواقع الغرائزي العميق أنثروبولوجيا... وتلك حكاية التاريخ العام.

تاريخ شعب ما بأجياله التي تعمر ذاكرتها لقرون وقرون،
وتؤثر نفسياتها فيمن يليها لمدة طويلة كذلك؟

وكيف يمكن الحديث عن ظاهرة الغنيمة مع تقلص النفوذ القبلي
المادي والمعنوي المباشرين ظاهريا؟

السؤالان لا ينفيان الواقع. كما أن شرعيتها نسبية، لأن
الظاهرتين قد تكونان حاضرتين عمليا في السلوك المادي
والثقافي والنفسي المرتبط باللاوعي واللاشعور، والتربوي
المرتبط بالتأثير المتداخل في أشكال التواصل الاجتماعي وبناء
الشخصيات وحياتها .

(الإمضاء: وفاء غانم).

أكون الآن قد انتهيت من تحرير موضوع مركب عن ظاهرتي
المجاعة والغنيمة. وأعود لملاحظات الشخصية التي أسجلها
كالآتي :

- هل يكون الخطاب الديني قد نفذ إلى الأس المتحكم في البناء
المركب لهذا الإنسان، ألا وهو الخطاب المتعلق بالغرائر؟ في
أحكام العبادة كما في التشريع، وكذا وعود الجنة؟

- هل يمكن اعتبار نفس الخطاب أنه يعرقل التحول من
الاهتمام الغرائزي إلى الاهتمام الثقافي المتسامي؟ ذلك أن
عمليات المنع والتحرير والتخويف تكبت وتلجم التفكير في
فرص التحقيق لما هو غرائزي؟ سأعطي مثال دخول
المسلمين إلى مناطق خصبة: العراق والأندلس مثلا، وكيف
مال أصحاب النفوذ والسياسة والراية الجهادية هم قبل غيرهم
إلى رغد العيش... بدون تعليق.

أترك لك سيدي الطبيب مجال إبداء ملاحظاتك... لا أدري إن كنت سألتقاها مكتوبة أو في سياق جلسات حوارنا.

(وفاء غانم).

حينما انتهت وفاء من كتاباتها، كان الفجر قد أدلى بخيوطه في الأفق. وكان اللون المحبب عندها قد اتخذ حَلَّتَه الاحتفالية في رسم لوحته داخل إطار النافذة والشرفة، مميزا بين ما تعد به السماء وما هو جامد على مرسم البناية.

شعرت بتعب الاشتغال على موضوع شائك وكبير جدا. احتاجت إلى الرجوع لذاتها ورَاحتها الداخلية. إنما عقلها شعر بارتياح كبير وهو ينظم ويعالج ظاهرة تفسر مجموعة من السلوكات البشرية اليومية.

أطفأت المصباح واعتذرت للونها العشقي في إسدال الستار الخشبي على بوابة النافذة، حاجبة بذلك له ولفضاء الشرفة، وغرقت في استراحة محاربة تخلصت من الجوع والغنيمة معا. ربما تخلصت من طعون المحاربين الذين يخوضون معارك غرائزية ما... ارتسمت على شفيتها ابتسامة عريضة وهي مغمضة العينين. وكأنها قد فازت بما لم يدرکه الآخرون في هذه المعركة الذهنية. كانت الكلمة مفتاح النصر هنا وفحوى خُطبته الوحيدة، هي ما تبادر إلى وعيها قبل أن تخلد إلى النوم من جديد: التسامي !

***.

بعد يومين تقريبا من المراجعة لما كتبته وسجلته من ملاحظات، قررت جعل رسالة تبعثها إلى عنوان العيادة، ذلك أنها لم تقوَ على انتظار اللقاء العيادي لكي تناقش فحواها، خصوصا أن هناك من يتفاعل بجدية مع المقروء ويحلله من جميع جوانبه حتى النفسية الذاتية منها. وهي تشعر بأن ما ينقص التواصل البشري داخل مجتمعها هو ذاك الاحترام والإنصات لرأي الآخر واعتباره وتقديره... ذاك أننا لا نكاد ننهي من السماع حتى نكسر ما سمعناه شظايا بردنا المتسرع والمتجاوز غالبا لمضمون كلام الآخر.

لم تُصدق ما قرأته في رسالة وصلتها بعد أربعة أيام من بعثها لرسالتها. رسالة مستعجلة وبالبريد المضمون من طرف الدكتور حليم السيد ... فتحت غلافها، دعوة لتناول وجبة غداء في مطعم ميرامار بشاطئ الهرهورة من طرف السيد حليم السيد وحرمه، يحضرها بعض الضيوف المعدودين.

بقدر فرحتها بالمفاجأة بقدر التقلبات التي رافقتها وهي تعيد قراءة الدعوة. لم تصدق أنها ستكون موضوع دعوة، ولم تصدق أن طبيبها سيدعوها إلى مطعم مع عائلته وضيوفه... فجأة تحول نبض قلبها، وتقطب حاجباها، واحمرّ الخدان. شعرت بحرارة صاعدة إلى رأسها. وضعت نفسها في قفص اتهام جديد، رغم أنها تعلم نصيحة طبيبها في دفع كل شعور مماثل بخبط يديها فوق شيء رطب أمامها وتحويل اتجاه

نظرها وبصرها، فكلاهما متلازمان، البصر والنظر، الحس والذهن:

تراه علمٌ بحدسه كطبيب بمشاعري التي راودتني ليلة كتابة الرسالة؟ أم إنه تجسس على أحلامي واخترق كساحر أفكاري؟ لماذا لم ينتظر موعد زيارتي للعيادة؟ لماذا سأكون من بين الضيوف المدعوين؟ ألن أكون ضحية ظاهرة نموذجية يريد تحليلها أمام آخرين؟ وهل أصبحت فأرة تجارب مختبرية؟

طيب، سأزيج كل هذه الأفكار السلبية الآن. سأبعث برسالة شكر مسبق واعتذار مبرر لعدم الحضور. هي رسالة إلكترونية إذا، تتقذني من كل هذا المطب.

رغم أنها بعثت بالرسالة، إلا أنها سارعت إلى تفقد دولابها وفساتينها. بدأت تفكر في نوعية اللباس للحضور. هل سيكون لباسا كلاسيكيا أم عصريا؟ هل تحتاج إلى شراء بذلة وحذاء جديدين؟

في مساء ذلك اليوم، يوم خميس، جاءها الرد: أرجو أن تحضري وتلبي الدعوة ليوم السبت المقبل. سأنتظر جديداً قبل الموعد، وشكراً.

في السادسة والثلاثين من عمرها، تحرص على طقسها في الاستحمام كل أسبوع. تحضر ككل أنثى لوازمه، كما أنها تعرف مسبقاً حاجتها إلى سائل بارد يطفئ عطشها. هكذا تحضر عصير الليمون البارد، وتضعه في الثلاجة قبل أن تذهب للحمام. دخولها إلى الغرفة الداخلية الساخنة جداً واستعمالها للصابون البلدي، يثير بعضهن. ذلك، أنهن تحوّلن إلى مواد عصرية محضرة بالمختبرات الصيدلانية، ومشهورة

كماركات عالمية في مواد النظافة والتجميل. غير أن اعتمادها على مادة لزجة تميل من حمرة إلى سواد، يجعل بعض الأعين تتقرب جسدها وحركتها، وتحاول الحكم على شخصيتها. أيعقل أن تكون صاحبة هذا القوام الرشيق متحفة في استعمال مواد عصرية؟

حتى الصابون الذي تستعمله قبل الخروج من غرفة الغسل الأخيرة والباردة الحرارة، يبقى صابونا من نوع خال من كل المعطرات والمواد المركبة كيماويا. لن تكون وحدها في الاختيار طبعاً، هي تعلم هذا. كما تعلم أنها تتبع إرشادات طبية عن وعي، مما يجعلها مرتاحة في استعمالها غير مبالية بنظرات استغراب أو استعلاء وتبجح صادرة عن بعضهن. فالحروب الباردة بين النسوة لا تسلم منها طبعاً. قد تأتيها إشارات كلامية بطرق غير مباشرة. وفضاء الحمام هو مجال لجلها ما دام يجمعهن في هذه الغرف الجماعية من أجل تلك الصونا التي تريح الجسد من الزوائد وأنواع الخلل المفصلي وغيره.

لم تكن لتشير إلى طقس الحمام في تذكراتها لولا أنها تشعر بالحاجة للكلام عن تلك المدلكة التي تتفرغ لها طيلة مدة استحمامها. تستغرب لنوع كلامها ووصفها لأطراف جسدها وهي تدلكها. وكذا استحسانها لهياتها ورشاقتها ونعومتها الفائقة:

- هذا الجسد آمولاتي جميل جداً. لا يجب أن تعبت به أي امرأة أو مدلكة. يحتاج إلى رقة في تدليكه وتمرير الأصابع فوق حرير جلده. أنت آمولاتي، جمال جسديك من جمال قلبك.

أنظري إلى طريقة استرخائك واستلقائك. جميلة طواعيةً جسمك لليد التي تدلكه... ملاك يحفظه الله وينجيه من كل سوء... من العيون الحاسدة... والله، كلما دخلت إلى الحمام أخرجت منه إلا وكان دعائي لك حاضرا ومستمرا... ما كان لَمْسُكَ إلا بريش من حرير. وما كان دهن نعومتك إلا بَمْسُكَ يذوب عطرا، من أخمص قدميك الصغيرتين إلى قدك وجيدك الممشوقين، ما كنتِ إلا ملاكا شرفني الله بالاعتناء به والحمد لله...

تتوزع هذه الأوصاف في طقس تكون فيه مغمضة العينين اتقاء لهما من سائل الصابون وسخونة الحمام. تستشعر سعادة مرافقة لتطهير وتدليك جسدها مع هذا النوع من الكلام الذي لا تتقنه أي امرأة سواها. تدرك بحدسها في بعض اللحظات أن المرأة المدلكة (فطومة) تتجاوز حدود مهمتها أحيانا دون أن تتمادى في حركتها أو سلوكها، حتى لا تثير من حولها أو زبونتها. ربما تثور ضد فعلها الذي يرافق كلامها. كيف انها تجعل لمس الحلمتين بطريقة تتنمل لها المسام رغم حرارة الحمام. وكيف تمرر جوانب سبابتها وإبهامها حول طرفي فرجها، وهي المنطقة الأكثر حساسية في جسدها. ربما لكثرة ما دلكت فطومة جسد وفاء أصبح خارطة محفوظة بمواقع إثارته واستسلامها.

- هذه الشامات جعلها لك الله بصمة توقيع لجمالك... الله يسترك بولد الحلال الذي لن يخدشها إلا بالحنان... تكون هذه الكلمات قد اخترقت الحواس باللمس قبل السمع والضرب على الوتر الحساس في نفسية وفاء ولحظات عريها الاستحمامي.

لم تجد من خلال ما قرأته ما يتحدث عن طقس الاستحمام ومشاعره ونفسياته عند المرأة... مشاهد الأفلام التي رأتها لم تكن تفجر كل الكلام الذي يحتاجه هذا الشعور عندها بترجمة بركان الداخل حديقة أزهار فائحة وناعمة مع معانقة كل نسيم... ربما هذا الطقس الجماعي يشوش على مثل هذه المشاعر. إنما ما العمل؟

يبقى الحمام الجماعي ضرورة أسبوعية وصحية واسترخائية لها ولجسدها... تعلم أنها تستغل الفصول الدافئة والحارة خلال السنة في الامتداد داخل مسبح حمامها الصغير في شقتها. ولكن فضول هذه المغامرات التي تشعر بها بحسها مع شخصية من نوع فطومة، يجعلها تتجاهل مقاصدها ونياتها وتترك لطقس الحمام البلدي، بلغة المجتمع، القيام بدوره... كم مرة تشكلت لها فطومة بصوت رجولي في منامها واهتاجت مشاعرها وهي في ذروة تحقيق رغبة جنسية لا واعية عن طريق استحلام لا إرادي، يستعين بلوحة التدليك التي تتم في عري ولمس واغتسال الحمام البلدي.

هل تكون فطومة سحاقية؟ ألا أكون أنا كذلك أميل إلى هذا النوع من التلذذ كل مرة؟ كيف لا أعترف وأنا التي استلذت بالرغبة والشهوة داخل فراشها وبمفردها؟ ما لم أعترف به للطبيب النفساني، وما لا يسمح به كبرياء امرأة أن تبوح به، ما لم يضطرّها الأمر لذلك أمام طبيب خاص.

لجسدي تاريخه الجنسي الخاص به، وكذا أسرارته التي يسجلها ماضيه وحاضره. أخاف أن أسجلها في مذكرات خاصة، ذلك أن السر يعرف طريق الانفلات ولو كان بين يدي صاحبه.

أصبحتُ أحلّ نفسي إذا. أتابع سلوكي الداخلي والخارجي
وألاحظ وأفسر وأستجمع الاستنتاجات... يوم الجمعة هذا هو
يوم ذهابي إلى الحمام بعد الزوال. لكنه ارتبط كذلك الآن
بموعد الدعوة لوجبة الغداء مع ضيوف الطبيب النفساني.
غريبة المرأة في صمتها! غريبة كذلك في بوحها!

فضاء شاطئ الهرهورة، رومانسي بامتياز. شكل تضاريسه
المنحدرة والمتشعبة، والتي تتشكل فوق منحنياتها أشكال
هندسية لفيلات وإقامات، يوم كان الذوق يسبق الحاجة في
التحقيق. فكل مبنى يتخذ لوحته الخاصة التي ترتفع بحواس
ناظره إلى عشق جمالي لأطلال وممرات أزقة المجال.

كأنثى، كنت منذ حلولي بمدينة الرباط، أحب هذا الاختراق
لهذه الطرق الصغيرة بين الفيلات. ذلك التيه الفردي الذي
يضلل مساري إلى قبالة الشاطئ الرملي في لعبة متاهات،
والذي يجعلني أجرب كل مرة الرجوع واكتشاف المباني من
الخارج، والسواحل الصخرية الصغيرة التي تتعرش فوقها
البنائيات. ذلك الشعور بالخوف ومن المجهول الذي يمتلكني،
فيجعلني أشعر بالتحدي والنجاح كلما خرجت من تجربة سالمة
وموصلة لي إلى شاطئ الأمان. قد أختار من نظرات المارين

شابا لاختراق مشهده ولفت انتباهه لهيئتي الأنثوية وعطري الذي سيسحر حاسة شمه ويسلب لب عقله. يكون انتصاري بكسب ابتسامه أو اندهاش وإعجاب أو كلمة مثيرة تزيد من غروري بذاتي ورونقي وأنوئتي. لن أتكلم الآن عن جمالي، ما دامت المرحلة العمرية في التذكر نوستالجيا وحنينا. حتى إذا اعترفت به أو وصفته لنفسى، أين هو الآن في نضارته الغضة والطرية والفتية، في رشاقته الأولى كفراشة أخف من ريح المسك في العبور والحركة. للذكرى عذريتها الخاصة التي تملكها والتي تحتفظ بها في كل حدث وشخص يؤثنها.

هي سعادة الحكي المرتبط بالحياة الشخصية ومجد عمرها. تلتفت عيناى من صفحة الكتابة لهذه السطور، وهأ أنا أرى وأتصور اللقاء كأنه في مكان مهجور وغريب، رغم ما ذكرته من جماليات تعلقتُ بها، فيه ومعه وحوله. الصورة الحاضرة والآنية للمكان، شاطئٌ رملي صغير وممتد تحت ممر كورنيش جميل وسوره الذي يشكل شرفة العشاق لتلاطم الأمواج ومخالجتها لمدار البر المُشكّل من صخور سوداء حادة في نحتها، وخط رملي يُصالح بين الماء والبر، وخلقٍ حالم أو صائِدٍ وهواه.

هي رؤية لمقهى ومطعم ميرامار الذي سيكون اللقاء فيه، وكل التخوفات من جديده وأشخاصه وتفاعلاته. لأبد من تسجيل تصالح مع جمالية صورته قبل الذهاب إليه في هذا الموعد يومه السبت. أترى هل اخترق الليل ساعات اليوم والموعد الجديد فيه؟ هل أنا الآن في اليوم المعهود للقاء. هل هو يوم السبت فعلا؟

الساعة تشير إلى الواحدة صباحا وخمس وعشرين دقيقة. ياه!
اقترب الموعد. عشر ساعات متبقية تقريبا.

لم تجد صعوبة كبيرة في ركن سيارتها، رغم أنها نهاية الأسبوع، وأن المكان يأتيه الناس للزيارة والاصطياف والاستجمام بكثرة.. كذلك الشأن في فصل الصيف. فرواد الشاطئ والصيد وممارسة رياضة المشي، اعتادوا الحضور في كل الفصول. رواد المطعم والمقهى كذلك كثيرون.

تعلم وفاء طبيعة المكان، وتدرّك سر امتلاكه لدرجة احترام عمومية تقريبا. ألفت صورته وأسلوب تحرره. كأنه اتفاق ضمني في سريرة كل فرد داخل المجتمع على جعل هذا القوس المفتوح للرومانسية وعيش الحرية الفردية، رغم أن اقتصاد السوق وثقافة الاقتصاد، غيرتا من وظائف المكان، رغم أن قيم التحرر بدأ يفهمها البعض بشكل مغلوّط مغاير لذاك الذي نشأت فيه أواسط الثمانينيات وقبلها وبعدها بقليل. يوم كان البحث عن حرية حقيقية مفقودة. أما الآن فإنها على ما يبدو أصبحت مشوهة في وظيفتها وتصريفها وقيمتها.

رغم كل هذا فإن رؤيتها ورؤية صديقاتها، وكذا كثير من العائلات للسلوك العام الذي يبحث عنه المرء أو المرأة، في هذا الفضاء، والسلوك الخاص الذي يمارس فيه، تستمر كرؤية متوافقة مع قيمه وأخلاقه العامة. وبالأخص حينما ترى أن درجات الاحترام والرؤية غير الإسقاطية لأحكام القيمة

الأخلاقية، ما تزال كإيجابيات تزيد من عشق المجال ومن المتعلق الوجداني بأطلاله حين غياب حضوره أو حضور الذات فيه.

لو كانت معها صديقتها لطيفة في هذا اللقاء، لكان أفضل. كان هذا موضوع المكالمة الهاتفية التي رافقتها هذا الصباح من يوم السبت هذا.

- تذكر يا لطيفة، كم رافقتك في مواعيدك وخرجتاك. لم لا تلتحقين بي الآن؟ أنا في طريقي إلى هناك. أو إذا شئت، أخرج على إقامتك وأخذك معي. ما رأيك؟

- أنت هبيلة آ صاحبتني. اللقاء خاص وفيه ضيوف غرباء، والدعوة خاصة جدا. لا مكان لي هناك الآن. اسمعي، حينما تنتهين من جلسة الغداء، التحقي بي أنت بشفتي. أعدك بأنواع حلويات مما تحبين من مخبزة Pain de mie .

- لا أعلم. هذه آخرتها عليّ.

- وما أدراك، ربما بداياتها... ههه.. يمكن أن هذا الطبيب أحضر لك زوجا معالجا هو الآخر، وبدون مشاكل أو عقد.

- الله ينجيني من أي شخص مريض. هذا ما تمنيته لي. حرام عليك، مسمومة لهذه الدرجة.

- الله يعطيك السم. أنا مسمومة؟ تعلمين أن الأشخاص في المجتمع كلهم مرضى، وأن الذي يزور الطبيب هو القريب إلى التوازن النفسي والسلوكي والعلاقاتي. أنت من قال هذا في آخر لقاء لنا. هل نسيت؟

- اسمعي، أنا الآن في موقف السيارات. لم أجد الأقدام التي
تمشي بيّ إلى داخل المقهى.

- قولي للحارس أن يحملك مرابحة* حتى كرسي الجلوس..
ههه.

- راه شيباني، ما هو قادر على ثقلي. أخاف أنه بدّل أن يحملني
إلى المقهى يأخذني إلى براكته. حينها الله يرحمني. اسمعي يا
لطيفة، أشعر بمسام إبّطي وفخذي متعركة. حرارتي ملتهبة.
تمنيت لو أنني أفرغتها في علاقة جنسية قبل الذهاب إلى موعد
الغداء.

- ها ما قلناه.. حارس الموقف سينفك إذا.

- الله يعطيك الموت أنت وإياه. سأمسح أطرافي وجوانبي بورق
تنظيف مبلل وأخرج من السيارة الآن. تلاحى* آ المسمومة.
باي باي.

- باي باي. انتظرك في المساء.

تحت ظلال شجرة الكرم الاستوائية المورقة والوفيرة الظلال،
صعدت وفاء الدرج المؤدي إلى قاعة المطعم المطل على
أمواج البحر وشاطئه. تعمدت في عدم الالتفات إلى جهة
الشّمال حيث مقصف الحانة الصغيرة، فجعلت راحة بصرها
في صباغته بلون زرقة البحر وتراقص أمواجه على
الصخور... رسمت الابتسامة الديبلوماسية اللانقة على شفئها
الملتصقتين كطبق جميل موقع لخاتم ماسي وعاجي مخبوء،

*- التعبير هو بالدارجة المغربية ويعني في السياق كتلة واحدة محمولة.
• - في السياق : إلى اللقاء.. لكن سخرية التعبير بالدارجة تجعل خلاص التواصل والتفرغ للاتي
بهذه الكلمة القاسية في الدلالة والمألوفة في الحوار الشعبي والمجتمعي.

بفعل أحمر الشفاه الفاتح الذي جعلته مناسباً للون الفستان الذي اختارته لهذا اللقاء. كان جديداً داخل دولابها، وداخل غلافه البلاستيكي الشفاف واللامع. حتى بطاقة تعريفه التجارية والإشهارية لم تقتلها منه إلا ليلة أمس الجمعة. كان القرار في اختياره مشتركاً مع صديقتها لطيفة:

- الآن رجعت طبيبتك في الاختيار؟!!

- الله يحفظك لي يا لطيفتي وصديقتي.

أرضيته لوناً قرمزي شفاف. زخرفته بتلات وردية متوسطة الحجم على جانب ارتمايته فوق الفخذ الأيمن، وامتداده على الجهة اليسرى من صدرها ومن استدارته على نهدها الأيسر كذلك. أيقونتان تطبعان هذا الجسد. إذا أضفنا لهما ابتسامتها وبريق عينيها وتسريحة شعرها، اكتمل المشهد الذي سيهز أركان الفنان التشكيلي عماد الغالي:

- أووه، يا سلام. وأنا الذي أقول وأتساءل: لماذا الهرهورة زاهية وعطرة هذا اليوم. اسمحي لي أن أقدم لك نفسي: أنا عماد الغالي، فنان أحقق. لذا لا ترتبكي من كلامي.

سلمت عليه وهي في وقفها، ثابتة مع انحناء خفيفة لم يخضع لها سوى الكتفين وحركة تحية من جسدها سريعة جداً. لم تفقد مع المشهد ارتساماً بسمتها التي دخلت بها كعملة وسلاح تواجه بهما هؤلاء الغرباء عليها حتى حين، في فناء هذا المطعم المفتوح على السماء والبحر وصوت النوارس وهدير الأمواج.

انطلقت الجماعة الجالسة في ضحكات لطيفة مرافقة لجرأة المهندس والفنان التشكيلي. تدخّل معها الطبيب النفساني من أجل إنقاذ وفاء من ورطة الجرأة المفاجئة:

- أفدّم لك الأنسة وفاء غانم، صديقة وموظفة بوزارة الثقافة بالعاصمة الرباط. وهذا صديقنا عماد الغالي مهندس وفنان وأب لثلاثة أطفال حتى لا يخدعك بذنبيته الجميلة والساحرة. هذه زوجتي أسية براني، طبيبة أطفال ومهوسسة بالفن التشكيلي وخربشات الفنان عماد. هذه ابنتي وأميرتي الصغيرة سلمى في عرس الباكلوريا هذه السنة. وهذا السيد علي بن إدريس، محام ومستشار في الشؤون الاجتماعية بوزارة العدل.

تدخّل الفنان عماد مهيمنا من جديد على مشهد الترحاب:

- وهذا طبيبنا الذي نهاه، السيد حلیم السيد. تفضلي واجلسي بجانبی، ومرحبا بك في جلستنا وجماعتنا.

- شكرا، تشرفت بمعرفتكم جميعا، وشكرا للأستاذ عماد على الترحاب.

- كيف كانت الطريق إلى هنا آنسة وفاء؟ سألهما الطبيب مدمجا لها في جلسة الجماعة.

- جميلة ويسيرة. ليس هناك ازدحام مروري. فقط أشعة الشمس التي أخذت تلوح بمطلع فصل الصيف، رغم أننا لا زلنا في فصل الربيع.

- فصل الربيع قصير جدا يا سادة، كما تعلمون طبعاً... تدخّل بالتعليق الأستاذ علي بن إدريس.

ضحك الجميع للتعليق، رغم أن جوابه أوقفهم لحظة صمت قصيرة بعد ذلك. لمس بعضهم على أن الجواب ينطبق على جميع المناخات وليس على الطقس وحده.

تدخلت السيدة أسية براني من أجل الترحيب بالضييفة الجديدة، بعد أن أخذت وقتها من أجل التمعن في هيتها وشكلها ولباسها وصوتها ... هي قراءة أنثى لأنثى، حوار سري قد لا يفهمه الآخرون:

- فرصة سعيدة أستاذة وفاء. لقد أصر زوجي على أن نحضر ونتعارف، وأظن أنه شرفنا وأسعدنا بالتعرف عليك.

- شكرا لك أستاذة أسية. كل الشرف لي طبعاً أنا في الحضور والجلوس معكم والتعرف عليكم، - ملتفتة إلى سلمى - والتعرف على الأميرة الصغيرة سلمى.

ابتسمت سلمى مبدية جواباً صامتاً بالرضا عن الاهتمام بها، بعد أن ربنت وفاء بشكل خفيف على ذراعها الأيسر. ابتساماً استوت معها في جلستها وهي تمعن النظر في أمها وتنقلها بغنج معاتب لأبيها... ما جعل نظرة سريعة وخاطفة يتبادلها الزوجان، رُسمت معها علامة استفهام مفاجئة.

بادرت الأم إلى الكلام :

- سأحتاج لإجراء مكالمة هاتفية إذا سمحتم. هل تودين المجيء معي يا سلمى؟

- الغذاء بعد ربع ساعة تقريباً. ستكون أطباق السمك جاهزة... ذكّر السيد حليم السيد.

- لن نبتعد كثيراً... سنبقى بالقرب من المطعم.

على الكورنيش، استقامت مشية السيدة أسية بزيها الأزرق الفاتح، وشالها الأبيض الحريري... نظارتان بنيتان لتقي عينيها من أشعة شمس أصبحت عمودية وحارة، تحوّل معها الشال إلى ستار للرأس منتفض بشكل مشاكس ومتراقص مع الريح الخفيف الذي يرفه اتجاه البحر المرحب بزواره. ما يجعل حب الالتفات إليه وشوق الارتواء في أحضانه يتلطف له زائره، رغم أن الفصل ربيعي، ورغم أن بعض الفتیان يتحدّون الموسم بإسراعهم في الاستفادة من الاستحمام فيه.

طول سلمى يقترب بعض سنتمترات من أمها. في سنها اليافع هذا بدت على هيئتها رشاقة أمها وتعلقها بقامتها الطويلة. أما لباسها فكان المشاكس لجيل أبويها في زيها البني وحذائها الرياضي الأسود وقبعنها البنية الداكنة. موديل يعلن ثورة الشباب على كل رسمية في ثقافة اللباس، ويواكب الموضة التي غزت بها الثقافة الغربية الفنية والرياضية والاستهلاكية سلوك الشباب على الخصوص، وسلوك المجتمع على العموم. ذاك أن جل طبقات المجتمع وأفراده يتبعون هذه الثقافة التي أصبحت عضوية وبنوية في حياتهم، رغم الاحتكاك القائم مع الثقافة المحلية ولباسها. أشكال تعايش يجسدها كل دولاب بتنوع ثقافته ومحتوياته.

انتهت الأم أسية من مكالمتها، دعت ابنتها سلمى للجلوس في مكان ظليل مواجه للبحر ومستعين بظله بما تدلى من أغصان شجرة أرز شاهقة منفلثة من أطلسها الجبلي، ومعتريشة بحديقة فيلا كبيرة بجانب المطعم، هي كذلك تراقص الجو الاحتفالي للبحر والرياح والنوارس والطيور... مع تلبيتها لطلب أمها، كانت سلمى منشغلة بالموازاة مع صفحة هاتفها الآيفون، في

مبادلة رسائل سريعة على صفحة الفايسبوك مع مجموعتها
الرفاقية في الدراسة والصدقة.

- أين أنت مبحرة يا سلمى؟

- مع رانية. عادت من حصتها الرياضية في الفروسية...
دعوتها لتلتحق بي هنا بميرامار...

- ألا تكفيك صحبتنا يا سلمى؟

- ههه... أنتم لكم مواضيعكم الخاصة... يضجرني بعضها... ثم
إنني لست صغيرتكم من الآن.... أميرتي، صغيرتي... ياه،
كفى من هذا. سأطلب من بابا الاكتفاء بمناداتي باسمي، حتى لا
ينقل عدوى صغيرتي إلى الآخرين... ألا تلاحظين؟ حتى
الضيعة نادتنى صغيرتي...

- لك ذلك يا سلمى. بماذا أجابتك رانية؟

- تحتاج لأكثر من ساعة قبل المجيء إلى هنا. لا أدري إن كنا
سنطبق البقاء لساعات أم إننا سننصرف باكرا... على العموم،
الساعة الرابعة أحتاج إلى الذهاب، سواء أنت رانية أو لم تأت.
ربما التحق بها في منزلها.

- سأوصلك إلى هناك متى تشائين. أنا كذلك أحتاج لاستراحة
وحمّام في نهاية أسبوع من العمل. انظري إلى ذلك النورس...
هه.. يقلب وعاء الحليب كآدمي يدري ماذا يفعل!

- بالكاد يمشي. أظنه متخم بأكل السمك.

- وهل سينتظرنا من أجل أن يتناول معنا وجبة الغداء
وأطباقه... ههه... تعالي نلتحق بالمجموعة يا أميرتي الكبيرة.

- حبيبتك الكبيرة سلمى تريد كسوة مثل هذه التي ترتديها
الضيقة وفاء.

- لك ما تشائين حبيبتى. ناوليني الآن مرآة هاتفك.

حين قدوم سلمى وأمها أسية، كاننا موضع تعليق عماد الغالي:

- أووه !

- ماذا هناك أستاذ عماد؟ ما الجديد الذي فاتني ؟ استفهته أسية
مبستمة.

- أيقونتان تفترشان الفستان، وأيقونتان مقلتان من بستان. يا
سلام!!

ضحك الجميع، وصفق حلیم والأستاذ علي بن إدريس، إعجابا
بالوصف الجميل.

- ما الذي فاتني في الربع ساعة الأخيرة؟ أظن أن الأستاذ علي
هو الذي سيصدقني في القول. فربما حلیم سينتصر لصديقه
ويغطي على أقواله. ما رأيك سيد علي؟

في رؤية السيد علي، شبه لشخصية سياسية طبعت القرن
العشرين. إنها شخصية فلاديمير لينين. فهل سيغني التشبيه
بينهما عن الزيادة في الوصف وتحديد ملامحه؟

من مستملحات عماد الغالي في وصفه في مناسبات سابقة،
قوله:

- لو كان الاستنساخ قائما في المختبرات بداية وأواسط القرن العشرين، لقلنا إنك ولينين من مختبر واحد في الإنتاج. لكن يبدو أن مختبركم الثقافي والفلسفي واحد ومشترك، شئنا أم أبينا، صنع لكما لحية مربعة على الشاربين والذقن، وشدقين بمقاس زاويتين وتسريحة شعر ذاهب إلى زوال، هاربة عكس اتجاه الريح... وما أدراني، ربما يكون هناك مختبر خفي يعيد إنتاج الشخصيات التاريخية... أرشدني إليه، أرجوك.

- أية شخصية تحب استنساخها سي عماد؟

- في الحقيقة ستكون مركبة من شخصيات تاريخية كثيرة.

- مستحيل هذا الآن. ننتظر لبضعة قرون أخرى... هه.. يعلق سي علي.

يعلق الدكتور حليم منقذا لخل المحامي الجدي في صمته والصريح في نطقه:

- أين تركت داخل افتراضاتك أبا ادريس الخلفي وأمي الصالحة بنت العلمي؟ الأبوان الفاضلان.

- آه، دفاعك سي علي قوي جدا. أقنعتوني إذاً. ههه... كيف أصبح الطبيب محاميا، والمحامي في قفص الاتهام؟ لكنكما انتصرتما على هذياني وحماقاتني. أعدك سي علي بلوحة تميزك عن لينين.

- كيف؟ يعلق سي علي، وقد جعلتَ التطابق والتشابه والاستنساخ قبل قليل؟

- آه، أعترف بأنني أخفي سر ملامحك في الكلام، لكنني أستبين شكلك مغايرا تماما للآخر. تلك الشامة أسفل فودك الأيمن،

وعيناك السوداءوان، كبيرتا الحجم. ثم لون بشرتك الذي أدهمته أشعة الشمس على طول الشريط البحري شمالا وغربا. ولم لا شرقا وجنوبا.

وكان وعده مقضيا. أنجز لوحتين في إطارين من خزف السيراميك، مستطيلين ومتوسطي الكبر. الأولى بقلم روترينغ و حبر صيني على أرضية بيضاء، والثانية على أرضية فستقية بقلم روترينغ، هذه المرة بلون أحمر و حبر صيني داكن أكثر عن الأول. الأولى مزينة في جانبها الأيسر بشكل نخلة ملقاة ثلاث سعفات رقيقة أعلى الإطار، والثانية مظلة أرضية اللوحة بسعف صبار صاعد إلى أعلى، لا تظهر منه سوى خيوط حدوده الباهتة البياض فوق أرضية فستقية.

- لماذا الصبار والنخلة، أستاذ عماد؟ هكذا استلطف بسؤاله بعد شكره واحتضانه مودة وأخوة قائمة، السيد علي بن إدريس.

- لا تسألوا الفنان عن أسرارهِ من فضلكم. هو يبدع والطبيب يحلل. ما رأيكما؟

- صدقت، أستاذ عماد. أجابه علي بن إدريس، راميا الكرة ومتبعا لها بسهام عينيه إلى حليم السيد ليتناولها كلاما وتحليلا وتعليقا.

هذا الجو المرفق بعالم الرسم والتحليل، يكون محورا حاضرا باستمرار في لقاء الجماعة غالبا. وهذا الجو هو الذي يخترق الجلسة الجديدة على شاطئ الهرورة ومطعمها الجميل.

- أستاذة أسية... أنت سبق لك أن حصلت على لوحة من إبداع السيد عماد.

- نعم، السنة الماضية، وفي فصل ربيع مثل هذا.
- طيب، الآن أتى الدور على الأنسة وفاء. يبدو أن السيد عماد فتن بألوان فستانها. إنما لا أدري كيف يوظفها في اللوحة... تعلمين مفاجآته الجميلة... ههه.. علق علي بن إدريس.
- قل لي سيد عماد. كيف تتصور لوحة بلباسي الأزرق الشفاف هذا؟ تسألُه السيدة أسية.
- ممم... لو أمهلتني دقيقة... ما رأيك سلمى؟
- أنا بعيدة عن عالمكم، أنتظر صديقتي لكي تنقذني من لوحاتكم الصعبة عليّ.
- ضحك الجميع وأيدها في استنجاها برفيقة في عمرها... ربما بحدس جماعي شعروا أنها تقنط من احتكارهم للكلام في مرحلتهم العمرية والخاصة بجيلهم...
- طيب، ستكون اللوحة بزرقه البحر، وبأمواج متصاعدة مختلطة بزبد، تنبلج منها حورية متبخرة، أو لنقل هي متشكّلة بلجينٍ سحابي شفاف يخالط زرقه السماء البراقة.
- يصفق حليم السيد، ويعلق:
- يا سلام، رائع. ستكون لوحة جميلة وسوريالية بامتياز. أتمنى أن تجد طريقها للإنجاز.
- يبدو أنكم غزوتم مرسمي جميعكم. مرحبا بكم إذًا. ما رأيك أنسة وفاء.
- شرف لي أن أنتمي لمجموعتكم الفنية.

- بالمناسبة، الأنسة وفاء، تمتلك أسلوب كتابة جميل جدا. أكيد
ستمتعنا بإبداعاتها مستقبلا وتتحفنا بقراءتها. يشير الطبيب
حليم السيد مؤكدا على ملاحظته.

كانت وفاء منتشية بالهواء البحري الذي يسترخي على سفح هذه التلة المزركشة الألوان لشاطئ الهرهورة الجميل. ذكريات عمر ومحطات تواصل ولقاء، زين تأنيثها هذا اليوم الجديد على ما سبقه. فعلا تداخلت المواضيع، وكان حضور الفن والرسم والكتابة قويا في ثناياها. كانت لإشارة الطبيب السيد حلیم السيد بأنها تمتلك أسلوبا في الكتابة وَقَعَّ على مخيبتها وعلى ما التقطته من فضول تجنيه من فحوى اللقاء ومبرر ومفسر الدعوة لوجبة الغداء هذه.

فعلا، ما تتمناه المرأة في اليومي، هو التوفيق في تمجيد أنوثتها والاحتفال بها، هو النجاح في الاحتفاء بجسدها وتشكيله لوحة ليست للرؤية فقط، ذلك أن المرأة ملتقطتها، ولكن كذلك ما تشعر به هي من ارتياح بعد استحمام وتعطر، وحين الحلول داخل فستان أو لباس جميل يُورِّدُه...هه.. يبدو أن عدوى الوصف باللوحات والرسم قد غزت مخيلتها وذهنها.

فعلا، فقد وجدت في أسلوب السيد عماد الغالي كفنان تشكيلي قبل كل شيء، وبعد أن تبدد شكها في نوع شخصيته الذي قد يوحي بتحرش بالنساء ويجعله كزير نسوة، خصوصا حينما لاحظت أن طريقته في الكلام لم يخصها بها وحدها، بل كذلك خصَّ بها زوجة صديقه الدكتورة أسية براني، وجدت في عالمه الذي يخلقه في حياته وأسلوب حياته، طاقة من الحرية

والبوح والتعبير الجمالي الذي تشعر به داخلها وتفتقره كترجمة في سلوكها اليومي.

آه لو أنها كانت تستطيع الرسم بالألوان فتحولّ جل المشاهد التي تتخيلها إلى جداريات ولوحات تُخلد بها لحظة في الوجود، وتقطف بها حبة من ذرات الكون داخل إطار مرسوم... ممم، يبدو أن العدوى فعلا قد بدأت تعطي أكلها... ويبدو أن عالم الكتابة هو الذي تستطيع من خلاله تحقيق كل هذا. ما باليد حيلة إذًا. ولكن التوافق قد تم من خلال الحوار والمناقشة مع السيد عماد... فدعوته لها لزيارة مرسومه بحي المنزه بمدينة الرباط، ربما ستفتح لها أفقا فنيا وإبداعيا جديدين.

أزاحت هجوم ستائر الإحباطات على همّتها وشعورها النفسي... تذكّرت لا شعوريا بأنها في مستوى ذلك، ما دامت قد جلست في مائدة واحدة مع محيط من كان طبيبها وما يزال كذلك، لكنه حولها إلى صديقة للعائلة.

لم تزل صورة وشبح صديقتها من مخيلتها كذلك. لطيفة، تلك المحبوبة اللعينة التي تحضر تعليقاتها رغم غيابها، وكأنها رفيقة غيبية أو ملاك يخلق فوق سماء تحركها. ترتسم ابتسامتها، أو تقطيبتها، أو سخريتها أو إعجابها، كل حين. تستعين وفاء حينئذ بالمثيرات الخارجية حتى تخرج من هذيان هذا الحضور. لكنه يبقى مساعدا لها في جل ما تحلله من مواقف وتفسره وتؤوله من أحداث وأشكال كلام: ولطيفة، يا ليتها كانت حاضرة معي هذه اللعينة اللطيفة. أحتاجها في كم من استشارة وتعليق داخل دائرة السر التي تكاد تفجر قفصي

الصدري. إنما ما العمل؟ سأكلمها في الهاتف، ما دامت الفرصة تسنح بذلك:

- ألو أيتها اللعينة... بالكاد انتهينا من وجبة الغداء... لقد كانت رائعة وشهية ولذيذة... غسلت يدي وواجهت المرأة الآن وأنا أكلمك... التفاصيل فيما بعد... إلى اللقاء.

- إلى اللقاء أيتها الشقية اتركيني أستريح منك ولو لسويغات... ولا تنسي أن تأتي عندي بعد الانتهاء.

- من ماذا الانتهاء؟

- من البحر أيتها الحمقاء... إلى اللقاء.

حينما عادت إلى الطاولة في قاعة المطعم، وجدت هندسة اللقاء متغيرة فجأة. سلمى مع صديقتها التي التحقت بها في تلك اللحظات في زاوية من القاعة منشغلتان بهاتفيهما، مسدلتان شعرهما المشاكس لكل تسريحة على صفحتي وجهيهما اللذين لا يبدوان إلا كانعكاس لضوء شاشتي الهاتفين.

الطبيب مع زوجته أسية في وقفة متأملة لتموجات البحر وهديره الذي ازداد تراقصا احتفالا بما بعد الزوال... السيد علي بن إدريس اتخذ له طاولة أخرى، يبدو أن المكالمة الهاتفية خصوصية جدا. السيد عماد مسترخ على كرسيه، ومنتعش بأشعة شمس تخترق بما تسلل منها عبر المظلة الشمسية التي تزين الحديقة الأمامية لبهو المطعم.

فرصة جعلتها تجمع ما بين الاستواء في الجلوس على كرسيها، وما بين تأمل السيدة أسية وهي واقفة بجانب زوجها... لوحة الأنثى التي ترسمها أنثى أخرى، ذلك رسم

وتشكيل خاص بالعالم النسائي، لاحظت معه رشاقتها في انسداد شعر مقصوص بعناية لحدود تغطية استدارة عنقها وانثناء شالها الأبيض حوله. كذلك ردفها اللذان يتكاملان في عدم زيادة أو نقصان. لم تجد في لحظتها كلمات واصفة، لكنها اكتفت بتسجيلها بسرعة فضولية طبيعية:

- بالصحة سيد عماد.

- بالصحة أنسة وفاء. هل تحبين فنجان قهوة بعد وجبة الغداء؟

- نعم ، أنا مدمنتها اليومية.

بين المنادة على نادل المطعم وحضور الفنجانين، كان الآخرون منشغلين وهائمين مع عوالمهم، واستمرت المناقشة بين الطرفين، الكاتبة والرسام:

- يبدو أنك كاتبة، أنسة وفاء. حبذا لو قرأت لك ما تكتبين.

- هه، كتابتي لا تتعدى بعض ملاحظات في مقالات حول ما أقرأ... لم أجرب بعد الكتابة الإبداعية...

- ولماذا؟

- لا أدري، ربما دواخلي لم تظن لها بعد.

- أكيد. تلك البواطن هي روح الفنان، أنسة وفاء.

- المشكل في الرسم. تصوّر أنه كم من مرة تأتيني خيالات رسم للوحات في اليقظة والحلم، لكنني لا أستطيع ذلك.

- سأقترح عليك اقتراحا إذا شئت وكان عندك الوقت المناسب لذلك.

- تفضّل أستاذ عماد.

- المرسم يحضره الآن أربعة من الرواد. هم رسامون موهوبون جدا. وأؤكد لك أنني لا أميز بين المحترف والهاوي للرسم إلا ببراعة الإنجاز وصدقه وقوة تعبيره. هناك طالبة أنهت دراستها بالمعهد الوطني للفنون الجميلة بتطوان. وهناك ثلاثة شبان ماهرون ومنتذوقون للفن الجميل. أحدهم يتابع دراسته بالجامعة، والآخران ولدتهما ألوان الطبيعة وأهدتهما لعالم اللوحات والريشة والرسم.

- إنك تبوح شعرا أستاذ عماد.

- ممكن. طيب، أقترح عليك أن تكتبي لوحتك وتصفيها من خلال بوح الكتابة، ونحاول أن نترجمها لوحة في المرسم من طرف المجموعة.

- ما اسم المجموعة أستاذ عماد؟

- ههه... فكرة جيدة. في الحقيقة لم نسمّها بعد. هل ننسبها إلى المرسم أم إلى شيء آخر؟ انتظري... اقترح اسما الآن : أم الطبيعة.

- جميل وكثيف كاسم.

- اتفقنا إذا.

- أوكي.

لا تدري وفاء، لماذا أرادت التخلص من جلستها مع صديقتها لطيفة. رغم المودة الكبيرة، ورغم الترحاب المعهود، وقرى الزيارة المشروطة بحلويات من مذاق وشوكولاته رفيعين ولذيذين، تعذرت بالرغبة في الذهاب والشعور بالعبء الشديد... لم ترو لصديقتها كل التفاصيل التي عهدها بحكيها... هذا التحفظ، ترك أقواس استنفهام وتوجس عند لطيفة:

- طيب، كما تشائين.

- اعذريني عزيزتي، سأعود الاتصال بك غدا الأحد. الآن لا بد لي أن أنصرف. إلى اللقاء.

في الطريق إلى منزلها بحي يعقوب المنصور، اختلطت الأصوات وصور التدخلات. بدا لها وجه لطيفة مكتئبا، كأنها في حلم يقظة. تساءلت بدون أن تشعر وبصوت مسموع طغى على صدى صوت الراديو الذي لم يخترق نغمه أذنيها: تُرى أهي المكتئبة أم أنا؟ أزاحت الفكرة عن مخيلتها بتغيير محطات الراديو بواسطة زر مقود القيادة. من هذه إلى تلك، خريشة باليد اليمنى متفحصة باللمس للأشياء المتفرقة بجانب علبة التحكم في السرعة، حوّلت معها درجتها إلى الأسرع، خصوصا مع امتداد الطريق الساحلي المؤدي إلى مدينة الرباط.

أثرى هو تخلص من عبء الزيارة الذي أتعبها في التفكير خلال الأيام والساعات التي سبقتها؟ كأنه امتحان، الأصعب فيه هو ذلك الاستعداد النفسي الذي يسبقه. ولكن، لماذا صديقتي لطيفة؟ أضايقها بتصرفاتي؟ أهو الهروب من المكان برمته؟ ممكن. أعلم أنها تمتلك قلبا كبيرا، وصبورة، وإلا لما استمرت حتى في وظيفتها التي ينقلها فيها رب العمل بكثرة الملفات في التحضير والإنجاز. سأعوضها عن كل هذا بعد أن أستريح من هذا اليوم. غدا الأحد أكيد. إن شاء الله.

مم... ما قصة هذا التغير في عوالم العيش إذآ؟ هل سيرافق الطبيب هذه التحولات؟ هل هو التسامي الذي جعلني أقرأ حوله وأوظفه في كل هذا؟ لماذا لم يسألني عن كل هذه الأمور؟ ولكن، كيف يتأتى له ذلك؟ لا يعلم الغيب إلا الله. آه، ربما يكون متفقا ومتواطئا مع صديقه المهندس. سيحكي له كل التفاصيل السابقة واللاحقة. الرجال كلهم متشابهون، يتبادلون الحكي عن النساء. وأنت أيها الحمقاء، ألا تتحدثين عنهم مع صديقاتك ولطيفتك؟ ههه... أصبحت في هذيان. أكلم نفسي وألومها جهرا... الله يستر وخلص!

خلال وصولها ودخولها إلى شقتها بحي يعقوب المنصور، قامت بعمليات روتينية بسرعة. تعلقت بالتخلص من اللباس وأخذ دوش والاسترخاء فوق أريكتها الحمراء المفضلة أمام التلفاز. غفوة، استرخت فيها وأعدت معها شريط الأحداث بشكل مختلط ومشوش. تلتها تصورات ألوان متداعية فوق أوراق وأثواب تتطاير أشرعا مع الريح والسحاب في السماء. فجأة، اخترق التلفاز حلمها بدوي صوت داخل جينيريك فيلم في بدايته. فتحت عينيها وهي لا تدري بأي مكان أو زمان

توجد فيهما. استرجعت الذاكرة عناصرها ولملمت ووعي صاحبتهما. لا زالت في فوطة استحمامها. ساقاها لا زالتا باردتان بفعل العري والاسترخاء. بقيت متمعنة فيهما وفي أصابعها التي بدأت تحركهما في لعبة رياضية غير إرادية. بغنج أنثوي متعب وفي حنين إلى مزيد نوم سألت نفسها: كم الساعة الآن؟

- أوه، الساعة الواحدة واثنا عشرة دقيقة صباحا. ماذا؟ هل سأسهر ليلة بيضاء من جديد؟ رباه !

تواطأ القلم مع الحلم السابق في استعارة موجة الألوان المتداخلة فيه:

- مشكلةٌ هذه. مصيبتني أنني حينما أفكر في شيء وأعد نفسي أو الآخرين به، أصبح لا شعوريا منساقا إلى القيام به وإنجازه... هل سأبدأ الكتابة عما اتفقت حوله مع المهندس عماد؟ رباه، ستسهر جفوني محرومة من النوم من جديد !

اللوحة الأولى:

أقف أمام اللوحة بمسافة المتر تقريبا. يطالعني الرسم بألوانه الزاهية. فجأة تغترب دواخلي من أشكاله الهندسية.

وحي أو إلهام أو إشارة... لا أدري. جعلتني أبتعد بالمترين أو الثلاثة... أنتفس بهدوء الألوان المُشكَّلة لعالم بالريشة. لاحظ أشكال الأجساد المنبثقة من العدم داخل تجريد ظننُّه خطوطا وتماوجات، بينما هي تعابير منسية لأبدان عارية، يطل من خلالها الواقف على منبر الخطابة بلسان يبتلع الدمعة في توزعٍ أخطبوطيٍّ بين الجماجم المفتوحة من أعلى... بينما

جداول لعاب تخترق المسافات بين الهيئات والفضاءات
الفارغة خَطِيئاً بين الألوان. تجدها ناصعة البياض تحت الأحمر
اليانع، باهتةً إلى رمادية التعبير في عبورها لدائرة الجمجم،
منعدمة الوجود في مجالات اختراق أخطبوط الكلام.

أختارُ زاوية في الرواق أبعد عن الجدار. ها هي أشباحُ
تتراقص على امتداد مسرح البصر وخشبة الرؤيا، وفي كل
لحظة رفع ستائر الجفون والرموش. يخرج النظر من بؤبؤتي
ليصنع الحياة للجدار واللوحة والرواق.

أتأبط يديّ الاثنتين كأنهما غريبتان، لاجئتان إلى مأمن من
معركة في بداياتها... الحرب مسافة كلام أو حوار صامت بيني
وبيني. وحيث لا أحد في الرواق، ضمنت في وقوفي قدميَّ
لدرجة سماع طلعتي الحذاء الخشبيتين. أسمعنا الأرجاء كأنها
أهبة جندي استعد لساحة وغاه. استطلع رادار رؤيائي صمت
الفضاء وأشكاله ولوحاته، إن كانت هناك أخرى تريد دخول
المعركة... متى كان الخيال لاشيء، وهو فاعلٌ حقيقةً في
الذات والمكان والزمان، في الشعور والتفكير والسلوك... هو
شيء واقع إذا. لم تكن طواحين دون كيشوت خيالا إذاً. فكم منا
لا يستطيع امتلاك شجاعة لمواجهة الذات. كم منا لو عرّى ذاته
مثلما عرّت اللوحة بصري، لانفجر دمعته قنبلة مألحة تحرق
المسام وتعتم الذوق وتذرف بياض الراية المزيجة للألوان،
حتى تصير اللوحات مجرد بياض. وما البياض إلا صورة
الموت عند الشعراء.

ما البياض إلا بديل أو ريشة تنمحي بها صورة النيران
والجبال، تمشط الأحمر والأخضر، فتعيد السكون والهدوء في

محاربة الفزع والرعب والطمع الذي يسلخ جلد الإنسان من الإنسان... قد يكون البياض سلاحى الذى سأنتصر به على تباعد مسافتي مع الجدار، ومع تشبُّحات اللوحة أمامي... لكن الحياة لا بد لها من ألوان... أعود، أقربُ المسافات بيني وبين اللوحة والجدار. عنصران في مسرحيتي، أساكن معهما الرؤيا، وأتقبل بهما الحكى، وأتقبل ريشة الفنان، هدية رسم استفزني... ربما هو صدمة عيادتي النفسية الأولى... ربما الرواق سريري العلاجي لأطواع أشكال تعقداتي الداخلية حتى تنساب إلى تناغم حياة وألوان.

صوت ناعم عبر الميكروفون ينادي :

الرجاء، الانسحاب قبل إغلاق المكان. شكراً.

هالها ما كتبته حينما أعادت القراءة له. استغربت من هذه الأفكار ومن مصدرها... كيف انساب القلم لخط كل هذا؟ وما مغزى مجموع ما كتبت؟ اهتزت دواخلها وازداد نبض قلبها حتى أصبح مؤثثاً لهذا الليل وصمته، كأنه ينوب عن عقارب الساعة في رقن زمن الوجود... تساءلت عن جدوى إرساله أو إعطائه مكتوباً إلى المهندس عماد... ربما وجبَ عليّ أن أرسله كذلك إلى الطبيب حليم السيد... طيب. سأرقنه في الحاسوب وأبعثه إليهما هما الاثنين، ما داما قد أقحمانى في عالم وتهمة الكتابة، وما أنا بكاتبة.

قبل ذلك، قامت للمطبخ، وأعدت فنجان قهوة، تناولت قبله جينا مع قطعة خبز صغيرة من شعير. عادت لجلستها، إنما هذه المرة ارتدتْ لباس نومها القطني الرطب وبابوشا أبيض ميّز

الوردية الفاتح الذي ينسدل على جسدها... في فتحها لجهاز الحاسوب، و صفحة كتابة جديدة، انجرف الرقن لموضوع آخر: كيف يمكننا تحقيق الخلود داخل الموت والفاء؟ خلال الحياة؟

- رباه ! أعني على التخلص من مثل هذه الأفكار. ما لي ولتعقيد أسئلة وفلسفة حياة... بالكاد تخلصت من ماضٍ لم تتدمل جروحه بعد، والآن أبدأ مغامرات الكون والإنسانية... ما أغربني ! هل أصبحت جنية؟ ههه... لا، بالتأكيد. ها أنا الأمس رجلي وأشعر بآدميتهما... استغفر الله العظيم. إنما كيف أستطيع أن أساهم في خيط خلود؟ أو حبل خلود؟ لا بد أن اسأل، وبعد ذلك أجيب عن السؤال. طبعاً لن أتعب صديقتي لطيفة بمثل هذه الشقاوة. لا بد لي أن أعوض لها لا مبالاتي بالأمس. أوقظها في عز الليل؟ سأكون أنانية وحمقاء إذاً. كم الساعة الآن؟ تتأببت وهي تنظر إلى جانب الشاشة الأيمن للحاسوب : أوه، الرابعة والنصف صباحاً ! الحمد لله أنه يوم أحد، وإلا فسيكون مثل وسط الأسبوع الذي قضيت يومه منقلة الجفون في المكتب.

في المرسم :

في الأصل هو مرآب سيارة بباب خشبي يفتح بألة تحكم. طوله خمسة عشرة مترا، وعرضه ثلاثة أمتار. في داخله غرفة صغيرة بالمتر طولا والثلاثة أمتار عرضا. بجانبه الأيسر باب الفيلا بإفريز من الجبص يزينه كما يزين أسفل أبواب الشرفات والمداخل. شكل تقليدي يعطي بهاء وأصالة لمنظر الفيلا من الخارج. وحين دخول الباب الرئيسي يوجد ممر رخامي لامع ومزركش بين ألوان يغلب عليها الأبيض والأسود.

مع صعود الدرج هناك مدخل مغطى ومؤدّ إلى بهو الفيلا. يتشكل الصالون من ثلاثة أجنحة متنوعة. ثلاث قاعات مفتوحة على نافورة في الوسط مزينة هي الأخرى بشكل تقليدي برخام أسود ومزركشة في أرضيتها، تحدّها ثمان زوايا صغيرة مهندسة على شكل نجمة تترقرق داخل حوضها مياه النافورة. يعطي منظرها العام شكل زهرة متفتحة تُجَمّل الفضاء. وتخرقها أنوار متداخلة ومتلونة، ما يجعلها تاجا مزهريا أخاذا وجذابا. إنها اختيارات فنان يريد للأشياء أن تكون حية وموحية ومتكلمة ومعبرة بما امتلكت من قوة البيان الإشاري الرمزي.

كان حضور وفاء للمرسم دعوةً وجّهتها لها زوجة المهندس عماد الغالي. أستاذة الفلسفة التي اختارت التقاعد النسبي بعد أن قضت خمسا وعشرين سنة وزيادة بالتعليم الثانوي التأهيلي.

تعيش داخل حدائقها المختارة، الأولى خضراء يشكلها الفضاء الخارجي والنباتي للفيلا، الثانية تؤنثها رفوف ومرافق المكتبة الكبيرة التي تحيط بأحد أجنحة الصالون الثلاثي الديكور، حيث تعتمر جنبات وجدران الجانب الأوسط من صالونات سفلي الفيلا. خمس أرائك فاخرة بألوان زاهية ومتفتحة، تزين فضاء الجلوس بين أروقة ورفوف هذه المكتبة الساحرة.

بدأ لوفاء أنها في عالم غير واقعي. لم تصدق وجود حياة ولا رخاء مرتبطين بهذا الذوق أو الفن أو الثقافة. راقها لدرجة جنون داخلي احتفظت به حتى تفجره في عالمها الخاص ومع رفيقتها الطبقية التي استطاعت أن تقتص منها ومن سلوكها في ذلك السبت الماضي، بالحصول على دعوة خاصة من وفاء في مطعم راقٍ بحي الرياض:

- أنت أهلٌ لكل خير حبيبتى لطيفة. لكن لن تصدقي الاكتشاف الجديد.

- كيف ذلك، وفاء؟

- دعيني أتم لك وصف الزيارة للمرسم ولعالمه.

- أوكي. لك ذلك. تابعي...

- هي أستاذة الفلسفة. اسمها سعاد باصليح. قسماات جمال أطلسي، في الخامسة والخمسين من عمرها. شعرها يبدو أنه مصبوغ بلون ذهبي يتخلله سواد داخلي. لباسها داخل الفيلا تقليديٌّ مائة في المائة. إنما شكل قفطانها أروع. سحرني بلونه الذي يأخذني غالباً في حُلم الشرفة الليلي: اللازوردي الناعم.

سأقص عليك فيما بعد حلمي الذي دار بين اللونين الأحمر والأزرق اللازوردي.

يبدو أن القفطان مخيط تحت الطلب في دور خياطة وفصالة خاصة. لم أر مثل شكل دنتيله وظيفته من قبل. استدارة جسدها أخذت منها ما يناسب مرحلتها العمرية. كم جميل أن تمتلك المرأة في هذه المرحلة العمرية جسدا غضا وممتلئا دون تدلٍ لصدرها أو تهدلٍ لنهديها وعنقها، أو انتفاخ مَعِيب لثنايا بطنها. كيف سأكون أنا في مرحلتها العمرية؟ تفصل بيننا حوالي تسع عشرة سنة، وهي أم أنجبت ثلاثة أولاد. أما أنا، فإنني لم أتزوج بعد. غالبا أنها خضعت لعمليات توليد قيصرية حتى تحافظ على رشاقة مناسبة.

الغريب أن لها أختا وهو معتقل سياسي، محكوم بالإعدام. أُجِّل استئناف الحكم وتخفيفه في حقه مرتين، حتى يرجع مؤبدا أو مؤقتا. تناقضات عيش لفنت انتباهي لها صورة داخل إطار خشبي جميل ومتوسط الحجم، بين جناحي المكتبة الوسطى. إنها صورة معتقل سياسي إذاً، أخيها الحسين باصليح. الغريب كذلك، أنه يرفض شكل وطريقة المحاكمة. لا يعترف بهيئتها ولا بالقوانين التي تبني عليها أحكامها. الأمر الذي يعقد ملفه دائما ويتركه مؤجل النظر. هناك رزمة رسائل موضوعة في حزام أحمر فوق رف بجانب الصورة. تبين لي فيما بعد من خلال الحديث أنها مراسلاته مع أخته وأسرته. لكن الأغرب هو اتخاذ الحياة شكلها الطبيعي كأنه كتاب مؤجل القراءة والتحليل والفك لرموزه:

- مرحبا بك أستاذة وفاء. كلّمني زوجي عماد عنك. ولا أخفيك أمرا، قرأت تصورك وكتابتك عن اللوحة الأولى التي استلهمتها من نجوم الليل وهدوئه كما جاء في عتبة إهدائها. أعجبني أسلوبك وكذلك أفكارك، فأنا مهووسة بالقراءة والفن والموسيقى. لذلك، سأكون جمهوركم الفرد في الرسم، وقارئكم الوتر الأولى للوحات التي ستكتبينها، إذا سمحت لي طبعا.

- العفو أستاذة سعاد، كل الشرف لي. فقط أن كتاباتي، أعتبرها بسيطة لا ترقى إلى مستوى المبدعين والفنانين.

- بالعكس، الكتابة الصادقة والذنبيلة هي الأرقى. وأنت تمتلكينها طبعا.

جلسة شايها، بلورٌ وفضةٌ. كأنك في صالون أندلسي من جلسات غرناطة وشعرها وأدبها. أما الحلويات، فنوع واحد فقط دون سواه. استبنتُ الذوق والكمال في الجلسة. فهل جئت لأكل؟ طبعا، لا.

بين جلسة الأسبوع الماضي وهذه، اكتشف جديد إضافي وشخصية جديدة.

أما الرسم، فقد نزلنا إليه من سلم الدرج الداخلي الذي يُتخذ له بابٌ عبارة عن لوحة مرسومة كبيرة بحجم مستطيل واقف مع الباب. بعد حوالي النصف ساعة من زياتي هذه كنا أسفل في الرسم. عالم غرائبي فعلا.

ولكن، قبل أن أكلمك وأحدثك عن الرسم وعالمه، لا بد لي أن أتكلّم عن صورة المعتقل في إطار الصورة من جديد. لم أتخيل

أن أرى محاسن جمال بمثل ما رأيت في الصورة. طبعاً، لقد دعنتي الأستاذة سعاد إلى قراءة الرسائل في مناسبة مقبلة. اشتعل فيّ الفضول، خصوصاً وأنني أصبحت من مهووسات الليل وشرفة الغرفة ومرافقة النجوم في الخيال والقراءة والكتابة. الأمر الذي زادني تعلقاً أولياً بالصورة، كعنصر اطمئنان على فضولي، ما دمتُ مدعوة لكشف أسرارها فيما بعد. عالم جديد إذًا.

((شاب في الرابع والعشرين من عمره كما في الصورة تقريباً. بين ولادته واعتقاله أربع وعشرون سنة. التهمة غريبة: هو الشيعوي، هو الإسلامي، هو المتطرف، هو الخارج عن القانون، المعارض للمقدسات... كل العناصر تداخلت في وصفه - اتهامه، حتى أصبح عدو الدولة والنظام، ما دام متنبياً لمواقف جذرية لا تتوافق مع الجميع. لم يَتَبَنَّهُ أحدٌ، رغم انتمائه للجميع تبرأ منه الكل، فأعلن رأيته الفريدة:

-{أنا ضد الكل، وأتحمل مسؤولية الكل، كل ما تنهمون به الكل، فهو وصف لي وأنا صاحبه. اغسلوا التاريخ على حبل مشنقتي. تطهروا أنتم بدمي وصلوا تضرعاً بجرمي {...}}.

كانت هذه إحدى رسائله التي تضمنت قصيدة شعرية وليست رسالة عادية. لماذا زكى عقوبة الإعدام الصادرة في حقه؟ فلسفة سؤال، وسؤال فلسفة - تتابع أخته سعاد - رغم أنه محكوم بالإعدام. لماذا؟ والدموع تيرق من عينيها، حُسْنُهُ بريء من كل هذا التساؤل.

قررت وفاء في دواخلها أن تنظم زيارة له تجعل موعداً للقائه ومصادقته.

- الحمقاء! هكذا وصفتها صديقتها لطيفة: آ الهبيلة. هكذا
سينعتك المحيط. آ الغربية. هكذا ستنتعك دائرة الهر هورة.
العذراء، هكذا وصفتها أخت المعتقل سعاد باصليح.

كان الولوج إلى المرسم نزولا من درج الصالون الموجود في زاوية منه، وراء لوحة حاجبة لنفق. استقبلتني لوحة عارية إلا من سواد متدرج في حلته بين رمادية أرضيته السفلى ومدارج الصعود إلى تلك الحلقة القاتمة، تعلقت بوسطها الأعلى نجمة باهتة.

طبعا أول استفهام داخلي، أثارته النجمة الفريدة في هذا الإطار. أتراها لوحة في بداية تأنيثها. لم يكن الوقت المناسب لطرح السؤال. فالمُضيفة هي من أخذت زمام الكلام المُرجّب، وهي الدليل في اكتشاف المرسم؟ لذلك قررت أن أوّجّل استفهاماتي وتعجّباتي بعد حين أو فيما بعد.

- مرّت ثمان سنوات على فتحنا لهذه الورشة. كنت حينها أشتغل في التدريس داخل القسم مع التلامذة. ومن حسن حظي تلك السنة، أنني أقمت أنشطة تربوية موازية معهم. والورشة التي برزت ونجحت حينها، هي ورشة الرسم. احتجنا من أجل تطويرها أكثر إلى قاعة مخصصة للرسم. لكنه، لسوء حظنا أن جل مؤسساتنا التعليمية تفتقر لأبسط المرافق، فما بالنا بمرسم خاص بالفنون التشكيلية. المواهب موجودة والفضاء غائب.

مشكلتي أنني أفكر جهرا. ومشكلة زوجي معاد أنه يكون ضحية احتجاجي وشكواي في كل شيء. فأذناه لا تفرغان من

دويّ كلامي: ضجيج المواصلات، ورطة سياقة مع شرطي المرور، المشاكل الإدارية في المؤسسة التعليمية، مشاكل التلامذة، وهنا مشكل المرسم الذي يجب توفيره لتلك المواهب.

حينما اقترح عماد مرآب السيارتين كفضاء للمرسم، طُرح مشكلهما أيضا. لحسن الحظ أن الحديقة يخترقها خطان متوازيان ومبلطان بالإسمنت والغرانيت. كأنهما سكة عبور للعجلات. تم تغيير واجهة وأبواب الفيلا كما ترين الآن، لكننا لم ننتظر نهاية الإصلاح. تركنا المبيت للسيارتين أمام المبنى، وبدأنا بسرعة في ورشة الرسم. قلت حينئذٍ لعماد - واعتلت ضحكات سعاد حين تذكر ذلك - : الضامن شكارته معه يا عماد.*

- كيف؟

- أنت مهندس ورسام، لا بد أن لك أدوات إضافية تفيدينا بها.

وكما ترين الآن. المرسم قائم والأجيال تداخلت وتعاقبت في استخدامه والعمل فيه. هذه السنة يتداول على استعماله أربعة رسامين.

امتطت عينا وفاء أجنحة خيالها، وشكلت من الألوان سماء سباحتها. اغرورقت بضياءٍ مملح ومتغذٍّ بأدوات الحلم الذي يرافقها:

- أترى هذه هي جزيرة الأحلام التي يتشكل فيها خيالي الليلي والانكتابي؟ سأفرُّ من هذا السؤال الآن. أنا في ضيافة واستماع للأستاذة سعاد.

* - الضامن يكون بالتزاماته المادية وليس المعنوية فقط.

طاولة مستطيلة بحوالي المتر عرضا والمترين طولاً. سلم في زاوية مثني. حاملات لوحات بقوائمها الخشبية الرقيقة... كم كنت أمزج بينها وبين ساقي فتاة ما رقيقتين جدا. أمارس شقاوة تشبيهه غير لائق داخل قرارة نفسي المشاغبة بعض الأحيان. إحداها فارغة، بينما الأخريات اعتمرتها لوحات شبه منتهية في الاشتغال أو في بدايته الأولى. ركزت عيني على الأدوات فوق الطاولة، وآثار الصباغة التي تتفرق على جنباتها وكذا على البساط الأرضي. يبدو أنه بساط بلاستيكي سميك ومقوى، يسهل غسله وتنظيفه كل حين. لونه أزرق داكن، استفز ميولي إلى اللازوردي الساحر ليلاً أمام شرفة غرفتي. حبذا لو كان أحد الرسامين أو الرسامات حاضرا في هذه اللحظة.

لوحتان غير مكتملتين، لكنهما مترابطتان. الأولى من وحي فرعوني، جعلت جسد إنسان برأس حيواني. الثانية، من وحي أسطوري كذلك، جعلت جسد حيوان برأس إنسان. التخطيط الأول فوق اللوحتين يبين كل هذا، لكن ما تساءلت عنه هو بداية الاشتغال فيهما على النصف العلوي للكائنين، وتركيز الرسم على ملامح قد تبدو تعبيرية لهما. طبعاً، أجلت السؤال كذلك. الأمر الذي خلق توترات داخلية في كياني، شعرت بها في انفلات لا إرادي لحركة الصغرى من أصابع يدي اليسرى، راوغتها بتمرير للأصبع مع ما انسدل من خصلات شعري على حاجبي الأيمن، مع محافظتي على ابتسامة قد تخفي ما تخفيه. لكنني أعلم ان لي الليل أفتح فيه ما أطويه بالنهار، أو لي لطيفة، أصرخ معها فيما وبما كتمته في غيابها. اللعينة، لا

تترك فرصة إلا وتُعريني فيها من كل أقنعتي التي أتباهى بها داخل المجتمع ومع الناس:

- آ الولية، أنت وِجْدية أو رباطية؟ يبدو أنك تنسلخين من كل شيء. شدة رأس أمك وتشميرتها لا زالتا في الدولاب. ههه..

- أنا وفاء آ الهبيلة، بنت البحر والليل والنجوم.

- ممم، مسكونة بالجنون، الله يستر.

- لو كنت جنية، كنت صعقتك أنت الأولى حتى لا تلوين بكلام أو فهامة مثل هذه. وأنت، شنو جاب بوك لمدينة تمارة*؟

أعود لنصفي الواقعي والمادي، وأترك نصفي الهذيان والهيامي. في الحقيقة انفلتت مني بعض الشروحات التي قامت بها الأستاذة سعاد لنحت لحصان صغير في ركن من المرسم - المرآب. هذا الهذيان والانزياح شرّدي.

رّن الهاتف. ظننته هاتفني المحمول. لكنها نفس النعمة توافقت مع هاتف الأستاذة سعاد. أجابت بعد تأمل شاشته والرقم المتصل:

- لآلة أسية، مساء النور.

...

- تصوري من معي الآن؟

...

- الأئسة وفاء، الموظفة بوزارة الثقافة.

* ما الذي أتى بك إلى مدينة تمارة؟

...

- سلم عليك الخير والربح. هي كذلك تسلم عليك.

...

- نعم... نعم... اسمعي، لماذا لا تلتحقين بنا هنا... واحضري معك سلمى وصديقتها رانيا... ربما حتى الأنسة وفاء يمكنها أن تفيدهما في ورشتهما وبحثهما.

...

- إلى اللقاء إذًا.

...

- أنسة وفاء، اسمحي لي أن أعود بك للوحة أسفل الدرج هناك.

ماذا تلاحظين فيها؟

- نجمة باهتة وتموجات سواد أو ظلام هو... لكن ذلك الامتداد الرمادي أسفل، لم أفهمه بعد.

- طيب، قبل قليل، قلت لك بأن أخي محكوم بالإعدام. ورغم أنني صادقة في ما أخبرتك به، لكن، هناك ما لم أخبرك به بعد. فعلا الحكم بالإعدام وتقاطر الاتهامات معه، كل هذا موجود. لكن بلدنا عرف محطات توافق سياسي وانفراج حقوقي، استفاد معها أخي من درجات تخفيف حتى العفو وإطلاق سراحه. مثله مثل من كان محظوظا بالصمود والبقاء على قيد الحياة داخل زنزانة أو في قبو مظلم. المشكل المطروح هنا هو رفض أخي لكل هذه الحلول والانفراجات. في البداية طالب بإعادة المحاكمة أو المحاكمات. وطبعا كان الأمر مستحيلا، إذ وجبت

محاكمة مؤسسات وشخصيات أمرة ومسؤولة، وسياسات تمت في تاريخ بلدنا المغربي. رُفض الطلب، ورُفض التوقيع على كل الأوراق التي تساعد على الاستفادة من التخفيف والسراح. وبقي الملف معلقاً. في الرسائل الملفوفة بجانب صورته فوق في الصالون، سردٌ لكل المرافعات الممكنة التي يطالب بها في ملفه... ربما سيكون لك وقت لقراءتها:

مما رافع به ضميره وتاريخه ومجتمعه السؤال عن مسؤولية الأرواح التي أعدمتم أو اغتيلت بدون محاكمة. إذا كان التاريخ للتوافق والتسامح، إذا كان ما وقع هو تاريخ مرحلة، فما هو ذنب من ذهب ضحية؟ تصوروا لو كنت أنا الضحية إعداماً أو اغتيالاً أو جنوناً أو نفيًا عديمياً، من كان سيرجع لي حقي في الحياة؟ الآن؟ العفو؟ عفوا، لا أقبله الآن. أريد محاكمة عاجلة.

- وأين هو الآن؟ ألا يزال مسجوناً؟

- لا. هو الآن في قرينتنا الأصل. ننحدر من الأطلس المتوسط، من قرية "تيمليت". يرفض الرجوع إلى حياته العادية والطبيعية داخل المدينة. يرفض جل أشكال التواصل والاتصالات. لقد أوقف عقارب زمنه الشخصي حتى يستقيم الزمن السياسي والثقافي. هكذا أجابني كل مرة. وما كنت لأعارض موضوعيته ومنطقه. احترمت اختياراته كما احترمت فيها من قبل تضحياته ونضالاته. حتى الدكتور حلیم السيد نصحني بعدم الضغط عليه، لأن مثل هذه الحالات قد تكون مؤشراً على الرغبة في انتحار مفاجئ.

- ولكن ، اسمحي لي بسؤال : كيف خرج من السجن وهو رافض لذلك؟

- رفض التوقيع، لكن قرار الإفراج كان بتوقيع ثلاثة أطباء نفسانيين شرعيين: مرحلة مرض عقلي متقدم، يحافظ فيه المريض على توازنه النفسي، ويستطيع منطقة الأمور والسلوك الشخصي، لكنه يمانع الحياة المجتمعية الطبيعية والعادية. مع العلم أنه يستغرق فترات ذكاء حاد وكبير خلال عمليات تفكيره اليومي. إضافة إلى "نزوع بدائي"، هكذا حَاصُوا إلى نوع المبرر المرَضِي الذي بموجبه سيأخذونه من معتقله إلى قريته، بحضور أهله. للعلم، فقد وقّعنا نحن على أوراق تشهد بذلك. كيف لا، وهو أخونا الذي كنا نعتبره قد فُقد للأبد. بينما عودته، كانت من سابغ المستحيلات، ولا أدري ما هي المستحيلات الست الأخرى... تَبّاً لهذا الزمن الرديء.

اغرورقت عيناها واحمرّتا، وأجهشت باكية وارتمت في أحضان وفاء كطفلة صغيرة خبأت وجهها في صدرها محتمية به من حالها. بلّلت كسوة وفاء، وما شعرت بما قامت به إلا بعد استعادتها لتوازنٍ مشاعري، فقدته قبل قليل. استنجدت وفاء بمناديل ورقية في حقبيتها، فناولت الأستاذة سعاد بعضاً منها، ومسحت ببعضها الآخر صفحة صدرها وفتحة نهديها وكسوتها.

- اسمحي لي، لقد بلّلت كسوتك، وعكرت عليك صفاءك وابتسامتك.

- العفو. تعلمين، كلنا في حاجة إلى البكاء وتفريغ هموم. أجابت وحاجباها مقطبان بضغط أسئلة عالقة تشابكت مع ما تفاعلت معه وتأثرت به: لماذا العودة إلى القرية وليس المدينة؟ مثلاً.

كانت لطيفة هي الأخرى، ضحيةً فيما بعد لهذا التحول في الرواية، حيث إن وفاء لم تخبرها بالقصة من آخرها، بل تعدت تقسيمها إلى جزأين متدرجين... ربما تختبر السر في تناول السيدة سعاد لقصة أخيها. ما الحكمة أو الغرض من ذلك؟

فبعد وصفها بالحمقاء، عادت وصرخت في وجهها المتلاعب بمسامعها: أنت مجرمة خطيرة آ اللعينة. تعلمين أنني أتأثر وأجهش في مثل هذه المواقف. تريدين تعذيبي بطريقة سردك للوقائع. لكن اعلمي أن القصة، بقدر ما هي حزينة هي غريبة كذلك... إنما دعيني أطرح عليك سؤالاً أيتها المجرمة، كما أنني أطرحه على نفسي أولاً، وعلى هذا الزمان: أين هو مجتمعنا من كل هذه الوقائع وما يقع؟ أهي السهرات بالشعبي والزيطي في التلغاز نهاية كل أسبوع؟ تبال هذا الزمن.

السيدة أسية تسكن في إقامة خاصة بالفيلات، في منحدر شاطئ صخري ممتدّ مع سطح البحر تقريبا. لا تفصله عن الماء سوى مسافة قصيرة. حينما وقع المدّ القوي لأمواج البحر، والذي عصف على شواطئ المحيط الأطلسي بمدن عدة كالصويرة والدار البيضاء وغيرها، فأتلف المرافق والمراكب والمقاهي والمطاعم، كانت إقامتها صوب أعين الجميع من أهلٍ ومعارف وحتى مسؤولين رسميين. رأوا في الموقع تهديدا بمدّ يجرف كل شيء طبعاً. لم تسلم نفسها ولا نفسها أسرته الصغيرة أو الكبيرة من هذا الرعب الداخلي والطبيعي. أخذ الجميع احتياطاته. تركوا الإقامة خلال تلك الأيام. هو لجوء اجتماعي وأسري إذا من الطبيعة حينما تهدد الكائنات.

لكن، الحمد لله، فإن المد القوي الذي نبهت له ترقبات الأرصاد الجوية، لم يضرب سوى الخط الأمامي الأول لبعض الفيلات المقابلة مباشرة والقريبة جدا من شط البحر. وطبعاً تسربت مياهه إلى بعضها. لكن فيلا أسية - وهي تسميتها أصلاً - كانت بمنأى عن كل تهديد أو إتلاف. إنما من يمر بجانب الإقامة عبر الطريق الشاطئية المؤدية من الرباط الساحلي إلى شواطئ الهرهورة أو تمارة، سيطرح السؤال والتعجب، إذا فكّر أو تفكر في ذلك المد الذي شبهه البعض بتسونامي اليابان. لكن الأمور مرت سليمة، وكما نقول المغاربة ينسون بسرعة.

هادئة الطبع. ابتسامتها قوية جدا. أما جمالها فيمكن تشبيهه
بجمال زرقة البحر اللامعة.

تلكز لطيفةً صديقَتها وفاء، كلما أتت بتشبيهه أو كلام غريب مثل
هذا:

- كيف تشبهين جمال امرأة بزرقة بحرٍ؟

- ما عيب زرقة البحر. أستحلفك بالله أن تذكر لي بعضها...
وإلا لماذا يجلس الناس أمامها في كل بقاع العالم؟

- أُنركيني منصتة لكلامك أيتها اللعينة. أنت صاحبة التشبيه. ما
العلاقة؟

- صفاء الماء يا مجنونة. هو من صفاء السماء، ومن عليل
نسيم الهواء، يترقرق ذبذبات أو موجات متراقصة في دغدغة
ثوب حرير لسطح الماء ولأذاننا. وجهها طفولي محافظ على
صباه وبراءته. ربما هي نعمة الوظيفة التي جعلتها جناحا
ملائكيا يبلمس الجراح، ويهدم الصراخ، ويمسح الدمع الأسّي
ليعوضه بالابتسامة الخالدة. ابتسامة الأطفال. انظري يا لطيفة،
حينما يأتيك طفل صغير بشوشا ومهرولا، فاتحا ذراعيه
لمعانقتك وتقبيلك، بصغر قامته ووداعته يصعد جبل صدرك.
بِمَ تشعرين؟

- شعور ملائكي طبعاً.

- كذلك هي السيدة أسية. بالنسبة لنا كنساء، قد نتسلح بضد ما
تتظاهر به كل امرأة. صناعة الأقمعة، حربنا في اكتشافها
وفضحها. ومحاربتها، ولو بنظرة سكانير بصرية صاعدة
ونازلة لشبح امرأة عابرة أو مارة في الطريق.

- أيتها اللعينة.

- لكن السيدة أسيه، كلما اخترقتها نظرا وكلاما وعلاقة، كانت كالماء الصافي الذي يدعوك إلى المزيد من الاستحمام في بحره والارتواء بزلاله، إرواء للظما. قسماتها دقيقة ومتكاملة مع ابتسامتها. لا بد لك من احترام. احترام هذا الجمال. قد تقولين لي، كيف يمكننا احترام الجمال؟ وكيف لرجل أن يقف أمام جمال أخذ دون ارتباك أو رد فعل متعزل به؟ هذا هو جمال أسيه. زاده وقارُ الوظيفة.

بين حي سكنها بالهرهورة وحي المنزه بالرباط مسافة العشر دقائق على الأكثر بالسيارة. إنما، فيلا السيدة سعاد بعيدة عن الشاطئ بحوالي أربعة مائة متر تقريبا. تجد ساحة أمامها، شاسعة وفارغة، ثم بعدها الطريق الساحلية، فالشاطئ الصخري البني الداكن الذي يعلو على سطح البحر بالمائة وخمسين مترا تقريبا. أكيد هو منظر خلاب تشاهده من شرفة الطابق العلوي للفيلا، فما بالك برؤيته من فوق سطحها. ذاك الأفق الأزرق الممتد شساعة، يشكل لوحة طبيعية مازجة بين البر والبحر والسماء، يكتمل حلمها ووجهها لحظات الغروب، حيث قرص الشمس يتحول إلى حُلته الذهبية فالحمراء حتى إسدال الستار للمشهد الرومانسي الجميل.

السيدة أسيه يستهويها ويأخذها السمع لهدير البحر وأمواجه التي ما تنفك من أداء سمفونية طبيعية يزكيها زوجها الطبيب بقوله: فيه شفاء للقلوب. الهدير طهارة سمعية للدواخل، لا تستطيع جميع صناعات العالم مضاهاتها وظيفه.

أما السيدة سعاد: فقد اعتلت سلم المشهد لتحتوي الصورة واللوحة. تلك امرأة وهذه امرأة. تنضاف إليهما ولهما وفاء، والتي ستكون القلم المترجم للمشهد، الكاتبة المسجلة لخلود ابتسامته إذا.

كانت الجلسة في شرفة الطابق العلوي. جمعت النساء الخمسة: سعاد، وأسية، ووفاء، وسلمى، ورانيا.

بعد الانتهاء من زيارة المرسم، والتي انضافت لها جماعة الهرهورة، تحولت الجلسة إلى استمتاع بالغروب. وسعاد حريصة على توقيتته وجلسته. يأخذها على الأقل الخمس وأربعين دقيقة كلما استطاعت لذلك سبيلا. طقس لا تمله، ما دامت تسافر في دواخلها عبره، وتظهر حواسها به، وتصد بنشوتها معه في ارتشاف شايبها وتذوق حلوياتها الوتر.

توجهت وفاء بالحديث إلى سلمى ورانيا:

- ألاحظ أنكما وقفتما طويلا أمام اللوحة السوداء بنجمتها الباهتة. هل تساعداني على فهم بعض أسرارها؟

تبادلتا النظر والابتسامة والضحكات الخفيفة. الأيفون في يد كل واحدة منهما. بادرت سلمى إلى الكلام في محاولة جواب:

- ذكرنا بجماعات الدراسة في الثانوية والقسم، تناسب لباس مجموعتنا. لقد اقترحتُ على رانيا أن نأخذ اللوحة ونزين بها قاعة الدراسة.

تجددت ضحكاتهما الخفيفة، بينما بادرت وفاء إلى سؤال مرتبط بالاقترح:

- لماذا هذه اللوحة بالضبط؟

- ألا تلاحظين أن رانيا تتخذ لباسا أسود. هؤلاء عصابة عبدة الشيطان. ههه.

- ألسنت منهم يا سلمى؟ علقت رانيا.

- تعجبني طريقة لباسهم، تمردهم، موسيقاهم، لكنني مثلك لا أحب السلوكات المتطرفة والغريبة التي يقومون بها. يببالغون كثيرا. في الحقيقة، لا أنا ولا رانيا، كلتانا لا نحب انحرافاتهم، رغم أنها مدهشة في المتابعة من باب الفضول والتجربة.

تضحك رانيا حتى تكاد تلمس سطح الطاولة الزجاجي بخدها منحنية وطاوية بطنها. يد ترفع الأيفون أعلى، والأخرى انثنت مع البطن، منقطعة الأنفاس. تنساق معها سلمى في درجة الضحك مع الاندهاش. ربما الانعكاس إشرطي مألوف بين الصديقتين يسبق كل عملية تفكير ناتجة...

تثيرها سلمى ضحكا وسؤالاً:

- ما بك؟

- أتذكر عمر، صديقنا في القسم. كيف أنفق عشرة آلاف درهم في ليلة واحدة، وأهداها لنار الشياطين.

- هل يمكن أن تشرحالي أكثر؟

تبادلت سلمى النظرات من جديد مع رانيا. إنما هذه المرة بدون ابتسامات. بدا التردد عليهما في محاولة اقتحام كل محاولة للجواب بتفاصيل أكثر. هناك ما لا يجب أن يُقال.

- عمر من أسرة ميسورة. سواء أسرة أبيه أو أسرة أمه. لكن وضعه الاجتماعي ممزق جدا. عانى من ظروف طلاق مبكر بين أبيه وأمّه. اختار أبوه الهجرة إلى أوروبا والاستقرار بها،

بينما أمه التي احتضنته في طفولته الأولى سرعان ما تزوجت حينما بلغ الأربع عشرة سنة من عمره. كان بعيدا عن جماعات التدخين والنبيد. للأسف انقلب الوضع الآن. مدمن على الأنترنيت وتعلم اللغات. ربما لعنة إتقان الانجليزية هي سبب توغله في كل هذا. أصبح هو مثقف الجماعة ومُخبرها بجديدها العالمي من تظاهرات وموسيقى وحفلات. وكذلك مواض اللباس وتسريحات الشعر.

- بل عضوا في الجمعية العالمية. أضافت رانيا بانفعال غير متوقع.

أسكتتها سلمى بتنبيه صارم: أسكتي يا رانيا، لا ندري حقيقة أي شيء. لقد أوصانا بعدم ذكر ذلك لأحد. هل نسيت.

- وأنا ورانيا نحب الموسيقى وحرية اللباس والرقص، لكننا لا نستطيع ولوج تلك الثقافة. هي في الحقيقة غريبة جدا علينا وخطيرة. نشعر بذلك، ولكننا نأخذ الحذر دائما.

- وكيف تستطيعان توخي الحذر مع الخطر؟ سألتهما وفاء.

- هه... نسأل بطرق غير مباشرة عن مجموعة أمور أستاذ التربية الإسلامية والاجتماعيات والفلسفة والعربية. كما نسأل البابا والماما كل مرة... نبحث في الأنترنيت عن إجابات وتفسيرات.

- وعمر، كيف هو وضعه في كل هذا؟

- عمر يعيش مع جدته من جهة أمه. تقريبا يعيش بمفرده. الخادمة تعد وتحضر كل شيء، لكن حياته اليومية أصبحت لا تعرف عنها جدته أي شيء. والداه يغدقان عليه بكل ما يريد

من نقود ولباس، حتى إنه يتوفر على دراجته الهوائية والنارية وعلى سيارته الخاصة، وحساب بنكي ربما لا يمتلكه من يدرّسونه في المؤسسة.

الخطير في الأمر، أنه أصبحت له علاقات مشبوهة مع أشخاص غرباء، ربما مع مجرمين. أنواع مخدرات يأتي بها ويجربونها جماعة، وليال صاخبة تنفق فيها أموال طائلة، وتجمعات رقص يكتري لها تجهيزاتها، حتى إنه يكتري قاعات حفلات بعض الأحيان.

تضيف رانيا متدخلة:

- المشكل في الأمر، هو أنه حينما يقف معنا في باب المؤسسة أو ساحتها، يكون ذلك ال(عمر) الذي عرفناه في الطفولة والصباء، ظريفاً، محترماً، لطيفاً... لم يغير من التعامل معنا شيئاً. لكنه بمجرد ما ينطلق مع أفراد عصابته حتى يصبح عمر آخر. كأنه ينتقم من عمر الآخر.

- عندك حق رانيا. أضافت سلمى. هو ينتقم من طلاق أبويه أو من زواج أمه على ما أظن. ولكن لماذا القبط والكلاب الضالة؟

- كيف؟ استغربت وفاء، مع مزيد من فضول معرفة وسماع.

تضيف رانيا شارحة وعيناها منصوبتان على سلمى، يبدو أنهما شعرتا بالتورط في إعطاء تفاصيل دون أن تشعرنا بذلك:

- يقومون في الليل بجولات عبر الشوارع المهجورة والفارغة بالسيارات، وكلما لاحظوا حيواناً ضالاً قاموا بدهسه بالعجلات.

- كل هذا على حساب دراسته وصحته يا رانيا... انظري إلى رشيد، صديقنا في القسم. يلبس لباسهم وتسريحة شعرهم، لكنه مواظب على نادي الرياضة وعلى الدراسة بامتياز، ربما أفضل منا. بعيد عن التدخين والمخدرات. لكن كوثر العكس تماما.

- من كوثر؟ يخترق سؤال وفاء حديثهما من جديد.

تجيب سلمى:

- كوثر زميلتنا كذلك في الدراسة. أبوها تاجر في دكان صغير من أسرة بسيطة. وقر لها أخوها الذي يعمل في إيطاليا تكاليف الدراسة في مؤسسة خصوصية، كذلك اللباس وكل ما تحتاجه من حاسوب وآيفون ودراجة نارية. لكنها انجذبت لثقافة الجماعة - العصابة، وأصبحت مدمنة على السجائر والرقص الجنوني والتشبه بالذكور أكثر في سلوكها.

إيجابية واحدة عندها، هي حفاظها على نتائج دراسية جيدة، عكس عمر الذي حصل على نقطة ضعيفة في الامتحان الجهوي للباكلوريا، ورغم انتقاله إلى السنة الثانية باكوريا فإنه عليه دين.

- في الحقيقة يجنون علينا بنظام الباكلوريا هذا. يُعَوِّدوننا على ثقل الديون والحياة بالديون... كيف سيعوض النقص في الامتحان الوطني؟ الله أعلم. بالكاد حصل على معدل الدورة الأولى هذه السنة. وهي غالبا محاباة من الأساتذة والمؤسسة وليست حقيقية أو مترجمة للمستوى.

- المشكل أنه يتأثر بشكل سريع. مرهف الإحساس والعاطفة رغم ما انجر إليه مع الجماعة. كأنه يعيش شخصيتين... واه... تضيف رانيا وقد بدا عليها توتر أكبر: إذا رسب هذه السنة سيزيد في تهوره وإدمانه. حتى جفونه تحفرت واسودت، وبنيته ضعفت وهزلت... يعول على شهادة البكالوريا لكي يخرج للدراسة بفرنسا... فهل سينجح في كل هذا؟

- فيم أنتن متحدثات. هكذا تدخلت السيدة أسية وهي راجعة من الصالون الداخلي للشرفة مع السيدة سعاد.

- ههه... تبادلتا النظر فيما بينهما من جديد، نظرتا إلى وفاء في اختبار لصداقة حوارها معهما، هذه التي أنقذتهما بجواب ما:

- كنا نناقش اللوحة السوداء الموجودة أسفل في المرسم.

تنفست سلمى الصعداء، فيما انغمست رانيا في شاشة آيفونها متكتكة على أيقوناته الرقمية. جاء صوت سعاد متوجها إلى وفاء في تذكير بما سبقت بداية مناقشته:

- ما رأيك في اللوحة يا وفاء؟

- أوه. هناك أملٌ في الأفق. هذا كل ما يمكنني قوله الآن.

- فعلا هناك أمل. لكنكُنْ، لم تلاحظن وجود خطوط رسم مخترقة لطلاء اللوحة أسود اللون. تلك الخطوط رسم لحمامة وميزان. عدالة وحرية. تنتظران بزوغ تلك النجمة أكثر، حتى تزيح العتمة التي تحجب الميزان والحمامة. معاودة رؤية اللوحة ستبين لكُنْ هذه الخطوط والإشارات. طيب، الآن نعود لمشروع رانيا وسلمى. ما هو إذاً؟

...

احتاجت سلمى للذهاب إلى السيارة من أجل إحضار الملف الخاص بالإنجاز وكذلك الحاسوب. ناولت الأستاذة سعاد الملف مع تقديمها لبعض الأفكار التي تنوي اقتراحها في إنجازها. نبّهت رانيا إلى توجيه أستاذهم لضرورة الدقة والإيجاز، مع مراعاة وقت الإنجاز. ذلك لأن امتحانات البكالوريا لم يتبق لها سوى بضعة أسابيع معدودة. ما يعني تلخيص العمل في ثلاث أو خمس صفحات على الأكثر مع إرفاقه بالصور وبعض الوثائق ما أمكن.

تبين من خلال أرضية الإنجاز ومقدمته الاقتراحية الصغيرة على أنه نوع من تغطية أو تقرير - روبرتاج لنشاط ثقافي أو فني ما.

أخذت الأستاذة سعاد نَفْساً حنينياً، استرجعت معه شوق العمل مع التلامذة. انسكبت دمعة التَّمَع وميضها وتلاًماً مع ضوء مصباح الشرفة. بللت ابتسامتها العذبة التي قبّلت بها خدّ كل من سلمى ورانيا، متمنية لهما التوفيق والنجاح. بينما تدخلت رانيا لكي تشرح وضعهما في ضغط إنجاز المقرر والساعات الإضافية الخصوصية التي لا تترك لهما وقتاً موازياً سوى هذا السبت من كل أسبوع، و فقط بعد العاشرة صباحاً منه. لذلك تأخرتا في القيام به وإنجازه.

اطلعت وفاء على الملف. أعجبها هذا الانفتاح الدراسي المخلوق للتلامذة من أجل التعرف على دروب الحياة المدنية والمؤسسات الثقافية والفنية. تدرّكت تأخرها في الكلام وتوقّف حديث جماعة النسوة في انتظار ما ستقوله حول الملف، بتدخلٍ ومقترحٍ في آنٍ معاً، بدا من ابتسامتها

ونظرتها الفرحة لعيون سلمى ورائيا أنها المنقذة من ورطة التأخر والمساعدة على الإنجاز:

- طيب، ما رأيكما لو أننا حصرنا هذا الإنجاز بتغطية لأنشطة رواق باب الرواح أو محمد الفاسي أو ألف باء أو غيرها داخل مدينة الرباط. خلال النصف الأول من سنة 2014؟

- كيف سنجعم المعلومات والصور؟ ساءلتها سلمى بصوت مرتعش.

- الإدارة التي أشتغل فيها في ملحقة لوزارة الثقافة بحي أكدال، والمكتب الذي أعمل فيه، يستقبل جميع الطلبات والتقارير الخاصة بالأنشطة التي تتم في مدينة الرباط. هناك ملصقات ومطويات ونسخ مقالات ودراسات منشورة في الإعلام الوطني.

...

ما رأيكما في التصميم الآتي؟ :

- 1 الصفحة الأولى نخصصها لصور بعض الأروقة وبطاقة تقنية خاصة بها.

- 2 الصفحة الثانية خاصة ببعض الأسماء لفنانات وفنانين عرضوا لوحاتهم أو منحوتاتهم مرفقة بصورهم.

- 3 الصفحة الثالثة تصنيف لاتجاهات الرسم ومدارسه لهؤلاء العارضين والعارضات. مع بطاقة تعريفية بهم.

- 4 الرابعة التواريخ والمدة الزمنية لكل عرض.

- 5 الصفحة الخامسة زركشة لقصاصات التغطيات الإعلامية في الصحف الوطنية.

- 6 والصفحة السادسة ... ممم!!!

- ماذا؟ تساءلت رانيا فاتحة فآها في اندهاش مستعطف ومستغرب.

- لا تخافا. الصفحة السادسة عبارة عن صورتين لحمامتين أو غزالتين مع ابتسامتين لكما أنتما الإثنتين، إضافة إلى بطاقة تعريف تقنية لكما.

انشرحت الأسارير وانبسطت النفوس، وسُرَّ الجمع لسرعة وجود حلٍّ للمطلوب إنجازَه. كان دور وفاء في تلقي قُبَل الشكر والعناق منهن بالتناوب، رغم أنه كان بحضن شديد وضاعط زيادة من طرف سلمى ورانيا مجتمعتين على وفاء... ورغم اندهاش الماما أسية والأستاذة سعاد من هذه الحميمية، إنما ابتساماة وفاء الفرحة بهذا الاحتضان الوجداني الجديد نقلها لتساؤلات خفية يحضر فيها صدق المكر الذي يجعل الأعين تغمض هروبا من مكره الذهني، حيث إننا كل مرة نقول تغيبا:

الله يلعن الشيطان الحرامي... كان إغماض العينين تساؤلا: هل هو طلب كتم ما أسرتا به لها أو باحتا به عن غير قصد قبل قليل، وقبل شكرها على الاقتراح؟

تدخلت سلمى بعد هدوء احتفالي للاقتراح:

- لكننا ستة في فريق الإنجاز ولسنا اثنتين فقط.

علقت السيدة سعاد بضحكتها العامرة:

- هذا عدد فريق حزبي في بلادنا.

- لا سياسة في مجمعنا أستاذة سعاد. ردت السيدة أسية مازحة.
- أنت على صواب آ لالة أسية. لنترك السياسة حتى ينتهي منها
الرجال. فهم الآن يستحذون عليها وعلى مؤشرات نجاحها.
- العربون باين للعيان. سارعت سعاد للإضافة - ووضع
الضحك غلب حتى على كتفيها في الاهتزاز وركبتيها في
الارتجاج. ثم أعقت، حتى لا تنفلت الفكرة من نطقها، رغم أن
أنفاسها متقطعة بين نهاية الضحك والاستمرار في الكلام:

- ثرى، السيد حلیم والسيد عماد في مجمع الرجال الآن
يتسايسون؟

كانت وفاء متجولة بين المتحاورتين الراشدين بنظراتها،
مترقبة لمضمون وأبعاد الموضوع الجديد الذي نتج
كاستنتاجات. فعلا، لاحظت أن الرجال غائبون عن الجلسة.
كذلك أولاد السيدة سعاد الثلاثة الذكور هم غائبون عن الأمسية
التي حوّلتها نجوم الليل إلى سهرة تحت ثريا السماء.

- متى تأتبان عندي إلى المكتب؟ تساءلت وفاء موجهة كلامها
لسلمى ورانيا.

- ونحن أستاذة وفاء، ألا تستدعينا لمكتبك؟ أم ثرانا كسولات؟
علقت ضاحكة ومدغدة جنباتها بكفيها السيدة سعاد.

- بالعكس، سيكون يوما كبيرا. بكل فرح وترحاب. سجلت وفاء
ما هو ضروري في التعليق الدبلوماسي المرحب.

- يوم الأربعاء، بعد الثانية عشر وقبل الثالثة بعد الزوال.
سارعت سلمى بالاقتراح.

- ولماذا هذا التحديد بالضبط يا سلمى؟ استغربت وفاء.

- من الدراسة إلى مكتبك، ثم إلى الساعات الإضافية
الخصوصية في مادة الفيزياء. أظن أننا سنتناول وجبة الغداء
في حي أكدال بالقرب من مكتبك. سجلت مبتسمة وناظرة إلى
صديقتها رانيا، لتتبادلا لغة العيون المترجمة للرجبة في هذا
الاقتراح.

ماذا ستسجله في ذاكرتها السيدة سعاد؟ ألفت منذ مدة أن تعيد شريط الأحداث اليومية، وترتب عناصره من جديد. يوم كان منهج التحليل النفسي كل ناموسها ومنطقها الكلي الذي لا تتزحزح عنه البتة. كل شيء يعود إلى تفاسير فرويدية. الإنسان مجموعة سلوكات يفسرها الكبت وتفسرها الرغبة.

لكن هذه اليقينيّات أخذت تتآكل جوانبها مع لعبة القدر أو ألعابه التي تتقاذف ووعي الإنسان وتوازنه تقادف زوبعة بريشة حمام. فما وقع لأخيها غير جميع المعادلات في ذهنها. إنما، لم يفقد ذهنها شريطه الرابط بهذه الحمولة. لا زالت تستخدم آليات التحليل النفسي في تأويل أحلامها وبعض ما يصدر عن محيطها.

هذه المرة، تشخيص لشخصية وفاء ورانيا، وكذا لملمة لتقاسيم وضحكات وردود فعل حركية لعناصر جلسة هذا المساء، دائرة النسوة التي كانت فردا منها.

استغرقها أخذ الدوش وتجفيف بدنها وشعرها والعناية باحتياجات جمالها الأنثوي، مدة تزيد عن النصف ساعة. ساعدها الهدوء المخيم على الفيلا في السفر الذهني المتسلح بعناد الأستاذة والعاشقة القديمة للتحليل النفسي على رسم صور جديدة واستنتاجات إذا. لكن المرأة خطفت خيالها من جديد، وجعلت هذا التفكير الباطني الممتد خبرة وعادة منذ سنين،

يشتغل في خبايا قاع محيط، كانت صفحة مائه السطحية منشغلة بانعكاس أشعة الشمس وتراقص النوارس، كانت هي المرأة التي استجمعت ضوء المصباح ووجه المرأة والتماع الدهون وأدوات التزيين التي تفاعلت في مختبر التهييء لليل وغرفة النوم واستراحة البدن في عنده.

أجلت الاستنتاجات مع قرع الأبواب ودخول الأولاد الذي صاحبته حركة جديدة في المنزل كأنه افتتاح لمدرسة أو مقهى بضجيج حركته وأشياءه... فقد عاد الأولاد من مباراتهم في كرة السلة منتشين بانتصارات الليلة، مرددين شعارات التشجيع التي لا زال دمهم يفور بها ونبضهم يرقص على إيقاعها.

علاء وخالد وحسن، فلذات كبدها التي ترعرعت بحبها وتوجيهها وأملها... بناء الشخصية وتكوين للمستقبل بالتربية والتعليم والتكوين... ما زال المشوار طويلا، وما زالت المسؤولية وجودية في التفكير والحرص والتربص. فكل لحظة من لحظات التفاعل مع قضية من قضايا الأولاد، يرجع فيها كل واحد من سمقه إلى برعميته في نظر وحضن الأمومة التي تخون صاحبته كل مرة فتذرف دموعا حارة يختلط فيها الحب والخوف والأمل والفرح، خصوصا مع حسن، آخر العنقود، بقدر ما تبتسم لرؤيته ومعانفته لها احتضانا قد يدوم في لحظات يومية لأكثر من ساعة في مشاهدة فيلم مشترك أو مباراة في كرة السلة، إذا كان المزاج والوقت يسمحان بذلك. يوم سمته تيمّنت باسم أخيها الحسين. خلّدت لشخصه بشخص ابنها واسمه وتسميته.

ازداد هذا التخليد افتتاناً وانعكاساً وإسقاطاً في لحظات الأمومة المنفعلة مع الحب والخوف على حملها الوديع، وكبرت الجدلية مرحبة به في وعيها وحرصها ومشاعرها... زادها استفحالا قدريا تركيب وعيها وعقلها الفلسفي والتفسيري التحليلي المنطقي.

- الماما، ما تزال مستيقظة. قَبْلَ حسن خدّ أمه الفائز بحماوة الدوش الساخن.

- والرجال سائبون حتى وقت متأخر... يبدو أنكم انتصرتم اليوم.

- نعم . كانت مباراة شيقة، هي قمة البطولة الوطنية. لقد تألق ابنك خالد فيها كثيرا. لا بد لك من تهنئته يا الماما الجميلة.

- والتي تركتموها وحيدة في الفيلا. تبارك الله عليكم.

- وأين البابا؟

هكذا أصبحت طريقة حسن في الكلام، يغيّر بها المؤلف حتى إن الجميع اعتاد على هذا الإخراج المبدع في التعليق وجعل لغة خاصة بالعائلة لا يفهمها إلا من أقحمه حسن فيها.

- البابا، هو كذلك ترك الماما. لا يزال لم يدخل بعد. ربما سأمنعكم من الدخول المرة المقبلة إذا تأخر الوقت.

تنال قبلة جديدة على خدها وضماً بذراع حسن لكتفيها.

- حرام عليك يا ماما. ما هي بتلات زهرتك الخالدة كما تسمينها؟

- أنتم يا عصابتي الجميلة. فقط إنني أخاف عليكم وتحضرني أهوال أفكار غريبة.

- لا تخافي يا شجرة الخلد الرائعة والأم الجميلة.

التمعت عيناها بدموع متلألئة. خالجتها ابتسامة حب كأنها أشعة شمس تزوجت مع قطرات شتاء خفيفة، تولد عنها قوس قزحي بألوان طيف تراءى على وجهها الصبوح ليلا، كما يصفها به زوجها عماد كلما أراد أن يجعلها تسبح في غنج ودلال.

لكنها تعرف أن نقطة ضعفها الأكبر هي مع حسن، خيط الاحتراق الذي يلف قلبها بوجع أخيها الحسين الذي عاند القدر والوجود حياة دون حياة، وقانوننا دون قانون، لكنه حقه في مرافعة الجميع، وقضية عادلة في المطالبة بمراجعة قانون الوجود والخلود وحبل الخلود هذا الذي تجعله سعاد على عنقها حبا لابنها وأخيها.

أمام المرأة:

- تصبحون على خير، وهنيئاً لكم بالفوز الرياضي.

هكذا ردت على أولادها الثلاثة الذين أحاطوا بها وهي جالسة أمام مرآتها، مستعدة لاستبدال فوطاتها ببيجاما تخلد فيها لنوم جديد.

قبلها كل واحد منهم بطريقته الخاصة، تلك التي يرسم بها عُرْفه الأمومي وشخصيته وعاطفته معها... علاء قبل الرأس واليدين ثم الخد الأيمن. خالد اكتفى بالحضن وتقبيل الكتفين في وضعية الواقف المنحني للتسليم على أمه الجالسة فوق كرسي أنافتها العريض. حسن، كان خده هو المتلقي لأقبلة (تصبح على خير حبيب قلبي). وبقدر ما هي تلوين وجداني وعاطفي، بقدر ما هي لعبة يستغلها كل طرف في المحاسبة المشاعرية والاستفادة الخدمانية والمادية المرافقة لها. لعبة تؤسس طبعا لتوافقات وتعاقبات ترفع الملل والرتابة عن مناخ الأسرة وعلاقاتها، خصوصاً مع كبر الأولاد الذي أصبحت معه الأنثى - الأم، الوحيدة التي لا نصره لأنوثتها سوى سلاحها الأمومي، كربة بيت داخل جمعها الذكوري.

يستعين اليومي بجماليات الذكاء المتبرعم في شخصية كل طفل ومراهق وشاب. في تدرج مراحلهم العمرية. سلاحها علمها وبيداغوجيتها كأستاذة.

أقفل حسن الباب، وكان آخرَ بسمةٍ خارجةٍ عن جدران الغرفة، والتي تركتُ سعاد في عالمها الخاص. حتى زوجها الذي ظنت أنه مع السيد حلِيم في سهرةٍ بأحد نوادي العاصمة أو الهرهرة كان قد اتصل ليُعلمها أنه مع مجموعة عمل.

هي تعلم تداخل الأعمال مع الولايم في عالم مهنته. لكنها لا تريد أن تكون طرفاً حاضراً فيها، خصوصاً أن أخلاقيات هذه اللقاءات لا تناسبها كأمراةٍ متزوجةٍ، كما لا تناسب قيمها التي تؤمن بها. فزوجها المهندس عماد الغالي يحتاج إلى صفقات وتفاوضات قد تتم خارج مكتبه. يكون فيها أصحاب مكاتب دراسات ومختبرات ومقاولين ورؤساء مصالح وشركات. هو عالم غير سليم وغير ناج من الخدمات والإكراميات تحت الطاولة. إشكال مجتمعي تؤجل تناوله كما تتركه على مسؤولية أصحابه. وكل له احتياطاته.

هو الآن بمدينة الجديدة. مدينة منشئه وكبيره ودراساته الأولى. عالم مصالح إذا ومشاريع وأدوار اجتماعية وثقافية، احتاجها لترجمة نجاحه الحياتي كمهندس وفنان. حاجة شخصيته الاجتماعية. هكذا حلت زهابه إلى هناك. حاجة شخصيته الأسرية والشخصية والمهنية إلى النجاح كشخصية معنوية وثقافية وسياسية على صعيد أكبر. هي تعلم بحدسها أنها بوابة مشاكل وعدم استقرار. دائماً تقول له:

- هذه بوابة ريح قد تتحول إلى عاصفة، فلا تراع من يحاول ترويضها. تتذكر يوم كتبت شذرات شعرية، اختزلت مخاوفها من هذا العالم وأفكارها حوله وقرأت عليه سطورها:

في أفق الريح الأزرق

شيطان تشكله الزوابع
غرور يمسكه سقف السماء
متى كان للسماء سقف؟
وهمٌ وسخرية قدر
ضحك على الذقون خارج مدار الفضاء

هكذا يتداخل الرمز والفن والتعبير في النياحة عن التصريح
ونفاذ إلى بيت القصيد في كل قصيد.

كان العشاء الذي عزمت عليه مجموعة النسوة بمطعم (دار
الطنجية) بنفس الحي الذي تسكن فيه، حي المنزه. لا زالت
قسمات العود التي رافقت الجلسة تُرجع الصدى داخل
مسامعها. تُردها بالألأة متغنجة وهي ترتب كالمعتاد الأشياء
التي تؤثت غرفتها. تكون اللمسة على ملف المذكرات التي
تدونها كصعقة كهربائية تجذب القلم لأناملها. تحب النقش قبل
الرقن. تعشق الكتابة بالقلم قبل أن تحولها إلى حاسوب ما.
طقطقة فوق الطاولة الزجاجية، تلاها استرخاء فوق الصوفا -
الأريكة الرحبة بجانب المرأة.

كان القلم صاحب الدور وخلق حياة بصوته واستعداده للعمل
في منتصف هذا الليل من سبت انقضى، يحرص على تسليم
الأنام والخلائق ليومٍ يليه أحدٌ من أسبوع. يحرص على
انسحابه في مشهد ستار يسدل دوره ليبدأ دورُ الآخر. فهل
تكون الحياة مسرحاً للأدوار بين عناصرها؟

لماذا الاكتفاء بعزف على الأوتار دون غناء؟ كيف كان الطالب لبقاً، خافتاً، مع دسّ ورقة خمسين درهما مطوية ومخفية؟ المهم عندها هو أن تترك النغمات لصوت كل سامع أو سامعة، أن يردد الأغنية في دواخله كيفما اشتهى:

- كل رأس تعجبه طنانه. هكذا علقت بعد الطلب موجهة ملاحظتها لصديقتها أسية.

رفعت بصرها إلى جهة باب غرفة النوم. لا زال طيف البسمة التي رسمها حسن، بسمة حاضرة بوقعها هناك. لكنها هنا كذلك في قلبها أقوى وأكبر. كانت تلك الابتسامة الوديعه هي التي تسكب الحبر على صفحات مذكرتها الخالدة : *حبّ الخلود*.

حبّ الخلود، هو حبٌّ يعمر ولا يموت. ينتقل فيسكن كل الذوات في آن واحدٍ، ويعتمر جميع الأزمنة في لحظة واحدة. هذه اللحظة خلود ليس بحاضر ولا بماضٍ ولا بمستقبل. فهل سيكون الخلود فعلاً هو هذا اللازم الذي يلعب بقدر الوجود؟ هي تعلم بأن هذا الوصف اللازمي خاص بالألوهية التي لا يطويها خيط الزمن في وجودها الخالد، والتي تعيش الماضي في الآتي والآتي في الفائت، فما أدرانا بالحاضر... كل هذا نقطة واحدة في وجوده كما تصوره المتصوفة الكبار.

لكن هذا الوجود، وهذا الخلود، ما وقعهما على ذاتي ونفسي؟ لماذا هذا الحب المختلط بالخوف والوجع؟ بالألم والتهديد بالفناء؟ بالحب؟ بالإبداع؟ أي خيط وأي حبّ يضمن الاستمرارية في سفر الوجود ورحلة الحب بين القلوب؟

ولكن ، لماذا هذا الوجع؟ وجع على وجع؟ كيف أفسره مع نفسي ومع قارئتي؟

أخذت سعاد مع هذه السطور نَفَسًا عميقًا، وشعرت بأن أصابعها وعنقها قد تشنجت كأعضاء. دغدغْتُ، في عملية تدليك واسترخاء على الصوفا، شحمتي أذنيها لما يقارب الدقيقة. دلكت أطراف أصابعها في عمليات مستديرة ذات اليمين وذات الشمال... هي طقوس تحفظها بعادة القيام بها... ثقافة تدليك مرتبطة بالبدن، وتقوم بوظائفها الاسترخائية والسلوكية الإشرافية. عادت لوضعية الكتابة بعد أن قفزت على مجموعة سطور تركتها فارغة في نفس الصفحة التي ستستمر في استعمالها:

سأترك الفراغ لأن الحياة مليئة بالفراغات التي لا تسعفنا في اليومي فما بالنا بالوجودي فيها والقدري في حسمها... وكذلك، كم من فراغ يكون ضروريا في الوجود وكم من وجود يكون ضروريا في الفراغ.

بخط عريض، كتبت اسمين علمين : حسن وحسين. واستمرت في نسج أفكار جديدة :

كنت أريد أن أعوض وجع الأخ بفرح الابن، لكنني أجدني متورطة في خوف على هذا الحب - الفرحة، كلما غاب عن بصري.

أصبحت قضيتهما كاسمين بثقل قضية الحسن والحسين في فكرنا الاسلامي وتاريخه الدموي. كيف عاش الاسمان ظروفا، وكيف تورطت مجتمعاتنا في صراع يرجع في الارتباط بهما كاسمين، دون أن يكون للحسن والحسين رغبة في هذا التاريخ؟ كيف أزيح هذا التشبيه الحزين الذي يسم تخلف أمة

كبيرة تصل إلى المليار ونصف نسمة؟ وأبعده عن عالمي
الخاص، عن بؤبؤتي : حسن وحسين؟

إذا كان الحسين قد اختار مسار قدره وتحده في حياته قبل
موته، وكان قد وهب به الشجاعة لمن لا شجاعة له كلما اطلع
أحدُهم على قصته وصعوبتها، فإن حسن لا علاقة له بهذه
الدراما الحزينة والمؤلمة. ليس من حقنا أن نجني عليه بهذا
الإسقاط... ما العمل مع هذا الوضع النفسي؟ لا أدري الآن.
أوجِّله إلى حين.

أحتاج إلى معاودة قراءة رسائل الحسين. علَّها تنقذني من يأس
في موضوع حياته الجديدة. علَّني أجد من يشاركني قراءتها
وتوظيفها. آه ، أتذكر الآن أنني قد وعدت أو طلبت من الأنسة
وفاء الاطلاع على هذه الرسائل إن هي رغبت في ذلك. طيب.
ولكنني أستغرب من نفسي في هذه اللحظات، كيف أصبحتُ
أستعمل أوصافا وتعابير لا واقعية، قريبة من خيال هذيان أكثر
من قربها من وصف واقع، وأنا صاحبة المنطق الواقعي في
تحاليلي؟!!!

لماذا تراقصت مع الأرقام وأنا أصف مراحل الحسين العمرية
لوفاء؟ لماذا استعملت الرقم أربعة وعشرين كمحطات انتقال
في وصف مراحل العمرية هاته؟ أهى سخرية متذمرة من
القدر الذي يتلاعب بأفئدتنا فيباغتتنا بضحكاته الجنونية وغير
المفسرة؟ لن أسايره الآن هو الآخر في تفكيري، فقد أجن أو
أبقى بدون نعمة نوم... كان الله في عونك أخي الحسين. كيف
تستطيع الحفاظ على كل هذا الثبات والتوازن في حياتك بعد
كل ما مضى وكل ما يقع وما اخترته داخلها كتحديات؟ حتى

الأطباء يلجؤون إليك اليوم بمكرهم لكي يستفيدوا منك بما يخدم علمهم وشخصيتهم هم كذلك... كتاباتك مطلوبة عندهم كوثائق ومذكرات. بقدر ما يحاولون اختراق شخصيتك لتحليلها نفسانيا وتشخيصها مرضيا، تنفذ أنت في دواخلهم كشاعر يحمل نبوءاته... فمن السوي إذاً؟ أنت أم هم؟ كان الله في عونك أخي شجرة محافظة على كبريائها، واقفة بصمود أمام الزوابع العاصفة.

كان افتراق النسوة بعد وجبة العشاء رجوعاً في سيارة السيدة سعاد (الطويوطا) الواسعة حتى باب الفيلا. بعدها أوصلت السيدة أسية رانيا صديقة ابنتها حتى منزل أسرتها، في سيارتها (السينيك). كما ذهبت وفاء في سيارتها (رونو كليو) حتى منزلها الذي لا يبعد عن حي المنزه سوى بحوالي العشر دقائق على أكثر تقدير، مع اعتبار الأزقة الملتوية التي ستخذها حتى تصل إليه. وحي المنزه مع حي يعقوب المنصور متقاربان، كلاهما على الخط الساحلي للمحيط الأطلسي، رغم أن حي يعقوب المنصور أكبر مساحة وساكنة من الآخر، حيث يضم تلوينات سكنية تعكس اختلافات طبقية وتترجم مستوى عيش الناس بين متوسط وضعيف... وقد قامت سياسة جديدة بإنشاء كورنيش يحاول إنعاش المجال السياحي على طول الطريق البحري الشاطئي... لكن المشروع لا يزال في بداياته ويعرف تعثرات مختلفة، ينتظر الناس الإفراج عن بعضه حتى يتنفسوا ريحا تنموية جديدة أفضل مما هو عليه الحال الآن.

كالمعتاد، لم يهدأ هاتفها من الرن واستقبال رسائل إلكترونية مكتوبة، كذا من إرسالها. ذلك أن الرقم الثاني المجاني في الاستفادة من عقدها مع شركة الهاتف جعلته مع صديقتها لطيفة. وحيث إن وفاء ليس لها الآن في عائلتها سوى أخيها الذي يعيش في مدينة وجدة منذ عقود، والذي يكبرها بحوالي العشر سنوات، فإنها قد قوت رابطة الصداقة مع لطيفة التي قد

وجدت فيها أختا لها أكثر من صديقة. وهذا الاشتراك في المكالمات المجانية بين رقميهما سيكون عاملا مقويا لكثرة المكالمات بين الطرفين في أكثر الأوقات اليومية، وفي مناخ حياتهما وتحركاتهما وانشغالاتهما وتفكيرهما:

- آ صاحبتني، إنني الآن في الرباط بحي المنزه، والساعة تقترب من منتصف الليل. لذلك، لنترك اللقاء للغد إن شاء الله. تصبحين على خير.

- رجعتي بوك بوجازية، ها حي الهرهورة، ها حي المنزه. ونحن لنا الله ومدينة تمارة. تصبحي على خير، حتى الغد وأتفاهم معك.

هكذا أمنت لطيفة على صديقتها وفاء، وعلى ما دار في أمسية السيدة سعاد. ولكن يبقى للحديث بقية طبعاً.

محاولة فتح باب الشرفة تعذرت في البداية. وبعد محاولات متأنية، انفتحت بجناحيها، لكنها لفحت وجه وفاء برطوبة شديدة ومفاجئة، بعثها المحيط الأطلسي بكثافة، بدا من استشعارها أنها غير صحية وباردة جدا، لم تتنبأ بها حينما كانت مدعوة لوجبة العشاء، الأمر الذي جعلها تعيد إغلاقها، خصوصا حينما رفعت بصرها إلى السماء، فلاحظت ضبابا كثيفا يتراكم ويغلف سقف السماء وينشر ليلا سديميا معتما لم يترك للنجوم وسيلة للإطالة الملتمة على ابتسامه ورقرة بصر وعيني وفاء. حتى إنها بحثت عن لون عشقها الوجودي، ذلك اللون اللازوردي، فلم تجد داخل حلقة هذه الليلة سبيلا لمعانته.

أعدت إغلاق باب الشرفة، ورتبت استعدادها للنوم. في نفس الآن التفتت في شعور بالعزلة والوحداية إلى باب الشرفة من جديد، ثم إلى امتداد السرير الغريب في تلك اللحظة. بدا لها كشخص فرعوني ميت منذ قرون، تدمرت من هذا الصمت الجليدي المحيط. هوس الليل هو إذاً، جعلها تستعين بسحر الموسيقى والطرب الداخلي. دندنت وهممت ورددت إيقاع بعض كلمات أغنية عيون القلب لنجاة الصغيرة. بعد لحظة خاطبت نفسها وخاطبت نجاة الصغيرة: حشومة عليك أ نجاة. ذلك أن نجاة في أغنية أخرى غنتها، كان الشاعر الذي كتب الكلمات ضحية لحبها وتحولها عنه إلى غيره.

استرخت على جانب السرير واضعة كل وسائدها مستندًا
لظهرها في وضعية التمدد الجديدة. غنت من جديد لنجاة : إني
رأيتكما... إني سمعتكما... تيراراي... عيناك في عينيه، في
شفنيه.. في قدميه.. في قدميه...

كان ذهنها مشغولا بأمر آخر لم تحده مباشرة. لذلك كان
ترديدها للأغنية شبه آلي، لكثرة ما تعودت عليها منذ صغرها
الذي لا تتذكره. ما الذي يشغل بالها في هذا الليل الجديد الذي
يغيب فيه معشوقها اللازوردي؟ ربما هوس الليل هو، جعلها
تجلس في وضعية جديدة بجانب السرير بدون تفكير في شيء
ودندنة أو طنطنة. لكنها سرعان ما قامت لרزمة أوراق وقلم،
بمحاذاة الشرفة المغلقة كأنها تقترب من سياج ضريح للتبرك
به والتمسح بجنباته. سحبت كرسيًا من أمام المنضدة، وشرعت
تسجل ما عاهدت به مجموعتها الجنونية الجديدة، تشكيلا
بالكلام لعلاقاتها الجديدة طبعًا:

- هذه الليلة احتجب اللون اللازوردي عن الرؤية. كنت أريد
جرعة منه تروي وجداني ودواخلي، لكنه يبدو أنني أمسيت في
ظمًا شديد بدونه. كنت أريد أن أكتب عن عشقي له مجددًا. يبدو
أنني أصبحت بدونه أعيش بلا ألوان، داخل جدران. هي الكتابة
عن الجدران أو عن الجدار إذًا.

هل سيكون الجدار رمزا للحصار؟ وهل هناك حصار أكبر من
السجن ومن مثال الحسين باصليح أخ سعاد الذي عاش حصار
السجن ماديا واستمر فيه نفسيا؟ إذا كان هذا موضوعا جديدا،
فكيف هي ذاتي في تفاعلها معه، هذا الجدار وهذا الحصار؟

جل الكتابات التي سبق لي الاطلاع عليها حول موضوع الجدار لم تربطه بوضعية الأنثى. أنا أنثى، عازبة، وحيدة. حينما أرجع خيط الوجود وحبله، أجدني أعيش داخل جدار لا مرئي خطير جدا. التركيبة النفسية التي ورثتها في تربيتي، تميزني عن الذكر في المعايير والأحكام القيمية وفي المعاملة، الأدوار الثقافية، نظرات المجتمع الذكوري المهيمنة على الشارع، كلها خلقت أسيجة جدار سميكة تُحاصر ذات الأنثى، ذاتي أنا وفاء. تكبلها، حتى إنها اعتادت العيش داخلها كالصفرور الذي أنهكت إرادته وقُتِلتْ، ولما طلبوا منه التحليق، رفر ف بأجنحته في رقصة سراب غير محلقة. قُتِل كل شيء فيه. كالذي أو التي اعتادا على العبودية فرفضوا الحرية والانفصال عن سيدهما. وكما يقولون بكاء العبد على سيده أكبر من بكاء أهله عليه. سخرية العواطف وعبثيتها إذاً.

هي الأنثى، أصبحت داخل جدار وجودي خالد، زئبقي، يجدد بفلسفة قصة (جودوت) في الانتظار، كل أشكال اليأس والإحباط وفقدان الأمل في استرجاع أنوثتها.

هل ستبدأ اللوحة الثانية في هذه الصورة؟ كيف ستكون؟

لم يكن نفساً عميقاً فقط، كان ضغطاً بركانياً آتياً من الأعماق. ذلك الاستنشاق الذي استعانت به في تغذية حواسها بالأوكسجين، وذهبت معه في نومة، تعلم بأنها ليست للخلود بل فقط للرحلة في المكتوب وما سينكتب.

رأت فيما يراه النائم، وفي نصف وضعية النائم والمستيقظ، مربع قلعة بأسوار عالية. أبراج أربعة يقف فيها حراس بأسلحة ومكبرات رؤية وصوت منبهة. وسط ساحتها امرأة فريدة

واقفة داخل كومة ثياب سوداء غير مستبينة لحجمها ولا وجهها. سقف أو غطاء من الثوب هو، جُعل مظلة تحجب عنها أشعة الشمس، رغم أن الشمس كانت مبتسمة ووديعة بأشعتها، تريد نزع الغبار عن الجسد والثوب، نزع رطوبة أخذت تلتصق بمداراتهما. بينما وسط القلعة رمادي بين أسود وأبيض باهت. خارج القلعة توجد ألوان الطبيعة وأصواتها، يتناوب الحراس على رؤيته والتمتع به. فجأة، لاحظت خنفساء مخترقة المشهد. تذكرت الشوكولاته الصغيرة التي كانت تشتريها في صغرها وكانت تنتظر صاحب الدكان أن يناولها إياها. فجأة يلتهمها رأس ذئب مفصول عن جسده... تتناثر الرؤية غبارا متزوبعا في الساحة. تتعمم المشاهد، فتجد وفاء نفسها في وضعية منفلتة من جانب السرير، في شبه أو نصف سقوط منه. حاولت كتابة المنامة أو الحلم أو الرؤيا. لا تدري هي ماذا ستكون... سترجىء تفسيرها إلى حين. لا بد لها من المحيط القريب في تأويل الأحلام. انتهت واستغفرت وارتمت على الجانب الآخر من السرير مبتعدة عن قبالة الشرفة وما تعكسه من وميض ضعيف في تلك الليلة. زادها أزيز زجاج النافذة نفورا من حزن شرفتها كقبلة.

غفوة الكتابة أو الكاتب أو الكاتبة، استراحة من جنون وهذيان. قطبت حاجبيها لهذه الفكرة المروعة التي عبرت ذهنها وهي تصحو من غفوتها وحلمها ولوحتها:

- ألا قبّح الله وسوسة الشياطين. كيف للكتابة التي اعتبرتها دواء وتساميا أن تهددني بمثل هذه الأحوال؟ هل هي نعمة شيطانية؟ شبخ فكري يسكن صاحبه وصاحبته؟ يتحكم في ذهن

صاحبه ويوجهه إلى أفكار وعوالم، يوقظه، يغفيه، يراقصه،
يدميه أحزانا داخلية وسأما وشقاوة ؟

ألا إنني امرأة بلهاء. لا يستطيع كل هذا الوسواس امتلاكي. أنا
صاحبة القدر ولاعبة النرد بنجومه ورغباته. سأتابع
الغواية برغبة وشوق. ألم يشعُر عمر الخيام للقدر:

أحس في نفس دبيب الفناء ولم أصب في العيش إلا الشقاء

يا حسرتي إن حان حيني ولم يُنح لفكري حلّ لغز القضاء؟

أخذت نفسا عميقا وتأوهت مع العبارة التي رددتها بخشوع
وجداني. تابعت معها فعل التدوين:

ظمئي النسوي عاصفة تشترك فيها الأرض والسماء، والبحار
والرياح، فتراقص الكل على إيقاعها. هو ظمئي أستطيعه
ارتواء، ولكنني أشفق من حال الإنسانية، من حال الرجال في
الحياة، من تسابقهم نحو تحقيق رجولة وفحولة ورغبة في قيادة
سفينة، يطلب فيها من المرأة أن تكون عروسه التي يستبشر
بها الأفق وجزر السعادة واللآلئ. يكابد المشاق
كصخرة سيزيف، يحترق بالجمر والرماد وطبي الموج
لاشتياقاته في غياهب الأعماق والنسيان والتحقيق المؤجل. لا
أريد أن أكتب مرافعة، لكنها شفقة من حاله. وهو الفارس
المغوار.

جنسيا يمكنني أن أفسر كل فروسيته في لحظة رغبته في تملك
الرغبة وتحقيقها بطريقته ليشعر بالقوة والتملك والتحكم
والإنجاز. أو لا يعلم أسطورتني؟ سأستحضر حواء في مكرها،
حينما بحثت عن آدم ليل نهار، وعندما رأته هي الأولى، هو

الذي كان يبحث عنها بالنهار ويستريح لينام بالليل، تظاهرت بالنوم وعدم الاكترات، حتى أيقظها لشوقها ورغبتها واشتياقاتها. أيهما أكبر جهدا وتحقيقا للرغبة؟ حواء ضعفت آدم فيها. فهل يتصور بأنه هو الموجود فقط، هو المتأوه فقط، المنتشي والمنتصر؟

زبالة هو هذا التاريخ الموهوم. باستطاعة المرأة الاستغناء عن هذا الرجل وتحقيق رغبتها مع نفسها أكثر من تحقيقها معه. والمرأة للمرأة نصرة. باستطاعتها إيصالها إلى جنات اللذة المطمورة في الأعماق، والتي لا يستطيع غطاسو اللآلئ الغوص لها. هي المرأة بابتسامتها وهدهدها، ولا حركة سوى ذهنها، سوى هذا القلم الماكر الذي يفضح أسرارها.

فهل استيقظت من غفوتي لأجل هذه القنبلة. الليل الأزرق في أعماقي، يناشدني بلازورد الروح، لا يحتاج إلى شرفة الغرفة في هذه اللحظة. الثالثة صباحا، وجلستي أنثى أدفأها الغطاء الملتوي على ركبتها، والمتلبس بطاقة حرارية في حجرها. كم من أصيص الآن ظمان بتربته، يباب جاف؟ لن أفكر في مكالماتي الهاتفية المجنونة والمحقة للرغبة الاستيهامية والمتخيلة بصوت أحدهم.

سأفر الآن إلى لوحة جديدة ثالثة، أستوحيا مما سبق وأن
كتبته:

اللوحة الثالثة

امرأة حسناء بشعر أسود منسدل يشكل ثوبها الذي يغطي
صدرها وفخذيها وحجرها دون حجب للساقين اللذين يبدو أن
لعشق القُبلة المبتدئة من أخصم القدمين لابد من المرور عبر
بساط عطرهما. مستلقية فوق أرض يباب، مبتسمة لعبور حنش
أخضر بين الشقوق المتبيسة للتراب.

لن أرسم هنا، لا عابس الوجه ولا صفحة قمر شاحبة ولا شمسا
لاهبة. هي زرقة السماء بلوني المعشوق الذي لا تكتشفه إلا
العين الساحرة والمسحورة بالجمال.

خطوط سُحبية تشكل قفصا سياجيا، بطوله وعرضه. وراء تلك
القضبان شكل غير واضح لجسد رجل مقرص، كأنه في رحم
أمه قبل ولادته أو في وضعية من هذا الشكل.

غريب. ازدادت حرارتي الداخلية. ما لسحر هذه اللوحة
يختلجني هل سأكون ضحيتها؟ أنا من أرادت التلاعب بقَدْر
الرسم، سوف يتلاعب بي القدر في الرسم. عجيب. سأستمر
في التحدي. فأنا امرأة.

لن أعود إلى صفحات الأنترنت، ولا نكات ذلك الكتاب أصفر اللون في غلافه، والذي رافق سنوات دراستي وعملي، كما رافق لحظات عودتي للاطلاع على المسكوت عنه داخل مجتمعاتنا العربية الإسلامية الفاضلة بالتسبيح وال: وقار. أعلم أن صورته أدهشتني. فهي آداب رفيعة في الجنس وجنس المرأة الذي يسمونه سحاقاً. لا أدري لماذا اختاروا له هذه الحروف الساحقة؟ هل تقزراً أم رغبة في سحقها؟ ولواطهم، ألم يفكروا فيه؟ تبا لهم.

إنما أعشق هذه الفقرة من هذا الكتاب أكثر. هي جذاذتي التي أبرهن بها على جمال المرأة وسحرها. ما قالتها وردة السحاقة:

نحن معاشر السحاقيات تجمع الواحدة منا مع الناعمة البيضاء، الغنجة، الغضة، البضة التي كأنها قضيب الخيزران، بثغر كالأقحوان، وذوائب كالأرنباني (الخز الأدكن)، وخذ كشقائق النعمان، وتفاح لبنان، وثدي كالرمان، وبطن بأربعة أركان، وكسّ كامن فيه النيران، بشفرين أغلظ من شفتي بقرة بني إسرائيل، وحذبة كأنها سنام ناقة ثمود). . إنني أعشق كما إنني ألعن هذا الكتاب: نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب*.

لن أتم. الليل له أذان طويلة، والجدران تسمع. تُرى هل ستبارك أحلام مستغامي هذا الهذيان؟ وهي التي رافعت منتصرة للمرأة؟ فهل تصل مرافعتها إلى هذا الحد والوله؟ وأنا التي التهمت كتبها ونسيانها. كوم. أنا أعلم أنها إذا عارضت أفكارني ستتناقض مع أنوثتها. حمقاء أنا في إسقاطي

* نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب. تأليف شهاب الدين احمد النيفاشي (580 - 1184م/ 656-1253م).

لقناعاتي ومحاولة تبريرها وشرعتها بالأخريات والآخرين.
حمقاء أنا في أشكال التحدي.

أظن أن صديقتي لطيفة على صواب. كيف أنقل حمقي درجات
إلى عشق من حكم على نفسه بحياة مجردة عن الواقع؟ أووه،
يا لخطورة الحرف والكتابة. ضربة عشق انكتابي تقودني
عاصفتها إلى هذه الاستنتاجات وگرامياتها المتيمة. أيمكن أن
تكون اللوحة الثالثة مترجمة لهذه الرغبة في دواخلي؟ لن أخبر
أحدا بسري.

أنا على يقين بقدرتي على إخفاء حقائق هذا العالم ودوران
الكواكب عن الأنام كيف أشاء. سأكتفي بنص اللوحة طلبا
للرسم والتشكيل. ولكن، كيف سأصل إلى أبراج السماء لأخرج
ذلك الذكر من رحم العدم الذي أسكن نفسه فيه؟ لا بد من حيلة.

توالت الأيام والليالي، وأصبحت معها وفاء مسكونة بصورها المتخيلة. بعثت النصين الأخيرين إلى سعاد، وبما أن الأسبوع كان مليئاً بالتزامات الشغل وآلام الحيض التي تأتيها شديدة بعض المرات مثل هذه، فتجعلها متوترة شاحبة، مقطبة حاجبيها، ما يرسم تجاعيد خشنة على جبهتها وشفتها السفلى وميل فكها الأسفل إلى جهة اليمين، فقد أجلت الفكرة التي راودتها وجردت النوم عن جفونها، جاعلة لها في حيز غارق في الأعماق.

كل من لاقاها وعاملها في الشغل يلاحظ ذلك. لطيفة هي الأخرى تعرف الحالة العرضية التي تمر منها. لذلك اقتصرت معها في المكالمات كما المعتاد على حدود ما يجعل وفاء مطيقة للحوار والتواصل. حتى مهمة التلميذتين سلمى ورائيا، مرت بمساعدة صديقتها في العمل في نفس الجناح وتمت بتوصيات قبل ذلك اليوم. كان التعبير عن أسف واعتذار عن عدم القدرة على الإشراف المباشر لأم سلمى في الهاتف. لكنها وعدتهما بزيارة للأروقة متى سنحت الفرص في المستقبل بذلك، كذا الدخول لمشاهدة مسرحيات أو سهرات بفضل الدعوات المجانية التي تكون متاحة في مكتبها كقطاع ساهر على مثل هذه الأنشطة.

حينما يحل الليل، شيء آخر يهزها ويقض مضجعها فتنهمر بكاء في زاوية من شقتها أو في حضان وسادة سريرها. كل خيبات الزمن تقاطرت سُمًا قاتلا على ذاكرتها، بدءاً من طفولة غريبة، تباعا لمصادفات مجتمع لم يرَ فيها سوى نموذج ثقافة متخلفة يريد أن يفرضها عليها، وهي التي رأت في الكتابة المتجددة مع تصوير اللوحات مدخلا للراقي بذهنها ومناخ حياتها. كأنها سلاسل تجرّها إلى وراء، إلى سراديب النفس المنغلقة الحانقة على الحياة. ويلٌ للمرأة إذا اشتكت. وويل لها إذا غاضت. هكذا أصبحت مذكراتها أقوال تجهر بها مع نفسها، عابسة أمام مرآة بعُدت صداقتها ومناجاتها رغم جلوسها أمامها.

شدة الأرق واستمراره أثرا على نفسياتها وقدراتها التركيفية، كذا حواسها. عقلها أصبح في استيهامات وافتراضات تحيي ما حسم فيه الدهر فتعيده محاسبة للنفس وتذنيبا للذات وتجريما لها. ذلك الشعور بالذنب قي كل خيبات الحياة الذي عالجتة مع الطبيب النفساني، طفا على السطح مع الأرق ومع المزاج المتعكر.

قد يصطادنا الشر والألم، فيدعوننا إلى رحابه غير المرحب بها، إلى جحيمه ليشتعل بوقود نفسياتنا. ما العمل؟ حتى عوالم لطيفة الغريبة التي أخذتها إليها في طقوس سحر وشعوذة في الماضي لم تُجد. أموال طائلة أنفقتها لزيارة الثلاثي العجيب: الشيخ الكامل، سيدي علي بن حمدوش، مولاي إدريس زرهون... بركة أولياء مصحوبة بتسبب فقهاء ودعاء الشرفاء... كل ذلك لم ينفع منه سوى ذلك البخور الذي يخدر الدماغ إلى حين. باستثناء ذلك الحرمل الذي استمر مفضلا

عندها كبخور تريح به أعصابها وتسترخي بشمه من بعيد
داخل شقتها. لكن هذا الأرق لم ينفع معه لا حرمل ولا جاوي.

طيب، هو اللجوء من جديد إلى الطبيب النفساني. سأصارحه
بما لم أتكلم فيه من قبل. ما طفا مع أحلامي وفي النوم واليقظة.
تلك الطفولة الغابرة وأحداثها المسكوت عنها كأنها طابوهات
جهنم التي تتقد بها النفس.

حيلتي ستكون الكتابة دائما. سأسجل كل ما أريد قوله وأبعثه
له، وبعدها أيقع ما يقع. لو أنه لم يوقف عيادتي له ربما كنت
بُحثُ بها. سنرى ما سيقع إذن. كفاني ترددًا:

كانت الطفولة في قرية من قرى الشمال الشرقي المغربي. الآثار النفسية والاجتماعية ما تزال تمزق ذات كل واحد من الساكنة، وكل أسرة. هي آثار الصراع الذي احتدم بين المغرب والجزائر. صراع مزق العائلات وشائج الرحم التي تمتد عبر المكان وعبر الزمن في العالم العربي الإسلامي. كان الجد يعيش بنشوة الانتماء والنسب الشريف. الانتماء للشرق مهد النبوة والحضارة. كما يعيش بقوة الانتماء لأبناء عمومة منتشرين في العاصمة العلمية فاس وفي مدينة وزان، كما في وهران ووجدة وغيرها.

وكنت المدللة عند أمها. مات الجد بعد الأب. لكن اليتيم ملأ فراغه أبناء عمومة وأخوال. إنما أحد الأخوال ليس كالأخرين. هو قريب لجدة والدتي وأخوها من الرضاعة، ممَّن ضاع عيشه ومكسبه في صراع الدولتين. وهو ممن اضطرب واهتز في نفسيته. يأتي عندنا. يأكل ويشرب. يُقبَّل رأس أمي ويديها. يداعب الصغيرة ويغني لها مواويل الشرق المغربي - الجزائري المليئة بالشجن والمُفجَّرة للحنين وحسرات ما وقع للذات من تمزقات حياتية.

تلك الصغيرة أنا. أفرح لمواويله ومفاجآت حركاته الراقصة على الإيقاع، بكتفيه، وتحكمه في الأربعة: الكلمات - الحركة - الموسيقى - و(أنا) ، التي كنتُ دميته أو أراجوزه، الفرحة بطربه. دخلت الأم بصينية الشاي والرغيف البلدي المصنوع

في المنزل. وَلَوَلْتُ وصرخت، وسُمِع دويّ ارتطام الصينية المعدنية المستديرة بالأرض، وتشتتت كؤوسها شظايا مزقت أحشاء رحمها وعطفها الاجتماعي وشفقتها الأمومية. أما البراد فكان هو البركان الساخن الذي اشتعل حمما منفجرة في تاج قيمها وثقتها المجتمعية. كان حجر الخال مبللا بما أفرزه استلذاذه واحتكاكه بهددة الطفلة الصغيرة الفرحة بإنشاده.

والأم الشرقية لبوة في غضبها، حملت عصاه التي يضعها بجانبه - عكاز مشيه - ، ضربته بها فشد على ظله هاربا منتحبا. أما حظّي أنا الجاهلة بما وقع، فكان قرصات ولكزا على جنبي فحذيّ وكنتفيّ، تفريغا لغضب الأم الخائفة، كأن أشبالها انتشلتهم من أنياب تمساح غادر بدموعه. ونلتُ بعدها الوعيد الذي لا يسمح لي من التقرب إلى العالم الذكوري، حتى أخي كان حظه أن يذهب لتجارة الغنم مع أعمامه. وبقيت دموع الأم بدون بكاء ولا صراخ فيما بعد. مات الأحياء في قلبها، في حين بقي الأموات أحياء حفاظا على جأشها وقوتها وصمودها في الحياة بين ضباع غادرة ماكرة. لحظات حنانها على طفلتها فيما بعد الحادث والدراما المرتبطة به من تحولات مشاهد الحياة وميكانيزماتها الجديدة، كانت تغنيّا بالأب الحنون وفرسان الأمجاد رجولة وعفة وخلقا. كانت نفسيّتي تستوعب كل هذه التحولات ودلالاتها، مثل بحيرة سدّ جديد بدأت في الامتلاء والتشكل بمكونات أعماقها وبيئتها ومناخها ومواردها. هي أنا إذاً.

كبرتُ، ولما بلغت السنة الثانية عشر، غادرت الأم برج الحماية لفتاتها، فلم تجد من وصية تحمي بها طفلتها سوى الوصية بدار الفتيات، تأويها وتدرس فيها. وكذلك كان. داخلية

داخل إعدادية خاصة بالفتيات، أرى فيها حضور الذكر كسبع متوحش روّضه سيرك الحياة لأداء أدوار ولعبها، إنما داخل قفصه الاجتماعي الذي روّضه. ماذا لو خرج هذا المرؤّض من رقابته؟ كنت فريسته التي ترتعد بدويّ تلك الصينية التي التمعت ببريقها دورانا ساقطا بين الأرض والسماء، وتلك القرصات التي بقيت زرقة بقعها على لحمي ككيّ نار حارقة أشدّ عليها كفيّ في كل لحظة ارتعاش وخوف سلوكي عادي.

...

ازدادت محنتي الاجتماعية كفتاة كانت تُحضر لامتحانات البكالوريا في منزل أسرة أخيها خلال عطلة الربيع من سنة 1997، سنة لا تقبل أحداثها نفسية مجتمع ممتد من المحيط إلى الخليج. ربما استسلم الكل لذهاب فلسطين، لركوع وتخلّ عن المبادئ العليا، لكن التخلي عن رمز مروءة العربي - الإسلامي، لا مجال لطرحة نقطة نقاش لإزاحة ورقة توت ذابلة غابت كرامتها.

كانت شرفة صديقتي في البكالوريا محاذية لشرفة منزل أخي. وقد ازداد بناء المنازل واتسعت دائرته في القرى والمدن، وكان انتعاش الفوضى وقهوة الجيب كما رصيده، غنيمة لسماسة القانون والعقار ووسطائه وسلطته. وحيث لا رصيف في زقاق سكننا، يجعلني أوثر المرور من شرفة إلى شرفة، من بيتنا إلى بيت الجيران، بقفزة خطوة رياضية تكون كافية. لكن قفزة ذلك المساء فاجأها قط الجيران الذي ربما أنا التي اخترقت فضاء عبوره بين المنازل. مواؤه المفاجيء والخائف

من ظل خطوتي نقل الرعب إلى دواخلي فلم أتحكم في خطوتي. وكان سقوطي واقفة من الطابق الأول فوق ربة رملية تنتظر استعمالها في البناء. ما زلت أتذكر تلك السقطة الواقفة كعمود رُكز في جوف ترابٍ. اعتمدت على ثبات ساقي متفرقتين. إنما ما وقع، دهش به صمتي وألمي الصامت. صنع القدر لي طابوها لم أدرس دلالاته إلا في التحليل النفسي فيما بعد .

نقطة دم حمراء بللت تبناني وتركت أثر الحادث فوق كدية الرمل. أصبح الرمل صفحة تاريخية كتبت عليها سيرة شخصيتي وحياتي الجديدة. جحيم جديد عشته نفسيا أكثر منه اجتماعيا. كلما لاح امتداده على خريطة من الخرائط، تبللت الصورة بتلك النقطة الحمراء اليانعة التي تحالف خيال السينما وتصويرها في تتاقل مشهد اختراقها لحبيبات الرمل العطشى. لم أكن أعلم أنها عطشى للدماء. فيما بعد تشكل الفهم الثقافي مع الوعي الجامعي والأكاديمي. أصبحت أرى نفسية الرجل المغربي والعربي - الإسلامي مطابقة لنفسية رمال الصحراء. لا تعيش فيها سوى عقارب وأفاع وحيوانات نادرة وهبت حياتها لحرقة الشمس الخارقة، تتصيد فرص الاقتناص والارتواء. وأكثرها ترتوي بالدم قبل الماء.

هو تصورٌ أبعدني عن كل ما أقرؤه حول الموضوع. موضوع القرابين والدماء والأضاحي. حتى قصيدة مظفر النواب حول صورة العرب مع فلسطين التي تجعلهم يثورون على صراخ المغتصبة ولا يثورون على الكرامة والحرية والمقاومة، جعلتني أشعر بأنني أنا تلك المغتصبة التي لا يريدون بوحها بسرها، وإلا فالويل لها. الخناجر جاهزة لقطعها. وكم من

خنجر يزين صدرية ولباس الرجل في مشارقنا من صنعاء
إلى وجدة.

إنني أشفق على حال مجتمعاتنا التي تقيم الدنيا وتقعدها حول
موضوع البكارة والعذرية والافتضاض. حول حفل توقيع
الشرف بالبكارة في الأعراس. وهي لم تكتف بكل هذا طبعاً،
فقد شرعت بعملية الختان إلى جانب سياج الحراسة الفظيع
الممارس بتمييز بين الجنسين على الأنثى، زهرة الاشتهااء التي
تقطف في مواسم الجني عند الذكورة واحتفالاتها. أترك القوس
لما تراكم عندي من قراءات مع كتاب عرب وأجانب، مغاربة
وغربيين: فاطمة المرنيسي، عبدالصمد الديالمي، نوال
السعداوي، مصطفى حجازي... واللائحة طويلة.

في حياتي الجامعية، انتقلت للإقامة بمدينة الرباط. اكرتيت غرفة داخل الحي الجامعي مع طالبة تسبقني بسنة أقدمية في كلية الآداب. ما زلت أتذكر شخصيتها، أمل. اسم على مسمى. علقت حروف اسمها قصائد مشرقة على آفاق المستحيل، الحرية الخارقة التي تمحو بها تاريخ الجهل والتخلف عند المرأة في مجتمعاتنا. نسوية بامتياز. مقتنعة بمبادئها وحرية سلوكها ومستحيلها. احتفلت ببيكارتها على طريقته قبل مجيئي إلى الجامعة. دعنتي إلى الاحتفال ببيكارتني حينما توطدت صداقتنا. لم أوافقها في ذلك. تحققت وغيّرت الموضوع. لكنها أحييت صراعي مع فاجعة الطفولة، والوحش الذي تقنّع في علاقة القرابة والمداعبة للطفلة. كذا مشهد السقوط في الحياة والذي يرافقه الانحدار النفسي الجحيمي.

ازداد العداء لجنس الذكر. طمرت كارثة البكارة كل تساؤلاتي حول أنثويتي وحول كل تفكير في زواج أو أدوار اجتماعية وثقافية مرتبطة به. كانت الجامعة نعيما نعيشه بين جحيمين، جحيم الما قبل، وجحيم الما بعد. نعيم المبادئ والحرية الذي نحلم به وفي مركبه، في بساط ماء دافئ سرعان ما يلقينا بعد التخرج من أعلى منحدراته، أقلها صورة منحدرات شلالات نياغارا، قاذفا بنا إلى منحدرات، هذه الحياة إحدى اصطداماتها ونتائجها التي هي هذه الكتابة المخطوطة الآن كذلك.

سنتصور يا دكتور، أملي في الرجوع إلى طبيعتي بعد حياتي الجامعية الغربية عن تقاليد مجتمعي، في بداية مشواري

المهني، بعد تخرجي من معهد الآثار الذي لم أدرس حفرياته إلا على أوراق، والعمل الإداري المحض الآن. موظفة في التاسعة والعشرين من عمرها. تأتيها فرصة زواج. موظف يقارب سنها. مهندس في بداية مشواره ونجاحاته في الواحد والثلاثين من عمره. سليل منطقتي الشرقية. قلت الحمد لله، سأعيش معه وجدان الأرض والأمومة والتراث المحلي الشرقي الذي ألهم أحلام طفولتي وآمالي. لكنه يبدو أنه كان يريد أن يعيش أمومته وأن يجد في أمه.

تمت الخطوبة بمنزل أخي بوجدة. استمر التواصل والتشاور على ترتيبات الزواج. جاءت ساعة الفصل، هي يوم قيامة بالنسبة للمرأة، ويوم يماثل أول دم أهدر في تاريخ الإنسانية. ربما كنت أنا المسؤولة عن أول جريمة دم في تاريخ الإنسانية، إلى جانب مسؤوليتي على الخروج من الجنة. طلبت منه لقاءً بمقهى الفن السابع بشارع علال بن عبد الله بمدينة الرباط طبعاً. غالباً ما كانت لقاءاتنا بمقهى باليما أمام البرلمان، وغداؤنا مرة بمطعم تغازوت بالمدينة القديمة - اقتصاداً -، ومرة بأحد مطاعم البروتوكول العصري بالمدينة الجديدة. صارحته بواقعة سقطة الشرفة فوق ربوة الرمل، وما وقع فيها. أعطيته نسخة من تلك الشهادة الطبية اللعينة التي تسجل الحدث.

وكانني متهمة لن يحكم ببراءتها إلا بعطف مولاها الذي سيتزوج بها. فأنا متهمة حتى تثبت براءتي، لا العكس. المنطق أنني بريئة حتى يثبت الاتهام. تأسف واعتذر وبرر لحادثتي. تفهّم وتفلسف وتلعثمت بعض حروف كلماته، وأنا في كل ذلك متألمة بدقة حواسي وانتباهي إلى نوع المتغيرات التي ربما تطرأ عليه. مارس خطاب التحرر من العقد وهواية دليل لسان

الرجال في الشارع، في حفاظ على شخصيتهم المنفصمة بين أعراف تخلف وتمشقات تحرر.

ذكّرني بفيلم رأيتُه فيما بعد، أظن (شمكار سابق) للمخرج محمود فريطس. ضحكنا حين اللقاء لبعض النكت التي استحضرتها حول البكارة، منها (حبّس المرقه)... ذلك العسكري الذي تزوج وأقام الوليمة الكبيرة، لما دخل بزوجته لم يجد بكارة، فخرج إلى شرفة المنزل الداخلية وصرخ في الحضور: حبّسوا الأكل.

تجمد كل شيء وكل حركة. تدرج أهل العروسة خائبين في مذلة. انتقلنا بعد هذا الحديث إلى مواضيع الروتين اليومي في العمل والعيش والعاصمة وبروتوكولها القاتل. أكثر من حديث الحنين إلى أصالة وهدوء العيش في الشرق، شرقه طبعاً.

بعد الافتراق كان الفراق. لم يتصل بالهاتف لأيام عديدة. في صباح يوم من أيام عبث الأسابيع التي تلت، تشجّع وكتب رسالة نصية عبر الهاتف يفكر من خلالها بالسفر لإتمام دراسته الهندسية بالخارج. لم يحدد بعد هل هي ألمانيا أو كندا. إلى ذلك الحين يقترح تأجيل موضوع الزواج حتى يستقر على حال هناك.

فهمت الرسالة في مقصدها. حطّمتُ الهاتف ودستُ عليه دكّاً فوق الأرض. تفجّر البكاء الذي لم تجد له صديقتي في العمل مبرراً. شرحت لها بعد هدوء العاصفة، عواصفي وكارثتي. أخذتُ عطلة عن العمل لمدة خمسة عشر يوماً. مرت الآن ست سنوات تقريباً ولا زال سراب ما وقع خندقاً يحفر

هُوتَه في دواخلي، بيني وبين الرجال، وبينني وبين الحياة الطبيعية. لم أعد أدري ما هي الحياة الطبيعية.

راجعت رفيقة الدراسة آمال. واستنتي بانسجامها الشخصي مع خياراتها السلوكية والثقافية والجنسية. اعتبرت نفسي كمن احتاجت إلى وصفة دواء، وكل وصفة لها مدة زمنية مطلوبة. غار الرجل في غياهب النسيان، وطغت وفاء على سطح الحياة لتعيش ثقافة العصر، وهو ليس عصر لنا نحن فقط: السفر، الاستهلاك، التمتع بما أتوفر عليه. هو ليس عصرنا لأنهم قد سبقونا بالعيش في ثقافته بقرون وقرون، ونحن، لا زالت الشباك تقبضنا إلى أحوال.

أختم رسالتي بواقعة مضحكة لدون كيشوت زمانه. موظف عسكري تعرفت عليه في ظروف عمل مرتبطة بمعرض ثقافي بالصور لتاريخ الثكنات العسكرية بالرباط. اقترح عليّ الزواج واشترط عليّ مرافقته لأخذ شهادة البكارة وعذريتها بحضوره هو. أخذت رقم هاتفه وقلت له أنني سأتصل به فيما بعد لأجل ذلك. كان كذبي توقيعا مترحماً على موضوع الرجل في حياتي.

المشكل أنني لم أتخلص منه في لغتي التداولية اليومية، ولا قدرت على إقصائه من مضمون مناقشاتي الثقافية والشخصية مع محيطي وعلاقتي. لا أستطيع التصريح بمواقفي وقناعاتي، مما يزيدني اغتراباً مجتمعياً، لا أستريح منه سوى بالليل، حينما أخلد إلى شرفتي في غرفتي وأعانق بنظراتي عمق الليل في السماء، ولونه اللازوردي الذي لا أراه إلا أنا، والذي أغذي به محيط تنفساتي. حتى صديفتي لطيفة، لم أفصح لها

عن كل مكوناتي وخصوصياتي الذاتية. أجاريها في مناقشاتها
ومواضيعها ولا أقحمها عزلتي التي أبوح بها الآن.

أستسمح لطول الرسالة. أردت ان أعبر عن كل هذا كتابة،
حتى يتسنى لك كطبيب تأمل سطورها. وأنا مستعدة للالتزام
بموعد عيادة من جديد. ربما الكتابة لم تكف، ما دام الأرق
والقلق يطفوان من جديد.

(وفاء غانم).

جلست سعاد مع طاقم المرسم الملتزم بمشروع هذه السنة 2013 - 2014. مشروع الموسم الثقافي الذي يواكب حركية المجتمع على صعيد جل المستويات والميادين. طبعاً لم يستقم المشروع إلا بعد شهرين من بداية مناقشته وتداول اقتراحاته. كان الطاقم المشكل من سلوى العايدي وسمير نهاري وأحمد توفيق ورشيد العلال، منهمكا خلال شهر أكتوبر من سنة 2013 على ورقتين. الأولى اقترحها المهندس مع زوجته سعاد، تتداخل فيها الهندسة الفسيفسائية التقليدية مع الأشكال الهندسية الكبرى في المعمار العالمي المعاصر المعتمد على التقنية والإخراج المعلوماتي. وطبعاً، طغى التخصص والطموح الهندسي على العشق التشكيلي والتجريدي والتكعيبي. كما حضرت الأفاق الفلسفية العالمية في احتضان لترات الذات والمكان والبيئة والتاريخ.

تلك الورقة، كلفت سعاد ثلاث ساعات في شرحها للطاقم الفني للمرسم. جيل لم يتفاعل مع قضايا الجيل الذي قبله. جيل يتوخى تحديد إطار واحد للاشتغال، يريد الغوص فيه وإتقانه. هكذا استنتجت الأستاذة سعاد من مناقشتها له حضور الامتداد التاريخي كما الثقافي والفني والفلسفي والحضاري العمراني. حضرت الشخصية واختياراتها المعاصرة بين الأصالة والمعاصرة، التراث والتجديد.

الورقة الثانية، قدمتها الفنانة سلوى العايدي. ابتدأت في عرضها على شاشة حاسوبها بصورة للتمثال الممتد لأبي الهول. تلتها بعرض بالأبعاد الثلاثية في شريط تجريدي افتراضي لأبي الهول دائماً. واكب الصورة فيه تحليل لمكونات وخصوصيات وأدوار هذا التمثال. وانتقلت إلى رسومات أجساد بشرية برؤوس حيوانية، مرة بذئب، ومرة أفعى.

وضعت معها سؤالاً: ماذا تريد؟ ما علاقة الإنسان بالحيوان؟ متى يكون أحدهما مجسداً للآخر ومشكلاً له؟ أية تعابير يستطيعها الفنان في الترجمة إلى رسالة - لوحة - رمز، فني؟

الكروبيم : مفردها كروب، كلمة من أصل بابلي وتدلّ على كائنات ميثولوجية مجنّحة لها رأس إنسان وجسد ثور، كانت في بابل وأشور تصوّر على مداخل الأبنية الملكية والمعابد باعتبارها أرواحاً حارسة.

في البحث الحديث يُطلق على هذه الكائنات تسمية سفينكس Sphinx ، وهي مستعارة من اللغة اليونانية القديمة.

في العربية يُدعى الكروب بأبي الهول جرياً على التسمية الشعبية القديمة لذلك التمثال الضخم الرابض أمام الهرم الأكبر في مصر والذي يمثّل أسداً بوجه إنسانيّ.

انتقل - ولكن كيف ؟ - توظيفه من عند الحضارات القديمة كالفرعونية والبابليين والأشوريين إلى توظيفه مع أتباع الديانات السماوية. ولكن، كيف تم ذلك؟ سؤال لا يحتاج للبحث عن جواب، بقدر ما يحتاج لغوص الريشة في مزج أفكاره وتخيلاتها في ذهن الإنساني، وذهن الفنان الرسام الذي يسرق من قوس قزح خيوطاً نورانية يشكل بها ألوان العالم.

الغريب أن الأستاذة سعاد، رغم دفاعها عن مشروع زوجها وتأطيرها له بعرض فلسفي وتاريخي وفني، مالت إلى تأييد مشروع سلوى. حنين إلى دراسات ابتدأتها كإشكاليات في الجامعة ، لكنها لم تستثمر بالشكل المطلوب في التعمق وفي الإجابة عنها.

تتذكر الكتاب الساحر الذي ألهم فكرها بتصورات الإنسان القديم وبدايات تفعله وثقافته، كتاب (مغامرات العقل الأولى) للباحث فراس سواح، على الخصوص. بحر آخر للعموم فيه، ولكن ، ليس الآن.

حينما سألتها زوجها: لماذا هذا التحول في الاختيار؟ أجابت: هم جيل يتطلع إلى المستقبل أكثر منا. يريد معالجة الوجود والزمن والتاريخ والحياة بالطريقة التي سيوظف أدواتها في حياته المستقبلية. لا بد لنا أن نتيح لهم الفرصة. وإلا، لماذا هذه الخضرة بين الأجيال؟ أضف إلى ذلك أن الأفكار تأتي من توظيف الخيال. وما اقترحته سلوى أمر خطير يعيد الأسئلة الأولى حول التفلسف والأسطرة وغيرها. فقط أنها اقترحت إعداد عرض ثقافي وتاريخي حول الظاهرة. ساندتها سلوى في التزام البحث المشترك والمعمق حول المعطيات وتوظيفها.

هكذا جاء مشروع المرسم لهذه السنة. وكان أن وجدته وفاء حين زيارتها الأولى له في نصف صيرورته. كان أن علقت هي الأخرى أسئلتها حوله حتى فرصة مناسبة آتية.

كانت جلسة سعاد مع طاقمها إذاً بعد زيارة وفاء الأولى. ملاحظات وإضافات متبادلة حول التجربة. جديد القراءات

التي أكيد أنها ستحول مسار الريشة والقلم والمبرد وكل أدوات الرسم المستعملة. جديد الألوان التي يجب أن تستنبت الطبيعة والمادة الخام الأولى التي وظفها الأوائل، وبالخصوص الفراعنة والبابليون والصينيون القدامى. قناعتهم أن الفن فرادة في اللون واللمسة والشكل والحركة والإخراج. هذه الفرادة تجنن عقل الرسام الذي يتيه في البحث عنها مثل المجاذيب الجائلين في أرض الله بحثا عن الله وعشقا للقائه واغترافا من حبه.

يمازح عماد زوجته في المرسم أمام فنانيه:

- وا الشعيبية! اللوحات في انتظار ابتسامتك المتفلسفة.

- لكم بركتي وسحري وإلهامي جميعا. تجيب سعادُ الجمع مؤشرة على انطلاق كل جولة رسم يحضرها عماد الغالي.

في إحدى استراحات الفنانين لتبادل مُلح الكلام وملاحظات اللحظة، تأملت سعاد الفنانة سلوى وأمعنت في النظر فيها مخلوقا ملائكيا يتناول بيديه الناعمتين فنجان القهوة وقلم الرصاص يشد عقصة شعرها فوق رأسها كأنه تاج فوضى معلقة إلى حين الانتهاء لكي تعود للاحتفال بشغب الحياة وانطلاقة حررتها. ابتسمت في دواخلها قبل ملامحها. ابتسامه استرجعت معها نفسا هو إكسير أنعش روحها فعلا. هذا الجمال الملائكي الذي يصبغه الله على الشباب. وهذه الرشاقة الكاملة التي تبعث حيوية نشطة وجنات كلام جديد مكتشفة... ذاك الوشم الصغير الذي يوقّع على خدها الأيسر توقيع الحُسن والعقد الفريد الذي يخص صاحبه فقط. وقبل أن تسألها عن طريقة اختيارها لمشروع المرسم، استرجعت من هي سلوى،

حتى يكون وقع السؤال بما يحافظ على وهج نجمها الساطع حياة وفناً وجمالاً.

لقد كنت في مثل عمرها. غير أنني لم أهتم بالرسم حينذاك. جاء زواجي مباشرة بعد التعيين. كانت سنوات الجامعة كافية لكي توطد علاقتنا أنا وعماد. إنما سلوى مسار آخر. تيمت في السادسة عشر من عمرها. عرفت دعماً اجتماعياً من أعمامها الذين يشتغلون بفرنسا. بقيت مع أمها خلال تلك الفترة. كعصفور جريح غردت بالخواطر الجياشة التي عوضت غياب الأب. حملت صورته معها في كل لحظة من لحظات حياتها اليومية. جددت ابتساماتها عليها، وترجمت عبوسها فوقها، وحاورته في ملامحه التي كانت تجيئها بصمت. أرادت تكبير الصورة. خطت بقلم الرصاص فوق ورقة بيضاء أكبر حجماً. برعت في الخطوط الأولى. جاهدت لكي تتقن مسار الأنف والشاربين. عانت في ترجمة العينين. كررت المحاولات. اشترت صورة للوحة الجوكندا من سوق المبيعات المستعملة (الجوطيا) بباب الأحد. بحثت عن مزوجة الابتسامة مع تعبير الحزن في آن. لم تدرك إلا بحدسها ما كانت تبحث عنه في تلك اللحظة. بعدها تشكل ذلك الإدراك وعيا في ذهنها ومناقشاتها. علمت أن الناس يبحثون عن جدلية تحير حياتهم داخل لوحة الجوكندا دون أن يشعروا بذلك. جدلية الفرح والحزن اللذين يتمازجان في نفسية الإنسان.

كررت المحاولات في الرسم، فكانت مدرستها الأولى التي أبهرت زميلاتها كما أمها وأعمامها خلال عطلة الصيف على الخصوص. كان الكل يشناق للقياس عله يظفر وينعم بلوحة ترسمها له سلوى. وكذلك كان، كما في حكايات السرد الجميل.

جلهم يحتفظ بلوحة بقلم الرصاص تسجل لمرحلة من حياته، وترسم الابتسامة على وجهه. الأمر الذي يزيدهم تعلقاً باللوحة وبسلوى. ربما تعلقهم كما في ابتسامة سلوى الماكرة والخفية التي تمتلكها كرسامة ساحرة، هو تعلق بالبحث الدائم والمتجدد عن الابتسامة النفسية في دواخلهم... ولكن، أنى لنا أن نجدها دائماً فينا؟ تلك الابتسامة.

إنما اللوحة الخالدة، لم ترسمها بعد وفاءً لروح أبيها الذي سقاها نسمة الحياة بحبه وشعره الذي تركه في مذكراته. هو كذلك ذيلٌ إحدى أوراقه المخطوطة بيده بقوله الشاعر عبد الله راجع: القصيدة الكاملة لم تكتب بعد.

كبر التحدي، وراهننت على المستحيل لكي تحارب غربتها وخوفها الداخلي. اختارت الدراسة بالمعهد الوطني للفنون الجميلة بتطوان، فتحوّلت أحلامها إلى عالم ألوان فتحت حيوات داخل حياة، آفاقاً داخل أفق الذات وظروفها. رحلة البحث عن الصورة الخالدة، جعلتها تتكبد، بمساعدة سعاد، على قراءات فلسفية وأدبية، على دواوين شعرية وروايات غزيرة، رغم صغر سنها. تعوض المرأة في الأخرى بما تراه مرأة لشخصيتها وتكاملها.

نظرات سلوى خيول جامحة لا تكبو ولا تتوقف لخشخشات أو زقزقات عادية، ما لم يكن اللحن الخالد واللون الخالد الفاتن الذي يسحرها، فتقطف من كل الحقول التي تمر بها ما جمّل وكثر بهأوه كما نضارته. هي سلوى، مجنونة بالموسيقى، بالرقص بالباليه، متقدمة على بنات الدار في معرفة ما يليق في الدولاب من فستان. متقدمة على شباب الغرب في تذوق جميل

موسيقاه وبديع رقصه. تسجل محاولاتها الجنونية على إيقاع وخطو مايكل جاكسون بنحافة جسمها ووضع قبعة مستديرة على شاكلة مايكل، ورسم الخطو الزاحف على الأرض بنوتات الأغاني، تباري مجموعة صديقاتها وأصدقائها في كل فن وموسيقى. إنما اختيار الكروبيم، تسائل سعاد نفسها قبل ان تسأل سلوى، هل سيكون بحثا عن اللوحة الخالدة، عن الخلود الذي ترسمه للمستقبل؟

- سلوى! حدثيني عن الكروبيم وأفق ترجمته في رسمك.

- الفكرة جاءتني من تشبيهات الناس لبعضهم البعض. في البداية، كانت فكرة بسيطة. فلان أسد. فلان ثعلب... ما بال هؤلاء؟ تساءلت مع نفسي. ألا يستطيعون مصارحة أنفسهم؟ أم إنهم يريدون إسقاط صفات الحيوان على الإنسان؟ وهل شجاعة الأسد ومكر الثعلب هما شجاعة الإنسان ومكر الإنسان؟ استغربت لكون الإنسان لا يستحق رتبة الحيوان. أي أن الحيوان أشرف من الإنسان وأصدق. وبدأت أتأمل اليومي وأنظر لحدود امتداده في سلوك الإنسان... إنما، مشاهد الأفلام فاجأتني بمعتقدات وأساطير آمن بها هذا الإنسان. أن يكون مخلوقا وليس موصوفا، يجمع بين الإنسان والحيوان. أولها حورية البحر. صورة جميلة. ثانيها الإنسان برأس ذئب أو ثعلب أو ثعبان أو جواد أو ذوات الأربع من الدواب... صور عجيبة!

ما هو أبعد في الطرح والتصور، هو البحث عن إله، بين النفي والإثبات، البحث عن تأليه الإنسان. البحث عن أسرارهِ الغريبة في الناس، في الحمق والجنون... رغم اختلاف كل هذه

التشكلات اليوم، بفضل العلم والتطور والوعي الجديد، فالسؤال المطروح هو: هل اختفت طموحات هذا الإنسان في التأله، في الخارق؟ السوبرمان في الأفلام الأمريكية. أليس حلما جميلا يريده الذي يشعر بأنه هو الأقوى حضاريا وماديا؟ رغم سياسة الرسالة الفنية في إنتاجه؟ ببساطة، هذه دواعي اختياري.

- ببساطة؟ كل هذه الخيوط وتقولين ببساطة. علقت سعاد. تعلمين، لقد فتحت في عقلي مشروع بحث وتفكير جديدين. لا بد لي من مراجعة وإعادة قراءة وتفسير الظاهرة من جديد. إنما، سنبحث معا. مستعدة؟

- قراءات، قراءات... من جديد؟ ولحظات الحياة ما مآلها؟ علقت سلوى مبتسمة، وداعية سعاد إلى التخفيف عنها من مهام البحث، حتى لا يكون مضنيا. رغم أنها تعشق القراءة كثيرا. إنما لا بد من العتاب الجدلي الجميل والوديع.

- لا تخافي. سأقتني بعض الدراسات. وإذا شئت سأقرأ خلاصاتي حولها. أوكي؟

- أوكي أستاذة سعاد. لن يخلو قسمك من تحاضير!

- ((أنا كذلك أحب اللون اللازوردي. تابعي مشروع الكتابة والرسائل. سأخبرك بالوقت المناسب لزيارتي في العيادة)). مع تحيات الدكتور حليم السيد.

هكذا جاءت رسالته مختصرة ودقيقة. لم تُشَفِّ غليل وفاء غانم طبعاً. كما أنها لم تعجبها في غموض عشق اللون اللازوردي. أجهشت بالبكاء وهي تقرأ متن الرسالة الإلكترونية من جديد، في إحدى مساءات يونيو التي فتحت لليل سماءه وسهره ونسائم البحر التي تحلق فوق فضاء مدينة الرباط.

ساءلت نفسها:

وما الذي يعلمه عن لوني اللازوردي؟ فعلا هو لون السماء حيث لا ضياء ولا عتمة، لا حمرة ولا زرقة قاتمة. فعلا هو نبراس متلألئ مع صمته الجوهري. لكن اللازوردي عشق داخلي . كيف أكون قادرة على رؤيته واستلهامه من داخل آفاق الليل الممتد في الغياهب. كأنني زرقاء اليمامة أرى ما لا يراه الناس الآخرون. أو تكون حكمتي هي التي ترى زرقته الفريدة؟ لا البحر، لا السماء، تنجوان من نظري البصري. وكيف له أن يحبه مثل حبي؟

لا أقدر ان أتصور أو أووّل تصريحه بلمحة من غرام أو عشق لي. صحيح أنني كلما تأملتُه خلال الزيارات السابقة، كلما تخيلته يفك أزرار قميصي وثوبي ويغوص في تضاريس

جسدي وبنيتي النفسية التي يكون امتلاكها والاستلذاذ بها أكثر من الامتلاك والاستلذاذ بالجسد الحي. لكن هذه التصورات سرعان ما أحاربها حفاظا على توازن وتعقل سابقين عليها. وبالخصوص حينما حولني إلى ضيفة وإلى إحدى معارف أسرته ودائرة أصدقائه. ولكن ، كيف له أن يرفض معالجاتي، والعملية كلها مصاريف مادية ضرورية للعيادة والكتابة؟ هل أنا قادرة على عبء هذه الأسئلة؟ على البحث عن إجاباتها؟ شقاء هو السؤال.

لمن سألجأ إذن؟ إلى لطيفة؟ وأسراري الدفينة؟ لكن نصف الحقيقة لا يضر. سأخبرها وأتركها تساعدني في فهم هذا النصف. آه، ربما الأستاذة سعاد؟ إنما بأية درجة وبأية حدود لباقة مناسبة لتناول الموضوع معها؟

حتى الدكتورة أسية لا يليق بي تناول الموضوع معها. أولا هي زوجته وهو زوجها. ثانيا هي خصوصيات مهنته. ثالثا هي منشغلة مع سلمى في امتحانات الباكلوريا ربما. فهذا وقت الامتحانات. أما السيد المهندس، فلا ثقة لي فيه، وهو صديقه، كما لا ثقة لي في الرجال عموما. بقيت إذن لطيفة وسعاد.

ولكن، ماذا سأكتب بعد كل ما كتبتة؟ استغرقت الرسالة أهم خيوط الماضي الشخصي الخاص جدا بي طبعاً. عبء أو ثقل أنزلته حملا من على كاهلي. هو الآن في مختبر الدكتور حلیم السيد. ماذا إذا تناولت الكتابة عن مستقبلي؟ ولكن، ما الذي أملكه الآن من أحلام عن المستقبل؟

سأسأل صديقتي لطيفة عني، وسأسأل الأستاذة سعاد لكي تعطيني بعض خيوط من اللوحات التي كتبتها وأرسلتها إليها.

إنما قبل ذلك، سأدون آخر ما ازدحم في ذهني وخيالي فكان كجنين يريد الخروج بقوة الذات والطبيعة من رحمه، ولو كره من كره من الأرحام.

اللوحة الرابعة:

في (أم الطبيعة)

إلى الأستاذة سعاد وفريقها الفني الرائع. وأنا نازلة الدرج إلى مرسمكم الجميل، أثار انتباهي وجود لوحة مصبوغة بالأسود، مخبئة علامات حرية وعدالة، ميزان وحمامة محلقة، وإن كان الميزان قُيِّدَ بثقل ماسك، والحمامة بحاجة إلى خفة انطلاق وتحرر مع الهواء والنسيم.

بعد أن ارتويت وشبعت في ليلي من اللون اللازوردي الخاص بي، خلدت للنوم ومزّرت الستار على الشرفة حتى لا يسرق نور الصباح طيف أحلامي المسافرة في خلد نومها، فبيخرها مع أشعته الصباحية. ها هي ذي اللوحة تعبر المشهد في رواقها. ويا له من رواق. كأنه عرض ثلاثي الأبعاد، الزائر جالس واللوحات عابرة مشهده في تحولاتها العاكسة لسحرها وأسرارها.

كان الرواق بطبيعته عرضاً في ظلام دامس، خطواته مرسومة لعقيق السبحة المضيء في الحلقة. زواياه كذلك في سقفه وأرضيته وأركانها، وكل لوحة مشكلة من عقيق متألئ، كأنني واضعة نظارات بأشعة ليزر، تنير لي رؤية الأشياء والأشكال في الظلام. فهل يمكن أن يكون هناك عرض داخل رواق في الظلام؟

ولتكن الحمامة عقيق سبحة متموجة متراقصة بعمق النور
السابح في الظلام. وليكن الميزان كذلك. لكنه مرة ساخر
ضاحك من بحثنا عن دفته، ومرة صارم وحاسم في معادلة
كفّيه.

لعيونكم سحر الألوان والخيال. ولأناملكم تشكيل جنان.
ولبصري لازورد يسبح ولا ينام.

يسجل في حكايات وفاء بعض تقطعات تفصل سيرورة الزمن وترابطها في شخصيتها. فصلٌ مردّه إلى انفصام في الشخصية يعرقل توازنها دون أن يوصلها إلى حالات مَرَضِيَّة حادة وشاذة.

خلال لقاءات العيادة، ركزت على زخم العوامل الآنية التي زادت من حدة توترها وقلقها وأرقها، في محاولة قريبة من ثقافة مجتمعا، كأنها عملية تصالح مع أعرافه وتقاليده التي يجعلها قيما وثوابت أخلاقية وسلوكات تواصلية.

ما قامت به، يشبه فعل من تخلى عن قبضة حبل ينفذه من السقوط ليمسك بيد من أيادي المجتمع، أمله في أن تنجيه من وقع الذات في متعب الخلوة والنسيان. استنجدت بقيمة الثقة، والوفاء، والإخلاص، والتضحية، كعربون لقيمة الحب المطلوبة في كل العلاقات. لكنها سرعان ما خاب أملها، وكانت فريسة لتغيرات العصر واندحار القيم داخل المجتمع. كانت ضحية للاستغلال والكذب والانتهازية. وأتساءل هنا عن كم من فرد هو ضحية نفسية قبل الاجتماعية والثقافية لزوبعة القيم المنحدرة والمنحدرة داخل مجتمعاتنا؟

من خلال رسالتها الطويلة حول ماضيها وتعثراته القدرية، كانت السباحة في البحر العميق للنفس، كما كانت قوة الشجاعة وشجاعة القوة حاضرتين في عملية الغوص. فطابوهات

المجتمع هي قدر وفاء غانم في حكايتها. تريد إنقاذ ذاتها من نفسها، لكنها لا تستطيع.

أما الرسالة - المستقبل، فهي تحدّ جديد، بلون جديد. خطورتها أنها تجربة فداء من أجل أن تخلد حلمها بإنجاز فريد تبرهن من خلاله على طهارة روحها وبراءة أنوثتها من كل أطراف وجودها الثقافي لا التقليدي المجتمعي ولا التحرري الأنثوي... إنما، كيف لها ذلك، والواقع دائم النسبية، يحقق الطموح بمقاسه لا بمقاس صاحبه أو صاحبتة.

أسجل هنا الفرق بين هذه الوضعية - التجربة داخل مجتمعنا وداخل مجتمع له ثقافة مسيحية مثلاً. قد تكون التجربة في مجتمع بثقافة مسيحية مقبولة وعادية، ما دامت تستقي من روح تضحية نبي المسيحية وبحثه عن طهارة مجتمعه وتخليده لألمه بفرحة أتباعه... وهنا سياق الاختلاف الثقافي الذي يجعل مقاربة مثل هذه الوضعيات يخضع لمتغيرات في التناول والتحليل والاستنتاج.

ملاحظة أخيرة تتعلق باندماجها داخل دائرة معارف طبييها. والمطلوب في العلاج ذلك التباعد غير المؤثر على وضعية تشخيصها وتوجيهها للعلاج. ما استدعى هذه الملاحظة هو تفكيرها في الزواج والإنجاب من شخصية ضحت بزهرة عمرها من أجل مجتمع وتاريخ جديد له. لكنها لم تنل سوى الاعتقال والحكم بالإعدام. وهي حالة متقدمة الآن في المرض النفسي والعقلي، وإن كانت في أعلى درجات توازنها ومنطقها وتحكمها الآن. (للاشارة فقط، حالات عديدة سابقة في الاعتقال تعاني من أمراض نفسية وعقلية، يتجاهل المجتمع معاناتها

وظروفها). ذلك أن التوازن هو توافق مع السباحة المطلوبة داخل المجتمع وداخل ثقافته. بينما الشخصية المقترحة والملاحظة، اختارت العيش خارج هذا المدار الأرضي. فهل تذهب وفاء غانم إلى هذا التحدي الجديد؟ ما مدى مسؤولية توجيهات الطبيب في الأمور التي ستؤول إليها الأمور؟ في الختام، هذه قصيدة للمعتقل السابق المحكوم بالإعدام سابقاً:

جعلتم عنقي مداراً لثقب أوزون
هبةً للفراغ

قربانا للجحيم

أيهما أفرغ؟

الانتظار أم التنفيذ؟

كانت لكم خيمة جهل

تخرجون منها منتشين

ولي... زهرة الأقحوان

شممت فيها قرب الرحيل

ربما أكون العائد من هناك

لأفضل المضاجع

وأستثني ربيع الولادات

ربما ألف سنة ضوئية

سأعيشها في انتظار ثانية أهل الكهف

حيث أنتم راقدون
وأنا.. مشغول عنكم بالغلّاف الجوي
أبني بمكوناته عرشي
و أعيش حُأد هذا الرحيــــــــــــل
(الحسين باصليح).

هكذا كان ختم رسالة الطبيب حليم السيد وتقريره بهذا السؤال وهذه القصيدة. هكذا بعث تقريره عبر البريد الإلكتروني لصديقه Philippe Dore في النادي الدولي للطب النفسي الطبيعي CPIN. نادٍ رفع رهان التحدي للتخلص من العقاقير ووصفات الأدوية في معالجة الأشخاص الطالبين للعلاج. علاج ينطلق من إدماج وإشراك الشخص في وضعيات ونسقيات حياتية بمعادلات حياتية جديدة، تفتت بعض العناصر، كما توظف أخرى في الانتقال من وضع إلى آخر. ذلك كان وضع وفاء غانم الذي أراد له الطبيب حليم السيد أن يتم انتقاله بالكتابة والإبداع لكي تتخلص من الأمور التي وتُرتها وأحبطتها في حياتها. إنما غرابة الإنسان أنه كائن كثير الأسرار. لا بد من الاستعداد لمفاجآته والاحتياط مما لم يقله بعد. أمّا ما قاله، فقد تخلّص منه في معركة الحياة. هي وفاء غانم، لم تُبْخ بكل ما عندها حتى لطبيبتها. لكنها تمتلك في نظره كل المؤهلات لكي تكون أفضل حتى منه هو أو مَنْ هم في محيطه.

في نفس الأسبوع الذي كتب فيه الطبيب حليم السيد تقريره، تلقى هو الآخر تقريراً مرافقاً بنصوص. ربما يكون قد بنى ما كتبه على أساس ما استقبله كتقرير. كان التقرير حول وفاء غانم. وكانت النصوص هي متون ما دونته كلوحات تعبيرية وتشكيلية بالكلمات والحروف والمعاني والعبارات. إنما هذه المرة، كانت كتابة التقرير من طرف سمير نهاري، عضو في الفرع المحلي للمنتدى الدولي للتسامي والإبداع Fisc.ma. منتدى تشكل بمدينة بروكسيل البلجيكية وأسس له فروعاً بمختلف أنحاء العالم، ومنها المغرب طبعاً. يجمع المنتدى بين فنانيين وأطباء نفسانيين وفلاسفة ومفكرين وسوسيولوجيين. يربط بين الإيمان بقدرات الإنسان الخارقة وإمكانيات التحدي والخلق والإبداع بشكل كوني عند جميع الشعوب والثقافات. والدكتور حليم السيد يمثل فرع المغرب في المنتدى وعضواً في جمعياته الأم. كما يعمل على مواكبة ومتابعة عمليات التسامي التي ينتقل إليها رواد عيادته وكل من اختار تحولات حياتية مرتبطة به.

عمل طبي وشبه مخبراتي ما دام يعتمد على تقارير متبادلة بين فروع المنتدى وأساتذته، وما دام يعتمد في التوجيهات التربوية والإصلاحية المجتمعية على مجموعة من سياسات الدول الداخلية وبالخصوص في أوروبا. هي مهنة الدكتور إذن. فإلى جانب العيادة والتزاماتها، يأتي هذا الاشتغال العلمي

والثقافي والتربوي والفكري الأكاديمي الذي يبيلور في اللقاءات والندوات، والتي يشارك فيها السيد حليم. الحقل الفني مجال للعمل والتنسيق مع مجموعة السيدة سعاد. وسمير نهاري هو الذي يكتب تلك التقارير ويرسل النصوص المتعلقة بوفاء غانم.

شاب وطالب جامعي من حي المحيط بمدينة الرباط. إجازة في علم النفس وتحضير لشهادة ماستر في نفس التخصص. اختار المزج بين الفن والدراسة. حذاء رياضي وسروال جينز، تتناوب الفصول على تغير الملابس المرافقة لهما. شعر متدرج الالتواءات في ضفائر ملولبة، تسجل إثارة مادية لطريقة الراسنا الجامايكية مع المغني بوب مارلي. شارب انتقل من اكتظاظ نيتشوي في مرحلة من الجامعة إلى شاكلة سالفادور دالي في تفويسه ورقته وفتله، الأمر الذي ترك فراغا وبعض بياض فوق الشاربين وأسفل الأنف. نظارات شمسية يحرص على جودتها ما دامت لا تُنزع سوى مع انسداد الظلام. عاشق للمشي والصيد على طول الساحل الصخري الممتد بين الرباط وشواطئ الهرة.

أسراره في عمق الليل ومنه بدرجة هدير أمواج الأطلسي في مغامراتها. لكنه، وكما يسميه صديقه في الرسم رشيد العلال، مجرم حرب بامتياز. يرتب أموره ببرودة أعصاب ويخرج منها كالشعرة من العجين.

- أ إلى هذا الحد أنت خطير؟ قد يكون مبحثا عنك من طرف الأنتربول ولا ندري. تعلق مازحة السيدة سعاد في تتبع حوارات الشباب.

- ليس إلى هذه الدرجة، السيدة سعاد. رغم خطورته فهو فقط عاشق للمتعة ودروب النساء. فقط أنني لا أدري أي سحر يستعين به في ذلك؟ كيف ينجح في علاقات غريبة ورفيعة؟ وكيف يرتب لنهاياتها بلحظات صريحة وسعيدة؟ من منا لا يرغب في سحره هذا. هكذا يُسمع صوت رشيد مرفوقاً بضحكاته، لا تلقى من سمير سوى نظرات من يلوم على كشف أسراره دون أن يحاججه أو يعاتبه بشيء.

- مسكين، بريء براءة الذئب من دم يوسف. يُغرقه رشيد من جديد أمام المجموعة.

- يرد عليه سمير: الويل لك يا ذئب يوسف.

- أي ذئب هذا يا سمير؟

- الذي بداخلك أنت يا رشيد البريء. يعلق عليه سمير بقنبلة كافية لكي تقلب كفة المزاح والتقشاب* رأساً على عقب، يبقى معها رشيد هو الغارق في شباكها مع ضحكات وتعليقات الجماعة.

فلسفة سمير طبعاً تقوم على منظومة قيم أسسها خلال دراسته الجامعية واستمراراً معها. لم يعد للخوف مقامه ولا للشعور بالذنب مجاله. أزاح غشاوة وهول أحكام القيمة عن مجموعة من السلوكات البشرية التي يراها حقوقية وعادية... وكان في منطلقات كل تواصلاته وعلاقاته أكثر صراحة واستفزازاً بمنطق ناعم، وبالخصوص مع من تعرف عليهن... لا ينطلق في دواخله من رغبات غريزة. يستعمل حواسه

* هو تبادل المزاح بشكل تفاعلي ومرح بين طرفين أو أكثر. يستعمل اللفظ في الدارجة المغربية أكثر.

وانعكاسات حدسه في التواصل في الاستمرار في كل حوار. غريبُ زمانه كما يقول له أصدقاؤه... لفظه البحر واحتضنته أمه الرباط، كما يسخطون بالتعليق عليه حين تعارض سلوكه مع قيمهم التي يرونها ثوابت مقدسة. إنما الصداقات لا دستور لها، ولا محاكمات داخلها. لذلك كانت حريتها من أسعد الحريات التي يبحث عنها أصدقاء سمير في مرافقته.

كانت ليلة من ليالي يونيو التي تركت بصمتها في ذاكرة المدينة. وليست هي وحدها، بل هي ليالي متواصلة ابتدأت من 30 ماي واستمرت إلى ليلة السابع من يونيو. ليلة سبت سجلت اختتام مهرجان موازين الذي ذاع صيته كما تضاربت الآراء حوله بين مؤيد ومعجب وبين رافض له ومنتخذ لموقف طوره سياسيا في وقفات احتجاجية وانتقادية للجهات الرسمية والمحتضنة... أكيد أن تناقضات الواقع، وتمزق الفرد والنفس داخل وضعية مجتمعية متأزمة على جميع المستويات، هي التي تدفع لمثل هذه الاحتقانات... وتبقى لعبة الديمقراطية في وجود الاختلاف بين المواقف.

كانت ليلة مقمرة وجميلة جدا. تغري بالسهرة وعشق النجوم ومسامرة الفؤاد ونجواه... فبينما اختارت جماهير غفيرة جاءت من مختلف مناطق المغرب أن تسهر مع نجوم المهرجان، بعضهم بمدينة سلا، وآخرون بحي النهضة بالرباط أو بصفاف أبي رقرق ومحج الرياض ومسرح محمد الخامس أو غيرها من المواقع الشعبية أو الرسمية التي تمت فيها سهرات هذه الليلة الأخيرة والختامية، اختار سميح نهارى مع صديقه أحمد توفيق الشاطيء الصخري المحادي لحي يعقوب المنصور وحي المحيط المتجاورين.

كان صديقهما رشيد العلالى قد اختار هو وسلوى العايدى التوجه لمشاهدة سهرة بفضاء السويسي للفنانة: (أليشيا كيز

(Alicia Keys). استفادا من دعوات مجانية أو تذاكر مجانية وفرتها لهما الأنسة وفاء غانم. في أمسية سابقة ذهبت هي والسيدة سعاد، ومعهما صديقتها لطيفة لمشاهدة الفنانة ماجدة اليحيوي بالقاعة الفنية بحي النهضة.

لم يهدأ هاتف كل واحد منهما من استقبال وإرسال صور وفيديوهات قصيرة لبعض لقطات الحفل. كان فضاء الفايسبوك والواتساب وغيرهما، قناتهما في متابعة ما يجري في الحفل مع تعليقات رشيد وسلوى.

- أينكما يا مساحيط الفن؟ يستفزهما رشيد برسالته الرقمية عبر الهاتف.

- نحن في ضيافة البحر. تركنا لكم ترف الحفلات. تذكروا رحلتنا خلال فصل الشتاء إلى قرى الأطلس مع الجمعية في إطار المساعدات الإنسانية والظروف القاسية التي يعيشها الناس هناك. قلوبنا هناك أيها البرجوازيون المتخمون.... ههه

- دعني أجيبهما أنا. تدخلت سلوى من داخل الحفل المقام بفضاء السويسي: الفن رسالة عالمية للسلام والجمال تليين القلوب للحلم الإنساني... لا تناقض إذا. والآن دعونا نتمتع بالسهرة مع مغنية رائعة. حتى الغد ولكم تعليقاتكم التي أعرفها مسبقا. أغرقكم الله في أمواج الأطلسي. هذا دعائي لكما.

- دعاؤك مستجاب بحول الله. لكم دينكم ولنا دين. ختم سمير حوارہ الافتراضي معهما.

- سبب هذه "الحايحة" \$ هي الأنسة وفاء. لو لم تحضر تذاكر مجانية لوجدت سي رشيد جالسا بجواري يُمتي نفسه وقدره في هذه العاصمة. يعلق أحمد مجيبا سمير في حوارهِ معه.
- الأنسة وفاء... أه... يتحسر سمير وهو ينطق اسمها.
- ما لك آ ولدي ياكما راك غارق في هواها؟ يرقبه أحمد بسهم سؤاله.

- لو أن وفاء علمت بالشبكة المتداخلة والمتفاعلة من العلاقات والخدمات الطبية والعلمية، وكذا عضوية الدكتور فيها وأشكال التمويل التي تغطيها في الدراسات الميدانية، والتعويضات التي تجعلها للتنقلات والندوات والدراسات الفصلية التي تنشر في المجالات المتخصصة، لعلمت سر اكتفائه بكتاباتها وعدم مطالبته بتعويضات عيادية معها.

- وأنت، أ لست مستفيدا من هذه العضوية؟ يتابع أحمد سبرَ الموضوع.

- أنا كما تعلم قد سجلت بحثي في الماستر مع الأستاذ حليم السيد طبعاً. والتقارير تدخل في منجزي وبحثي. قد أستفيد من تعويضات للتنقل ولتغطية بعض الدراسات أو المشاركة في إحدى الندوات، لكنها ليست مضمونة دائماً. لكن بالعودة إلى موضوع وملف وفاء، فإن فريق الدكتور حليم السيد الدولي يعلم قيمة العمل والمشروع. فجل الدول والحكومات تدعم مثل هذه الدراسات، خصوصا وأنها ترسم تحولات المجتمعات الحديثة وخطورة التغيرات القيمية، وتأثيرها على أمانات

\$ الحايحة : زوبعة أو ضجيج أو فنتة بحسب سياق الاستعمال الدراجي المغربي.

المسؤوليات وعلى سلامات الشخصيات، وعلى توازن الفرد والجماعة ونجاح المؤسسات في أداؤها.

إن العقد الاجتماعي الذي تكلم عنه الفلاسفة ورؤوسو خصوصا هو محور التطور التاريخي داخل الشعوب الإنسانية. وكلما انحلت كلما انحلت الشعوب ولم تعد متماسكة. لذلك فوضعية الأفراد النفسية حرجة جدا، والأرقام الحقيقية التي ترتبط بعدد الأطباء النفسانيين في المغرب مثلا ضعيفة جدا بالمقارنة مع عدد المرضى المتزايد. المقارنة تنذر طبعا بتدهور وانهايار الصحة النفسية والسلامة العقلية. كما تنذر بانهايار الأمم الذي يشبه انهايار سد من السدود يجرف كل ما يقابله.

- انظر أين نحن غارقون ورشيد يرسل لنا صورة للمغنية أليسيا بجسدها الملتف في سواد بارق. يقاطع أحمد تحليل صديقه سمير بما وصله من رسالة هاتفية عبر الواتساب.

هو حوار اتخذ من برنس الليل لباسا يلتحف به، ومن نسيم البحر الرطب عطرا ينتشي بملوحته وجذبه، ومن فضاء الساحل عالما لقراصنة لفظهم المجتمع المنشغل عنهم باحتفالاته.

هي بواذر الصيف إذأ، حيث أخذ الجو يخفف رطوبته، كما أخذت الشمس أشكال احتفالتها بالغروب المتقد أرجوانية يسحر الجميع لمعانفته قبل توديعه. وذلك ما كان للصديقين اللذين جلسا أمام لوحة الشفق الأحمر منذ بداية المشهد حتى اخترقا بحديثهما أجمة الليل الناعمة، مسجلين بذلك قصيدة جمالية طبيعية جديدة يعيشها فؤادهما بدون حاجة للكلام عنها، بينما حواسهم تسكر بها قبل البحث عما أحضراه معهما.

ما أحضراه كان إيماناً خفيفاً ومختلفاً يجمعهما في النشوة المرجوة ويفرقهما في طريقة تحقيقها. اقتنى سمير ست قارورات زجاجية من الجعة الهولندية الصنع والمصدر، بينما أحضر أحمد مخدر حشيش يستعمله في تدخينه.

حقيبة سمير المعلقة على ظهره أينما حل وارتحل تجعل حيزاً لوضع قاروراته في يوم مثل هذا، حينما يريد أن يسبح في جرات يهيم بها، في احتفالية الغروب والهدير ومعانقة الموج للصخور في حبِّ سرمدي لفكِّ أسرار تلاقي البر مع البحر دون أن يكشف السرَّ كبيراً. أما قراءة هذا الأسبوع ما قبل الغروب فهي من نصيب كتيب حول التحليل النفسي لكاترين كليمان ومن ترجمة الدكتور محمد سبيلا وحسن أحجيج، يعاود قراءته للمرة الثالثة، كأنه يبحث عن شيء لم يتجاوزه علماء النفس بعد... إنما يحتاج منه إلى رحلة طويلة وعميقة تضاهي رحلات كوستو في استكشاف البحار.

أما أحمد توفيق فهو سليل تربية فقهية ورث معها في طفولته خجلاً داوم وغطى مسار حياته ومراحله العمرية... هكذا يحلل سمير شخصية صديقه أحمد: اختيارك لتدخين الحشيش بعض المرات وخجلك في عدم تصريحك عن مشاعرك، كلها أمورٌ نتاج تربيته الأخلاقية المثالية يا صديقي.

- استنرني الله يفضحك يا سمير... ههه

- نصف عشقك أو ثلثاه ذهب وتبخر بسبب خجلك أيها الملاك المنزوي في جزيرة الخجل. لا أدري كيف تكتم حبك لفتاة أو سيدة، وتستمر في عشقها وهي ليست على علم أو دراية

بأمرك. شمعة تحترق بدون أن تنير. كان الله في عون لوحاتك.
كيف تقاوم تستراتك؟ أترك مجرم في الخفاء ولا ندرى؟

- كلانا مجرم خارج القانون. دعنا من فضائنا وعدُّ لنفسر لي دورك في شبكة التسامي والإبداع. أتمنى ألا أكون رقما في ملف أو تقريراً من تقاريركم المخبرانية.

- أ تتذكر يوم اشترينا الكعكة بمناسبة عيد ميلاد سلوى؟ كيف رمفتك تلك البائعة في المخبزة بابتسامتها؟ ألم يكن لي دور في كسر جليد الخجل بينكما؟

- أيها اللعين. كيف تستطيع وتجروء على سؤالها عن اسمها فتجيبك أمام الملائ وتقدمني باسمي لها... ألم تر كيف خجلت وقرت إلى رواق آخر؟

- اطمئن، سأورطك كلما أتحت لي فرصة مع النساء والفتيات. الأمور طبيعية وسهلة. تحتاج إلى التعبير فقط. تباً لكم، ورثتمونا عقداً مكبلة في العلاقات الإنسانية.

- اتركنا من مكائك الآن وعدُّ لتبيان طبيعة عملكم. يلحّ عليه أحمد في الطلب.

- هو عمل علمي وميداني آ سي أحمد. نتائج دراساته تنفع الخبراء الدوليين كما المحليين في سياساتهم التربوية والتنمية قبل السياسية أو غيرها.

في تقرير حول وفاء غانم، اعتمدت على صور اللوحات المكتوبة والتي بعثتها للسيدة سعاد. هي شخصية رومانسية حاملة. وبطبيعة مرحلتها العمرية، هي متوقفة على خيارات حاسمة استنفدت معها درجات الصبر المطلوبة في الحياة داخل

مجتمع كمجتمعنا. كان الله في عونها. مثل مصباح انتهت صلاحية بطاريته. كذلك صبرنا كأفراد في حياة مثل هذه. يمتلك مجتمعنا ذكاء تاريخيا قد لا نعي ميكانيزماته إلا إذا عشنا فيه مثل النبي نوح لتسع مائة وخمسين سنة. ههه. وفاء تعيش داخل قفص كبير وداخل سياج وجدران تحجب الأفق كما الرؤية، تمنع التحليق كما الحرية.

أ ترى إذا كنت تحلم أنك تمشي بينما لا تستطيع المشي فتتوتر أعصابك في النوم؟ ذلك وضعها النفسي. لكن الواقع لا يرتفع. كما أنه لا يرحم. حلمها نجمٌ في السماء، نموذج مثالي تريد الصعود إليه بدون جدوى. في دواخلها نور تريد أن تغزل به حبل الوجود وتسجل به للتاريخ اسمها وذكرها. أن تنتصر لأنوثيتها التي استصغرتها الثقافة المجتمعية، كما استغلها الرجل التقليدي والانتهازي في حياتها.

إن دور كل تقرير هو التقاط الذاتي داخل كل تصور أو تخيل، ثم ربطه بعوامل موضوعية لها قرائن تدل على صحتها. لذلك يبقى تقريراً ناقصاً، ما دامت عناصر اكتماله موجودة عند الطبيب حليم السيد. وأخوك كما تعلم مجرد طالب الآن. أرفع التقارير لأهل الاختصاص. هم أدري بتوظيفها. أنا مثل صحافي يغطي الحدث بنظارة كاشفة للألوان المميزة للمشهد. وأنت أسي احمد؟

- نعم، ما لي أنا؟

- ارفع خجلك وبُخ لي ببعض جرائمك. افضح نفسك لتنجو من غرقٍ أنت ضحيته الآن.

ماذا تريد أن تعرف يا كولومبو النفوس وبلبل السيدات
العانسات؟

- هكذا إذن تهاجمني وأنت ضيف عندي في ليل هذا الشاطئ
الصخري.

- أترأك حضّرت وليمة لهذا الضيف؟ قنينة ماء معدني ووجبة
سريعة التحضير بسردين معلب. تبارك الله عليك.

- لو أنك تهاجم الواقع بمثل ما تهاجمني لعشت أجمل
المغامرات. جرّب يا أخي. بُح لسلمى بمشاعرك! ولو صدتْك
ستكون أفضل حالاً.

- كيف أفضل حالاً. سأحترق كشجرة صفصاف
بطولها. سنتلاً كرماد سيجارة أو ملفوف حشيش.

- إذا كُن ملفوف حشيش أفضل. احترق، سأستنشق نسيك
المخدر وأنتشي به، سأشاهدك مثل فيلم دراماتيكي. لكنني لن
أذرف دموعاً منهجرة. كفانا ما بكيناه على انتكاساتنا ومع
المسلسلات والأفلام الهندية المعوضة بسينما
موريطانيا وغيرها.

- قل لي: ألا تخاف في هذه الأماكن ليلاً؟

- أخطر غدر هو مع من تشعر معهم بالأمان. أما مع أصحاب
الحال هنا، فينقاسمون معك ما تملك. لا تخف.

- تبارك الله على روبن هود وطاغور زمانه.

- تبارك الله على عذري زمانه. تعال نجرب إذا مغامرة نسائية
جديدة. هل أنت مستعد؟

- لا أقدر عليك يا صديقي.
- اسمع الآن. جرّب معي مغامرة الآن. مستعدّ؟
- ماذا؟
- قم بصفعي، هيا. لا تخجل. ليس لكمة، صفقة فقط.
- أتركني من جنونك.
- والله العظيم ، جرّب.
- آي... أعدّها مرة ثانية. - هيا... آي ي ي... لقد فرّغت غضبك على خدي.
- قلت لك أتركني من حماقاتك.
- الآن الدور عليك. مستعدّ؟
- لم نشترط هذا في التجربة. يرد أحمد.
- لم أكن أعلم أنك خجول وأناي. لا بد لك من تجربة. خذ هذه يا لعين، يا كلب!
- آآآآي. لم نتفق على السب والشتم.
- هي فرصتك لكي تحارب كبرياء فارغا يستحوذ على نفسك بخجل يوهم بالترفع والرقى. كنّ كلبا مثلي ولا تخجل.
- ذهبت نشوة الحشيش يا كلب الساحل.
- عظيم. بدأت تتعري من أحمد المثالي.
- اللعنة عليك. ناولني قارورة.

- ماذا؟ طارت مملكة سحابك وتريد الاستحواذ على بحيرة
غريقي الجميل؟ لا عليك. لك واحدة فقط. فأنا دولة فقيرة لا
ثروات لي.

- طيب ، تعال نرسم لوحة الآن.

- ماذا؟ كيف نرسم في هذا الظلام؟ يرد سمير.

- أية ألوان هي محيطة بك الآن؟ يباغته أحمد.

أحمد توفيق، تربية مزوجة بين التعاليم التقليدية داخل المنزل وضرورات الانفتاح على العصر. إنما خروجه للعالم الخارجي رافقه هذا الخجل الذي أصبح من طبيعة شخصيته. كم من الناس يحبه هكذا خجولاً. ربما يرسم به حدود تواصل أو يرتاح لعدم اختراقه دائرة حريات خصوصية. انخراطه في العمل الجمعي منذ الصغر ساعده على إيجاد ضالته في الرسم والأوراش التطوعية. أما المسرح فقد جرّبه في الصغر كذلك، لكن التواءً متوتراً عكس نفسيته المكبلة فكّباً من أول صعود له على درج خشبة المسرح بعد تمرنه على الدور فوق الأوراق.

عانق عالم الأمداح والذكر. تميز صوته بين أصحابه بنعومة إنشاده، لكنه لم يجرؤ على الانضمام إلى أية مجموعة صوتية إنشادية تسترزق عيشها بهذه البدائل الجديدة عند الشباب. دائماً كان خجله جزراً لمَدِّ طموحه، انكذب على حفظ الأشعار والاطلاع على الطرق الصوفية وأذكارها. لعله غوص داخلي روحاني يعيد به هدوء النفس التي لا تقو على تذوق ألوان الحياة وأطباقها المشتهاة. لكن تغيراً مفاجئاً طرأ على شخصيته وحوّله إلى فرد جديد، رغم أنه لم يستمر في دراسته بعد البكالوريا. كما لم يتم سنته الجامعية الأولى.

عانق حب المتصوفة الذي صهر مجموعة عُقد ركبها الخجل في دواخله. حلّ له حرية التحليق الداخلي للذات العاشقة

والمغرمة والهائمة بالحب. حوّله من خائف إلى محبّ وعاشق. والعاشق يركب زوارق المغامرات، رغم انخداعه بمخدر الحشيش الذي يسافر به في عالمٍ مثلٍ يرتبها داخل فضاءٍ ليس بالتأكيد هو فضاء العاصمة التي يعيش فيها. إنما ما العمل؟ هو من مئات آلاف الشباب الذين استهوتهم بلاوي منتشرة في بيئتهم. وجدوها مؤسسة ومؤسساتية، داخلة في تركيب الحياة وإغراءاتها وتعويضاتها... طبعاً يحاول كل مرة إيجاد تبريرات مثل هذه لما هو مدمن عليه.

أحمد ممتلك لوزن زائد في جسمه، يعطيه كتفين عريضين بذراعين ممتلئين وخذّين منتفخين تدلّت عليهما حمرة قانية لامعة، افترشت بساطها الذي يبصم على فصول الخجل التي تتميز بها رحابه. قد تتحول إلى شحوب بأثر رمادي كالح حالات مرضه أو حزنه. إنها مرآته التي تترجم شخصيته في مجموعة من الوضعيات إذاً. أما يدها، فباستدارتهما الممتلئة كذلك، تكون الريشة بين أنامله كطفلة أو كعصفور بريء من سمنته المعتدلة. لقد كان التلميذ المهذب الذي يجلس في الصف الأمامي في مادة الفنون التشكيلية في الإعدادي. هناك ومذاك، اكتسب الموهبة والميول إلى الرسم مع أستاذته التي كانت تقربه لها لخجله المرغوب في الاحتضان الوجداني. احتضان أعطاه عشقاً داخلياً لأستاذته لم يبيح به لها.

هكذا يبدأ سمير بهدوء في وصفه قبل أن يفاجئه برسم كاريكاتوري يدلي فيه بطنه وخذّيه، كما شفته السفلى، ويجعل "طمطمتين" - كما يحب أن يسمّيها - على وجنتيه، فتكونان زهرتين بارقتين فوق اللوحة. لا يسلم رأسه من أن يكون كبيراً بينما أطرافه صغيرة جداً. رأس وخذٌ وبطن. الله أكبر. هكذا

يختم سمير جريمته الفنية في حق صديقه أحمد. لا تزال صورته الكاريكاتورية التي استعمل فيها الحبر الصيني معتقلة عند أحمد في منزله، كذكرى لشغب فني جميل ومستنقز لشخصيته لا يريد للجميع رؤيتها.

- أنت اخترت الخجل يا حبيبي. هو سبب هذا الضغط والانتفاخ. إذا شئت سأساعدك على تفجيرِه. ما رأيك؟

يعود سمير داخل حلقة الليل في ساحل المحيط الصخري المجاور لحي سكنه من هذه الرحلة الذهنية العجبية في تشكيل ذكرى صاحبه الجالس بجواره، وخصوصا مع سماع اقتراحه المتمثل في رسم لوحة في هذا الظلام الدامس، كان يعلم بأن شيئا عبقريا تنطوي عليه فكرة صديقه أحمد. فالرسم يخترق دروب الحياة النفسية والعقلية والذوقية والجمالية في كل صغيرة وكبيرة. هكذا هو هوسهم كفنانين يعانقون تعلقا تجارب الفنانين الكبار ويبحثون عن تميز داخل لوحات الكون المرسومة بجمال هرموني أخاذ.

- سبق أن قرأت قولة لفيلسوف مقصي من الاعتماد الرسمي هو ابن عربي، يقول: النور حجاب. ما رأيك يا سمير؟ من سينتصر فينا مع القولة؟ أنت محلل نفساني مجرم، وأنا شاعر خجول. فمن المنتصر للقولة؟

- كلانا يا عزيزي. تعلم ثقافتك لا يمتلكونها بذوقها أصحاب الشهادات العليا. نحن سننتصر للقولة. ألا نتقاسم الخيال والريشة؟ الريشة مازجة بين ألواننا. إنما ما فهمك أو لا للقولة؟

- عندي إنشاد حرٌّ. إذا شئت سماعه يا سمير.

- شئت؟ يا سلام. أصبحت بهذا الاختيار العظيم. يا سلالالالام.
وما تشاء إلا أن أشاء... ههه

- أصبحت متصوفا في حلول مجنون بالحكمة العميقة. اسمع
لصديقك أحمد الآن:

- (سألوني عن الهوى، قلتُ معذرةً كيف يسكن من انكوى
خارج ما يهواه... وما العيش بدون الهواء هواه... وما الهوى
بدونه الحياة هواء... هي إكسيري وبلسمي في الشفااااااء
حَووووواءٌ ُ ُ ُ... يا ليل... يا يا يا، يا لبيبيبيبيبييل).-

- دعني أقبل رأسك اللعين. ما أروعك يا أحمد. لعنني سأرسم
معك الآن لوحة الليل المضيئة. ولعل الأنسة وفاء غانم على
صواب في معرض النور في العتمة. جميل. اكتشفها. هكذا
سنسميه:

- معرض النور في العتمة، أو العتمة في النور. ليأكل نيوتن
تفاحته. لي الآن تفاحتي، اكتشافي الخاص.

- أيها الأناني والنرجسي. ألسنا صاحبي الفكرة معا؟ أنا ووفاء؟

- ههه... قل لي: لماذا لا تصاحب الأنسة وفاء؟ تناسبك.

- ألا ترى أنها تكبرني بست سنوات تقريبا؟

- هه... معقد خجول. وما العيب؟

- لنعد إلى اللوحة أيها المحللُّ المحللُّ وغير المعقدِّ.

اتخذ الليل في لحظة اطمئنان إيقاعه الخاص. تراجع تلاطم الأمواج إلى وقع معتدل، كأنه يريد الاستماع إلى اللوحة التي تخيلها الطرفان، نورسًا الليل في اصطياد الهذيان. شارك الموج صاحبيه في التيه الجميل، حيث إنه يغري في لحظات الانسحاب الهادىء، حتى يعود بعدها لتوقيع بصمته الموسيقية المألوفة التي تُبعده عن صفة الغريب. لا غريب في هذا الليل البحري الشاطئي، التحام بين الخلائق والطبيعة.

- هل ترى طيف ذلك الرجل هناك؟ أشار سمير لصديقه في همس خفيف.

- الظلام دامس إلا ما كان من ضوء المدينة الذي يختلط مع الفضاء الرطب للساحل. آه، لقد عكسته أضواء سيارة عابرة. أنراه ميتا أم نائما؟ تساءل أحمد.

- فيما يحكيه لرواد الصيد هنا، أنه مرَّ بتجربة مريرة في حروب الرمال بالصحراء، في بداية التسعينيات بالعراق. تلك الحروب التي أعلنت على بلاد الرافدين من أجل آبارها. لا أدري كيف صادف انخراطه فيها. فكما يروون ، كان ضمن طاقم لوجيستيكي للتموين والدعم. كان ضحية حصار. عانى دوي وضجيج القنابل والرشاشات والمدافع والصواريخ. بعد تقاعده لم يعد قادرًا على النوم في المنزل. أوصاه الأطباء بالنوم قرب أمواج البحر أو هدير الأنهار. ليته كان يمتلك فيلا

بالهرهورة، لاستفاد من هذه الوصفة الطبيعية الرائعة في العلاج. لكنه المسكين، يبدو أنه يقاسم جهده بين سكنه بحي المحيط ونومه لسويغات على عرس الأمواج المتلاطمة. أتدري الآن لماذا أرتاح أنا كذلك لسفونية البحر؟

- عظيم منك هذا الفهم. أتراك الطبيب الذي نصحه بوصفته هذه؟ لكنني أتفق معك. حتى ذهني الآن في هذه اللحظة في صفاء كبير، خالٍ من كل التصورات والوساوس.

- ربما نبتتك آسي أحمد؟ ههه... مازحه سمير.

تقطع حوارهما قافلة سيارات متألئة الأنوار، صاحبة الصوت في موسيقى ضجيجية عرقلت إبحارهما في لوحة رومانسيتها التي انخرطاً فيها.

- يبدو أنه موكب عرس في ليلة سبتنا هذا؟ يتساءل مُقِرّاً استنتاجه، أحمد.

- ربما اتجاههم قاعة الأفراح بحي المنزه، قرب فيلا السيدة سعاد؟ يعلق سمير.

عاد السكون من جديد. فجأة لَوَّنت فضاءه تموجات لون أحمر وأصفر، تبعته صفارات سيارة إسعاف مارة بسرعة. ناسب المشهد اختلاقيهما لجدلية نقاش جديدة. لكنهما لم يطبلا فيها.

ازدادت رائحة الطحالب النباتية التي يلفظها البحر على حدود البر. كأنها ولائمته التي قدمها في أطباق مشتهاة لمخلوقاته التي تعيش وتفتت على مكوناته. هكذا يطعم البرمائيين دون تمييز بينهما.

- سنجمع خز البحر وبعض حصاه الأملس. بعض المحار المترامي وشيء من الرمل المبلل. ماذا كذلك؟

- يمكننا أن نستعين بمصاييح الأيفون للبحث عن طحالب جرفها مد الأمواج على هذه الصخور. أشار سمير.

- أكيد... تصوّر لوحة بروائح متنوعة، تفوح منها، سنسميها شاطئء الألوان، أو رائحة الصورة. إذا شئت: عبق. هذا أجمل.

- وأين هو إنجازها الآن؟ ألم تقل لنرسم لوحة؟

- نعم، لقد رسمناها ذهنيا وتحكنا في مادتها الخام. غدا نفاجيء المجموعة بتركيبها باكرا قبل مجيئهم. بادِرْ إلى استلهام أفكار تساعدنا في ذلك.

- أوكي. سجّل في ذاكرتك حتى لا ننسى دور المصباح في البحث عن هذه المواد. لا بد أن نعكسه في اللوحة خلال إنجازها.

- أوكي. أصبحت الأم الهندية الآن...ههه

- ويحك. ألسنا فريقا ثنائيا الآن؟ إذا كنت أنا الأم، فأنت بنتها أيها اللعين. غدا سأزوجك وأطلب بركة الأولياء لك. ربما أذهب بك لزيارة سيدي العربي بن السايح. وهناك أرسم على عتبته...ههه... انطلق صاخبا في ضحكة متعثرة بين الرغبة في الكتم وضغط الانفجار فيها: ووووههههه حاحاحا... برقت عيناه متلألئتان في انعكاسهما مع الأضواء المنفلتة من سفينة الضوء الفضائية الأرجوانية التي تشكلها مدينة الرباط الراقصة على ضجيج وكهرباء وعلى موازين جنونية.

- يبدو أن ليلتنا لن يطلع عليها نور صباح.

يتذكر أحمد صفحة ودرس الكولام المرتبط بتفوقه كتلميذ مجتهد عند أستاذه المفضلة في التعلم الإعدادي. عن فن الكولام الذي ترثه البنت عن أمها عند قبائل (تاميل نادو، و، كرنا طوكا) في الهند. كيف ينجز هذا الفن بمدخل البيوت أو المعابد والأضرحة، على شكل رسم بألوان على الأرض. كيف يستعمل الماء الطاهر برشه باليد من إناء على بقعة أرضية. وحيث يتشكل الرسم من عناصر هندسية موروثية ومألوفة وأخرى من متخيل الفنان أو الفنانة... طحين أرز، ومواد مختلفة.

لكنهما هنا قاما بتبئية هذه الثقافة وتوظيف تفاعلي لمكوناتها... سينضاف إلى هذه العناصر الشاطئية ما يتوفر عليه المرسم من مواد متبقاة من أوراش سابقة: حناء، كحل، زعفران حر، عكار بلدي، ومساحيق وشظايا أخرى... تلك فتنهم الفاتنة طبعاً.

الأسبوع الذي تلا امتحانات الباكلوريا كان مغايرا للأسبوع الذي سبقه. ارتبط ذلك بسلمى السيد التي تحررت من عبء الامتحان نسبيا، والتي استضافتها وفاء في يوم اثنين من بداية هذا الأسبوع 16 يونيو 2014. المناسبة، زيارة رواق (محمد الفاسي). كان التشجيع من أبويها حاضرا. وقد بدا على سلمى تحرر سلوكي جديد. ربما ارتبط بمرحلتها العمرية التي تشبه فصل ربيع ينتظر أولى أشعة شمس الصباحية لكي يفي بالانفتاح والإزهار والفيح... يفي بألوان جديدة وهارمونيا طبيعية مختلفة. ذلك مناخ شخصيتها. فقد تحررت من لامبالاة ومن ألبسة ملتصقة ضيقة، وعانقت ألوانا زاهية في فساتينها، بدليل الفستان الذي ارتدته في خرجتها هذه مع الأنسة وفاء غانم. فقد وَقَّتْ أمها بوعد شرائها فستانا بمثل ما كانت ترتديه وفاء يوم دعوها لوجبة الغداء بمطعم ميرامار.

من شخصية تلميذة إلى شخصية أنثى، زينتها تباريح زينة خفيفة في دهن معطر جميل الرائحة على مطلع جيدها وخديها، وعلى ملامس ذراعيها اللذين سيعانقان أشعة شمس هما الآخران كذلك. احتفاء جسدي بالجسد، شاركت أمها الطيبة في تحضيره وتوجيهه. كانت سمفونية معزوفة بطوقها الجميل على محيا شباب ناعم يلبس شخصية سلمى اليافعة. أما أحمر الشفاه، فبالكاد استرق من شفثيها الرقيقتين ما به سجل بصمة الجمال وفتحة نور لا تمتلكه إلا أنثى في رقصة ثغرها المطبق

على أسرار الحياة. ربما لن يفتح إلا بأمر آلهة الكهوف المنتظرة لقرابين تبجيلها. قرطان مستديران بألوان ثلاثية تتماشى مع تشكيل الفستان . في طالعي حذائها امتلكت رشاقة مع طول لامس طول أمها وهيئتها في صورة أكثر نحافة وأقل بنية منه.

ما أجمل هذا التحرر من قيد الدراسة الذي كَبَلَّ السنة بأكملها، والذي ينتظر شهادة النجاح لكي يوقع على تألق الشخصية في مشوار حياتها، وفي أولى محطات البرهنة المرتبطة بالنضج والرشد والتوقيع: أنا هنا. أنا هي. ما تروونه أنا. في قدرتي على محاورة الكبار وعلى زيارة المؤسسات وعلى تواصل أرفع. أنتقل من قيد المدرسة إلى بحر الحياة. أفتح على فن العالم وعلى عالم الفن من خلال هذه الزيارة الأولى التي ابتدء بها ربيع ما بعد الامتحان. أما ما قبله وخلالها، فهو خريف وشتاء. أما نتيجته فهي حصاد وليس صيفه. ذلك أن صيفه ربيع دائم في قلبي، في فرحتي، في بسمتي، في شبابي.

لقد قرأتُ وفاء كل هذا الإلهام في خفة وفي عيني وفستان سلمى. وفاء التي أصبحت مسكونة بكتابة ذهنية تترجم ما تراه وما تلاحظه إلى عبارات ترسم بها المشاهد حروفاً. بلية تواطت دائرة حلِيم السيد ودائرة مرسم السيدة سعاد في تأجيج وقود حبرها المشتعل في أفكارها قبل أقلامها أو آلة حاسوبها.

أنا الآن مع بنت طبيبي النفسي. أتراني في مرتبة ابنته اعتباراً؟ أتراني في وضعية اطمئنان على حالتي النفسية مثلما هو مطمئن على حالة ونفسية ابنته؟ يكفيني التفكير بهذه التساؤلات لكي أشعر بارتياح شديد وكبير. سأجعل يومي شبابياً بامتياز

رفقة سلمى السيد. ها أنا مجنونة في طريقة تفكيري؟ ما أجمل حمقي إذن!

تتذكر وفاء يوم أنهت الامتحانات الشفوية في سنتها الأخيرة من الدراسة الجامعية بكلية الآداب بالرباط، من أجل نيل الإجازة في شعبة التاريخ. آخر مادة أمُتحت فيها جعلتها تنطلق في مسير على الأقدام مع صديقتها من باب الكلية إلى شارع النصر وكأنها في فتح مبین حققت معه انتصارات بطولية شعرت بها وهي تخترق أقواسه، ثم شارع الحسن الثاني فشارع علال بن عبدالله، ثم شارع محمد الخامس إلى أن أطلتْنا على امتداد المحيط الأطلسي من فوق أبراج قصبة الاودية التاريخية. إطلالة رسمت توقيع البحر وزرقته في محياها ونظرتها منذ ذلك الحين.

كم من كلام، وكم من شهقة، وكم من ضحكة ومن حركة، كانت مقيدة بالدراسة والامتحانات. هي كلها الآن في تناسخ تراها على محيا سلمى وكلامها وحركتها.

يتشكل الرواق من قاعتين كبيرتين ومدخل وبهو وسطها. وتشكل الخطوة الأولى على عتبه الأولى درجة التحدي والنجاح في معانقة إبداعه ورسالة لوحاته. فمن يكون مسكونا بالفن والإبداع يعلم أنه لا يدخل إلى مقبرة ميتة للأشياء. إنما دخوله مثل مقابلة الشعراء لعبرهم في وديانهم الخفية في أعماق النفس. لا يراها أحد إلا هم. كذلك اللوحات، لا يرى إلهامها ويلامس سحرها إلا المسكون بالألوان ورسالة الفن والفنان.

تعجبت وفاء من نفسها وهي تبوح بهذا الكلام أمام سلمى في طريقها إلى درج وباب الرواق. أين كان مختبئاً كل هذا الوصف والفهم المرتبط باللوحة والفن؟:

أترى عباقرته سكنوا دواخلي دون أن أعيهم؟ لكن، أية لحظات هي استغلوها وكانت مناسبة لهم؟ وأنا الأنثى اليقظة التي ما تنفك تلامس ما بين جسدها ولباسها، ما بين عريها وعالمها الخارجي لكي تثبت بيقين الجواب تحكّمها في ذاتها؟

المعرض معرضان، اتجاهان ومدرستان. كلاهما تقاسما بهوه، لكن كل واحد منهما اختصت قاعة بعرض لوحاته.

ولوج المدخل يغريك بألوانه الخفية المنبعثة من خلف منحوتات ماثلة وواقفة، تجسد فن ومدرسة النحت المغربية المتميزة. في رؤية البهو تحتر عيناك لتوزع ست لوحات على جنباته، على اليمين ثلاثة تصبغها ألوان، وعلى الشمال ثلاثة تتميز بتفردها باللونين الأبيض والأسود. ثرى، أي الفريقين ينتصر في جذبك لبداية زيارته وزيارتك؟

غاب الرسام وبقيت روح مدرسته حاضرة للتكلف بمهمة جذبك وسحرك ومغازلتك ومحاورتك بلغة الروح وروح اللغة والألوان. هكذا كان عنوان وشعار المعرض المشترك لفنانين مغربيين متميزين: لغة الروح.

تابعت سلمى بروح مهياة للانعتاق والتخليق والحلم، فضاء اللوحات، وشروحات وفاء. ساحت بابتساماتها الفرحة وبراءة حبها للاكتشاف الجديد في مواكبة خطوات ولحظات وفاء خلال هذه التغطية العفوية التي قامت بها. فجأة، تراجعت

خطوات وفاء للوراء وهي في القاعة الثانية المخصصة للوحات بالأبيض والأسود.

استغربت سلمى لذلك، وتريثت في إصدار حكم أو تعليق أو طلب استفسار. وهي الضيفة في عالم جديد وغريب للكبار وعند الكبار. ليس طبعا عالم أسانذتها الذي اعتادت عليه وعلى خصوصياته وفهمت منطق تواصل شخصياته. ففي المدرسة، تكون داخل مجموعة ضغط - لوبي - يواجه عالم الكبار من إدارة وطاقم تربوي. أما هنا، فهي في أولى تجربة بعد انتهاء أسبوع امتحانات شاق. هذا الصراط الذي استقى هوله وخوفه من عالم يوم قيامة وحساب، تحفظ بعض ألفاظه الطارقة باللغة والثقافة: القارعة، الطارق.

- أنظري إلى هذه اللوحة يا سلمى.

- يبدو شكل امرأة مفرصة في وضع منحني إلى الأمام داخل ثوب يغطيها بأكملها.

- صحيح. لكن تعبيرا حزينا تخفيه اللوحة.

- لكن وجهها لا يظهر في اللوحة لكي يدل على تعبير حزن.

- هو تعبير يخزن تاريخ المرأة ككل. قوقعة جعلها داخلها الرسام وسط هذا البياض الذي لا يدل على شيء. ألا تلاحظين رماديته الكثيفة؟ وحتى السواد في اللوحة فهو من نصيب عالم المرأة فقط. ما قيمة البياض بدون دلالة أو رمز إذن؟ ثوبها؟ أسودها؟ ظلامها؟ تاريخها؟ سياجها؟ حصارها؟ قيدها؟... رائعة هذه اللوحة ومرّوعة في آن. هل تمتلكين كاميرا جيدة في هاتفك؟ أريد التقاط اللوحة وتأملها فيما بعد.

- ها هو آيفونى. التقطى مجموعة صور للوحة وسأبعثها لك
حالاً أو عبر الأترنيت.

- أوكى. شكراً لك سلمى، شغلي الكاميرا إذن.

بعد الانتهاء من الزيارة التي لم تتوقع سلمى منها أن تستغرق
كل هذا الوقت، والتي ما زالت علامات استفهام غامضة حول
مجموعة من لوحاتها، توجهتا، هما الاثنتان، ودائماً باستضافة
من أحد طرفيهما، وفاء غانم، في سيارتها، إلى محج الرياض
لتناول وجبة الغداء في مطعم (لويجي). كانت سلمى تتمنى أن
يكون تناول الوجبة بمطعم الماكدونالدز، مجال تلاقي الشباب،
لكن يبدو أن عرض وفاء نقلها من عالم الشباب إلى عالم
الكبار، من ذوق إلى ذوق آخر.

عرفت الصورة المأخوذة، والتي بعثتها سلمى إلى صندوق بريد وفاء الإلكتروني، عبر هاتفها المحمول الآيفون - ثورة التكنولوجيا في التواصل الحديث - أبعاداً ذهنية في الفهم والتوظيف الدلالي كتموجات أفكار زاحفة على وعي وفاء غانم. لم تنم تلك الليلة إلا بعد أن جعلت اللوحة صورة خلفية لشاشة حاسوبها داخل غرفتها.

عبرت لرؤية كومة سوداء داخل فضاء أبيض أعى لا يوحي بشيء، إلا إذا كان يوحي بعدمٍ وموتٍ كما وظفه به شعراء قصيدة النثر. قطبتُ لما رأيت حلقة ذلك السواد الرمادي تتكثف إلى ما يوحي لجانب ظهرٍ ولامتدادٍ مائل لكتف. كذا لما يشير إليه أسفل الكومة لأردافٍ وللفخذ الأيسر لجسد امرأة. لا. امرأة غير معترف بها وبوجهها ولا أطرافها في الظهور، ولا عينيها أو أنفها في التنفس، فبالأحرى شعرها الذي قد ينسدل على جنبات ذاتٍ، معبراً عن جمال حياة وحياة جمال... إنها عورة فعلا، لا امرأة، كما في الصورة.

استرجعت مع زفير تنفسٍ إحتماً مع خياشيمها في فلاش باك، كل الحمولات السلبية التي أسقطها تاريخ مجتمعا الذي يجتر ثقافة العصور الغابرة حول المرأة. تراءت لها الأحكام السلبية والمنتقصة للمرأة. تخيلت سؤالاً يُلقى على فقيهٍ حول ما تصلح له الصورة - اللوحة أو ما يمكنها أن تشير إليه؟ تصورت جواباً مرتبطاً بما يكثر عبر وسائل الإعلام تداوله من فتاوى غريبة:

في الحقيقة، وضعية الصورة - اللوحة أماكن الجسد التي يمكن أن تنزل عليها أحكام عقوبة بالجلد لثمانين أو مائة، حتى لا نخدش وجهها وصدرها وفرجها.

الله أكبر!! ويل لك يا وفاء. هكذا لطمت تخيلها بتضارب أفكارها ولخبطة ذهنها. أما وجدتِ إلا هذه الصورة المأساوية؟ ولماذا لا تقولين أيتها الحمقاء أن الرسام أراد أن يعبر عن وضع حزين مطبق مهمش للمرأة التقليدية ككل؟ وانتهى الأمر؟ ولكنني افترضت سؤالي الموجه إلى الفقيه. لن ينفعني التخمين إذن. سأخذ القلم الذي يخط بنور أكبر في عتمة هذا الليل. ثرى من ينير الآخر:

أنا أم الليل؟ الحبر أم الليل؟ الليل بريء من تداعياتي. بَمَ سأبدأ؟ سأحدث عن العري الجسدي:

((العري الجسدي ، مجموعة من الرموز المتبعة في تحايل مع ثقافة اللباس. هذا الأخير الذي ارتبط بورقة التوت الأولى، وصدمة الأخلاق التي حجبت الأعضاء والوظائف الجنسية عن السفور. ومن تم، كانت البدايات في حجب أجزاء وأطراف وهيئات من الجسد، تعقدت تعقدت الحياة الاجتماعية ومناخها التربوي والأخلاقي والثقافي الذي تشكل عموماً. كما أصبحت كضرورة بيئية متأقلمة مع ظروف المناخ والصحة والمرض وغيرها.)).

...

بعد الانتهاء من كتابة نصها أو مقالها حول اللوحة، والتي جعلتها كذلك خلفية في صفحة الكتابة الإلكترونية، احتارت وفاء بعد مراجعة أخطائها المطبعية، لمن ستبعث النص المكتوب.

تذكرت أنها لم تتخيل ولم تكتب عن لوحة متصورة ومتخيلة. إنما هنا قامت بقراءة للوحة استفزتها بمضمونها وحجمها. ذلك أن اللوحة الأصلية وضعت في إطار متر وعشرين سنتيماً عرضاً على متر طولاً (120/100 سنتيمتر).

سأرسل الطبيب والمرسم. أرى أن قراءتي تحتاج لقراءات. سأرسل صورة اللوحة كذلك. ها هي ثقافتي الشخصية حاضرة وموظفة في القراءة.

تذكرت أن تاريخ هذا اليوم هو، مع تجاوز الساعة لمنتصف الليل، هو 17 يونيو. لم يتبقّ لشهر رمضان سوى اثني عشر يوماً. وما يزال في ذمتها ثلاثة أيام لتصومها فرضاً مقضياً عن أيام أفطرتها بسبب مرض ألمّ بها في شهر رمضان السابق. قررت أن يكون هذا الأسبوع للإمساك والصيام.

وكذلك كان. وكذلك انخرطت في المزج بين قضاء دين صومها والعمل على تحضير مستلزمات الشهر الأبرك القادم. فالمدينة في هيئة الاستعداد والتحضير. روائح الشباكية

والفيلائية والحلويات المتنوعة بدأت تفوح بين الدكاكين التجارية. تغيّر جديد سيكون في اللباس والسلوك والحركة والكلام عند الأنام، وكذلك عند وفاء غانم. فهي تعتبر شهر رمضان شهر طهارة روحية وتخلص من تشويش المحيط الذي يزعجها طول السنة. تحضر زادها من التغذية الروحية والفكرية. تتفرغ بوجدانها أكثر إلى خالقها. تعمر المسجد لصلاة التراويح. فمساجد الله تعرف استقطابا كثيفا في شهر الغفران ومحو الذنوب وتطهير القلوب والتقرب إلى الله بالعبادة والذكر. هي مناسبة عند وفاء غانم كذلك لكي يخف وطء الإحساس بالذنب الذي يتأجج كسيل حمم بركانية خلال فصول السنة.

كتيبها ودستورها الروحي الثاني بعد القرآن الكريم في هذه الرحلة هو (في صلة الوصل مع المحبوب). تعيد قراءته في مثل هذه المناسبات وتهتدي به في خشوعها وتقربها إلى بارئها.

صادف مجيء شهر رمضان الكريم تنظيم ندوة من طرف جمعية بدأ إشعاعها يكبر مداه إيجابيا في نوعية الأنشطة لأسماء المشاركين في ندواتها وأمسياتها الشعرية والأدبية والثقافية والفنية. جمعية اختارت مسار التنمية مثل مثيلاتها في الثقافة والاجتماع والتربية والفن... لبنة من لبنات. هكذا بناء مشاريع الحضارات.

موضوع الندوة مناسب سياق التربية الروحية والتغذية الوجدانية والتهديب السلوكي الذي يتعطش له أفراد المجتمع كل شهر صيام من كل سنة. كان يوم سبت، سابع رمضان. ما يوافق 5

يوليو 2014، بقاعة المحاضرات بدار الشباب بحي يعقوب المنصور. التقى بُعد التربية النفسية مع التربية الروحية.

من بين أعضاء مكتب الجمعية نجد رشيد علالي وأحمد توفيق. يتحول أحمد خلال هذا الشهر الكريم إلى رجل آخر، وبمواصفات سلوكية أخرى. يرخي لحيته السميقة والكثيفة التي تغمر ملء شذقيه وذقنه وخديّه، وتتدلى سوداء ينبسط داخلها وجهه. كما تتخذ معها ملامحه صفة الناسك في وقار وانكباب على شعائر وطقوس تحوله من عالم ما قبل وما بعد رمضان إلى عالم رحلة شخصية متميزة لنفسه وفؤاده. يحل المسك والعود بدل العطر الباريزي. يتفرغ لتعمير المسجد للصلاة الجماعية وصلاة التراويح. كذا للالتزام بتلاوة القرآن الكريم يوميا. أما اللباس فيصبح تقليديا صرفا بين باجدور ودراعية أو جلباب صيفي خفيف، خلال شهر الصيام الذي أتى هذه السنة في فصل الصيف.

يَقِلّ الذهاب إلى المرسم ويكثر التزام ما ذكر. لكنه ينضاف إلى تسطير برنامج خاص بالأنشطة لشهر رمضان الكريم.

أما رشيد علالي، صديقه في المرسم كما في الجمعية، فحضوره في إعداد الأنشطة قليل جدا. لكنه يحرص على مواكبتها وتسيير جلساتها كلما سنحت له الفرصة بذلك. هو العمل الجمعي إذا. قد لا تجد فيه إلا ثلاثة أو أربعة من بين سبعة أو تسعة أعضاء يسكرون ويسهرون ويشقون في تدبيره وتحضيره.

لقد التقط أحمد توفيق من مناقشاته مع صديقه سمير نهاري إشارات حول التدرج بالشخصية في الرقي والعلاج والتزكية. ولما طُرح خلال الاجتماع التحضيري موضوع الندوة حول تزكية النفس في شهر رمضان، بادر إلى اقتراح موضوع التسامي. دار نقاش معه حول المصطلح، لكنه حوِّله بذريعة عدم التخصص إلى اقتراح طبيب نفساني إلى جانب أحد العلماء من المجلس العلمي، في إشراكهما في تناول موضوع تزكية النفس.

وطبعا عدة علامات استفهام تزاخمت في ذهنه وشوشت تركيزه، ما جعله يُهاتف داخل الاجتماع صديقه سمير، ويستشيريه حول ما يريد اقتراحه كموضوع للندوة ومقاربة جامعة لها. وما كان من سمير إلا أن طلب منه بضعة دقائق لكي يعاود الاتصال به ويقترح صيغة ذكية ومناسبة، رأى فيها فرصة لاختبار التقاطعات والمفارقات الموجودة في تناول موضوع التسامي. هذه المرة ليس في ارتباط مع الإبداع فقط، ولكنها في ارتباط مع الرقي بالنفس الذي يأخذ بُعد التزكية في رمضان، ويُعد التوازن في المعالجة النفسية. هكذا اتفق أعضاء المكتب وارتاحوا لصيغة عنوان الندوة: "صيام رمضان، طريق للتزكية وتحقيق التوازن في شخصية الإنسان". أما التعاليق الساخرة بين الصديقين، فقد أُجِّلَتْ لما بعد.

بين الاجتماع التحضيري الذي تم قبل شهر رمضان بثلاثة أيام والندوة التي تمت في اليوم السابع منه، كان اتصال سمير بالدكتور حلیم السيد. بينما اتصل أحمد ومعه رشيد بالمجلس العلمي بمدينة الرباط. وهكذا تمت الندوة بالتاريخ المحدد، ولكن بإيعاز من الدكتور حلیم السيد واقتراح منه، كانت الندوة على الساعة الثالثة بعد الزوال وليس بعد صلاة التراويح.

وطبعا من بين الحضور والمدعوين كانت وفاء غانم وصديقتها لطيفة. حضرت كذلك سلمى السيد مع أبيها المشارك في الندوة، والسيدة سعاد التي جاء معها ابنها الأصغر حسن. أعضاء المرسم الأربعة كلهم جاؤوا، حتى سلوى العايدى.

جلس سمير نهاري في ركن قصي من القاعة. لم يرد أن يكون قبالة أستاذه في سلك الماستر والمشرف على بحثه. لكنه تسلح بعناده المتمثل في أوراق وقلم وآلة تصوير. أما شريط الفيديو للندوة فقد وعده أحمد توفيق بتسليمه نسخة منه. كل له تقريره وتسجيله. مهمة الجمعية ليست هي مهمة سمير نهاري، الطالب الجامعي والعضو في المجلس العالمي، فرع المغرب، للتسامي والإبداع. وفي تعليق خفيف وهامس وعابر، قال له أحمد توفيق قبل بداية الندوة: تبارك الله على التلميذ المجتهد والمهذب جدا. ردّ عليه سمير بخفة سريعة جدا: تبارك الله على الإمام ديانا.

كان التسيير من طرف أحمد توفيق. وكانت كتابة التقرير من طرف رشيد علالي. بينما كان المتدخلان، المحاضران في الندوة، وكما قدمهما أحمد:

- الطبيب الدكتور، العضو في الرابطة العالمية للعلاج النفسي الطبيعي، وفي المنتدى الدولي للتسامي والإبداع، السيد حلیم السيد، في مداخلة بعنوان: طرق التسامي بالنفس البشرية من أجل الحفاظ على التوازن الشخصي عند الإنسان.

- الفقيه العلامة، الأستاذ والدكتور الفاضل السيد حسن المامون، عضو رابطة علماء المغرب ومدير دار القرآن بالمدينة العتيقة الرباط، في مداخلة بعنوان: رمضان شهر العبادة والتزكية.

أُقيت الورقتان، وسجلت التقارير والتساؤلات والملاحظات، وكانت المناقشة جميلة وموفقة بين عالمين. حاول البعض استباق الفهم وإبراز الرأي وإقصاء آخر بتركيزه على الآية الكريمة: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)** . وطبعا الأجل في التعامل كان احتواء الدكتور حلیم السيد لثقافة يعلم تموقفها السلبي من مادة علم النفس والتحليل النفسي. لقد أبان سوء الفهم والتصورات الخاطئة التي تسود في العقول العادية حول الدراسات النفسية المعاصرة، وكيف كان للصراعات الإيديولوجية دور في تأجيج هذه الصورة السلبية والخطئة. أكد على أنه لا بد لنا من مسح واجهة الرؤيا لكي تكون سليمة وصحيحة.

** سورة الرعد الآية 28.

كانت الابتسامة التي ترافق الحركة والكلام وتصبغهما في لفظ كل حرف، وكان الارتكاز على آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة، من أجل تبيان الإشكال المحوري عند الإنسان، وحتى في الإيمان والاستقامة والانحراف وكل العناصر المتمركزة رجاها في النفس البشرية (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) من سورة الشمس. كانت الإشارة التاريخية لتاريخ الحمق والجنون الذي لم يخلُ منه أي مجتمع بدليل الحديث الشريف (رفع القلم عن ثلاث...). استنقاز بعض الحضور بضرورة التمييز بين قولنا مريض نفسيا أو مريض عقليا، وقولنا مجنون. ما أثار زوبعة في الصفوف ونقاشات ثنائية، احتاج معها أحمد توفيق بهدوئه وخجله ووقار لحيته أن يطلب من الجمهور الكريم الهدوء، حتى يترك للدكتور حليم السيد فرصة الشرح والتفسير، وهو في كل مرة يقفز ببصره إلى زاوية من القاعة يجلس فيها سمير نهاري المتابع بقلمه وورقه لمجريات الندوة. حتى إنه فكّر مع ما لاحظ، في إمكانية القيام والإنجاز لاستمارة حول هذه المصطلحات والاشتقاقات المفاهيمية المرتبطة بها عند الناس، لكنه أجلها ذهنيا .

أما التلميذة المجتهدة والمهذبة الأخرى، فقد كانت هي وفاء غانم. التزمت استقامة في جلستها وتركيزا على المنصة ببصرها، وعلى المداخلات والمناقشات بسمعها، ضامة يديها أمامها، مرة على صدرها ومرة فوق فخذها، لكن دون أن تزيل كف اليد اليمنى عن إطباقه فوق اليد اليسرى. وفي كل مرة تجد رسالة ابتسامات بينها وبين جالسي الصف الأمامي في قاعة المحاضرات، ومنهم سلمى السيد.

في تدخل السيدة سعاد خلال المناقشة، والذي استغرق خمس دقائق بدل ثلاثة المتفق عليها في اقتراح مسير الندوة، ركزت على موضوع الحب الإلهي والإبداع ودورهما في الرقي بالنفس البشرية وتحقيق الاطمئنان الروحي. أكدت على ضرورة الانتقال بفلسفة الدين والاعتقاد والعبادة والتوجيه السلوكي، من درجات الخوف إلى درجات الحب الإلهي المطلق. ما أثار حفيظة بعض الحضور ودعاهم في تعقيبهم إلى التساؤل عن هذا الحب بدون خوف، وعن طبيعة الإنسان السريعة التمرد والنسيان، مستشهدين بقوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21)- من سورة المعارج.

أثارهم رأيها كذلك حول الحمولة الخاطئة التي يجترها التاريخ الذهني العربي الإسلامي حول علم النفس والتحليل النفسي، وكيف يؤثر ذلك ويجعل الفرد لا يثق في دوره في العلاج والرقي بشخصيته وتحقيق توازنها. وهو ما اعتبرته حاجزا بين علوم العصر وتطور الفرد ومواكبته لها.

هكذا تفرعت المواضيع والإشكاليات داخل مجريات الندوة. حاول خلالها الدكتور حليم السيد جعل ثبات ووضوح في الرؤيا، ومنهجية مستقيمة في الالتزام بتحليل متوازن لا يجعل التناقض أو التعارض بقدر ما يحقق التوافق كأساس وسر للنجاح في الحياة. وهو في كل ذلك يراقب العيون المتابعة ويلمس بحدسه عطشها وظمأها المعرفي والنفسي. علاجها بلسم ابتسامة وكلام بسيط وواضح يزيح التناقض ويخلق التوافق والتوازن.

ردود الأستاذ حسن المامون كانت ملتزمة بالخط الفقهي الذي يرسم أفق الاعتقاد وطريق الاجتهاد وأسلوب التفكير. بين على أن هذا الإنسان فعلا يحتاج إلى الحب الإلهي. لكنه في واقعية منطلقة من النفس الحيوانية عنده يحتاج إلى تربية لهذه النفس على الخوف أولا. أعطى المثال بالطفل الصغير الذي يريد أن يجرب اللمس. حينما تقول له لكي يبتعد عن مادة ساخنة وحامية، تقول له : (تشّا). ينتبه ويبتعد مترددا محاولا معاودة اللمس لشيء سيؤذيهِ طبعاً. هذا الخوف تربية كما جاء على لسانه.

التفت الدكتور حليم السيد مبتسماً ومتابعاً لاستشهادات الدكتور حسن المامون وهو يستدل ويستعين بتحليل الإمام أبي حامد الغزالي لمراتب النفس البشرية ومدارج تهذيبها. بينما حضرت جملة في ذهن القاعة: اتسعت الرؤية وضاقَت العبارة. مستوحاة من قول النفري في كتابه (المواقف والمخاطبات). قد يكون شاعر أو شاعرة، هذا الملتقط للعبارة. لا، لقد كانت السيدة سعاد صاحبتهأ. أعلنت بها، وصرحت بها، واستعانت بها في التعقيبات الأخيرة التي انحصرت بين سبعة أفراد تقريباً، من ضمنهم المحاضرين طبعاً.

أما ذهن وفاء، فقد كان يلتقط ويؤجل تفاعلاته الشخصية إلى لحظات سفره الوجداني اللازوردي خلال سؤال الليل الصيفي هذا في شهر يوليو الذي صادف شهر رمضان الكريم.

انتهت الندوة حوالي الساعة السادسة والنصف. تخللتها عشرون دقيقة لأداء صلاة العصر. ولمدة ثلاث ساعات تقريباً، تبين للجمهور أن رمضان فعلاً شهر يتسامى بالثقافة والفكر،

كما يشتغل عليهما بنهم واهتمام وتركيز أكبر. ذلك كان آخر قول المسير قبل أن يشكر المتدخلين كما الحضور الكريم وينهي اللقاء. بينما سمير نهاري لم يُرد أن ينهيه بما قاله صديقه المسير. اختار أن يسجل في خلفية آخر صفحة كتبها عبارة متسائلة خارج السياق المباشر طبعا: ماذا عن السياسة وتدبير الغرائز البشرية؟

وقد كانت فرصة سمير كذلك لكي يعطي ظرفا مغلقا جديدا يتضمن تقريرا حول موضوع ومقال وفاء غانم الذي تلقته السيدة سعاد، والذي تم نشره بجريدة يومية وطنية خلال مجريات نفس الأسبوع الذي تمت فيه الندوة. كان موضوع المقال الذي أحاطه التقرير هو (اللباس كثقافة للجسد)، والذي ناب عن العنوان الأصلي الأول: العري الجسدي. أهذه الدرجة نهاب كلمة العري الجسدي؟ تساؤل رافق ابتسامات سمير وهو يفكر في الموضوع.

وكانت الرحلة التي اخترقت أفاقا حاملة جديدة. كما اخترقت تحديات نفسية اتخذتها وفاء غانم مع ذاتها، دون تقرير نهائي لنوعها كمغامرة. كأنها قدرٌ روحي امتلك دواخلها فوجَّهها مثل مسكونة بصوت آخر وشبح آخر. تدرك أنها لو عرضت حالتها على عامة المجتمع لقالوا مجنونة أو مسكونة بجن يقودها إلى جن آخر يسكن ذاتا أخرى. كأن الجن يتمثلون الحياة البشرية ويقومون بعلاقاتهم عبرها، أو يحققون حياتهم ماديا وبشكل ملموس فيها. لكنها التقطت إشارة الدكتور حلیم السيد في محاضرة رمضان الفارط. وها هي الآن في السادس من غشت تستحضرها.

في هذا الأربعاء، منتصف هذا الأسبوع، من هذا الشهر الذي ليس كغيره، والذي تتكرر فيه أيام الجمعة والسبت والأحد خمس مرات. وهي ظاهرة الجيوب الفضية التي لا تتكرر إلا كل 823 عاما. تستغرق فيها السنة 365 يوما وخمس ساعات و11 ثانية كما أشار إلى ذلك الجيوفزيائيون. والصينيون يجعلونها للاحتفال والفأل والرزق.

لكن وفاء تدق بها أجراس الزمن لكي توظف الأرواح الساكنة فيه خلودا مع الوجود. رحلتها كانت في كوكب ذهني تجر حبل الزمن فيه، رغم أنها داخل سيارة رباعية الدفع، في قافلة من

ثلاث سيارات. الوجهة ضيعة (امباركة) المنبسطة على سفوح جبال الأطلس المتوسط، في منحدر أسفل مدينة أزرو حيث الوهاد التي تتلو الهضاب وتحضنها اعتراشا لها، متموجة في تضاريس خضراء عذراء، تلتقط مفاتن فستانها من موقع (منظر يطو) في الطريق بين مدينتي الحاجب وأزرو، قبل أن تنزل منحرجات مؤدية إلى قلب الصخرة أزرو، خاتم توقيع ونصب الطبيعة المختلفة بالساكنة القارة وبالناس العابرين.

ماذا ستسميها باخضرار غاباتها وقرميدها الأخضر والأحمر المؤنث لسقوفها وسطوحها؟ تفاحة الأطس؟ وماذا ستترك لمدينة ميدلت لكي تحتفل به إن هي لقت أزرو بالتفاحة؟ لكنها تفاحة فعلا، وقلب نابض بالعشق للجبال والاستنشاق الصحي للهواء النقي، والارتواء بماء زلال بطعمه وبرودته. أزرو استئناس بعد استيحاش في الطبيعية. لكنها الآن منطقة عبور. ذلك أن قافلة السفر المشكّلة من أسرة حليم السيد، وأسرة المهندس السيد عماد، والسيدة سعاد باحسين، وسيارة الشباب التي تضم أبناء السيدة سعاد وكذا سلمى السيد وسلوى العايدي، كانت متجهة إلى الضيعة في طريق خنيفرة وقرية سيدي عدي. علما أن القرية الأصل (تيمليت) تبعد بحوالي الثلاثين كيلومترا عن مدينة أزرو، وحوالي الستة عشر كيلومترا عن الضيعة. ربما تبعد بخمسة وعشرين كيلومترا عن أزرو. هكذا اشتغل ذهنها الرياضي في تقديراته السريعة وفي احتمالاته الظنية. هكذا أخذت نفسا صاعدا مع آفة النسيان الملازمة للإنسان كشبح ساخر من ذاكرته ووجوده.

في كل غفوة يسافر بصرها داخليا لكي يجول في نقطة زرقاء يرسمها البريق المنعكس على جفونها الأرجوانية في انغلاقها.

تركز مع لألتها ولمعانها ومع انعكاس أشعة الشمس المخترقة لستائرهما، كأنها ملاكها المرافق لها في هذا السهر، لكن محاورته تؤجل لانسدال الليل ووميض ثرياه. خصوصا وأنها أيام التشريق القريبة جدا. فكيف سيكون المحاور والتحاور في سياق زمكاني جديد؟ داخل ضيعة (امباركة)؟

هي رحلة سفرية لأربعة أيام إذاً، حتى يوم الأحد. لا تعلم مفاجأتها. لكن قلبها يزداد في نبضه وإسماعها لإيقاعه ولغته المشاعرية. جاءها هذا الشعور في ليلة سفرها أولاً، حيث اختلط مع هدير الأمواج، فكان سمفونية غريبة اخترقت عالمها الداخلي خلال النوم. الأمواج هدير آلات كمان وأورغ وساكسوفون وكورديون، والقلب في نبض طبل أو طامطام، يوزع ضرباته بخلاف إيقاع الجسد. قد يكون مواكبا لذلك الذي يحدثه المد والجزر على امتداد رمل ساحلي منحني خجلا ووجلا لعظمة البحر ورسائله الوجودية والطبيعية.

هكذا حطت رحالها بمكونات فرقته السمفونية الداخلية وسط ضيعة (امباركة) الممتدة على ثلاثة هكتارات، والمحاذية لسفح جبلي تطل عليه أشجار الأرز والصنوبر من جهة جبل (عيشة مباركة ومنطقة عين خرزوزة). تُسائل وفاء التسميتين حول من يبارك الآخر، الضيعة أو الجبل. لم تصدق سحر المكان الذي أغراها، كما أغرى المرافقين لها في الرحلة. أشجار فواكه التفاح والخوخ والإجاص وحب الملوك بغلالها المثقلة والمدنية لأغصانها، واختراق ساقية طبيعية كبيرة ورقراقه ومتعطشة في جريانها لوهب الحياة. يعطي معها الماء حركة ولغة معبرة للمكان، حيث لا خلق يقاوم عيونه، جاذبٌ لكل من أجل جرعة وقطرة منه، فما بألنا بالتعطش لجرعة حياة حقيقية

وطبيعية. حتى إن وفاء شعرت بخفة في نبضها وجريان شرايينها. حتى إنها استحضرت إيقاع الرقص الأطلسي السريع، وإيقاع موسيقاه، وتماوجات الجسد والأيدي معه في أخذ وردّ، استنتجت معه على أن عالمها الذي أتت منه ليس هو الوحيد في العالم المستحق للعيش.

هناك عوالم متعددة وحقائق متعددة، وجماليات متعددة، كما أشكال تحرر متعددة. (يااااه! سبحان الله. كل بلاد وعجائبها). (لولا الرقص لما كان هناك إيقاع حياة). استنتجت كل هذا وهي تُزِيل، بفرحة منتشية بروح الرقص التي تسكن الفؤاد فتشربقه لعالم وجداني وجسّي جديدين، حذاءها الصيفي، حافية القدمين، معانقة لعريهما بتراب الضيعة وساقبتها الباردة والجارية. كانت الابتسامات والفرحة لدواخلها قبل محيطها وقبل العالم الخارجي الذي قد يقاسمها شعورها أو لا يفعل ذلك. صرخات الطفلة بداخلها قد انفجرت حين ملامسة الماء العذب والبارد للساقية، وحين ارتداد رشات على أطرافها وصفحة وجهها، في عملية اختراق لِيَمِّه. ها هي تعانق أشعة الشمس في جبال الأطلس وهواءها النقي الجديد عليها. وطبعاً عالم الرطوبة الساحلية ليس هو عالم المناخ القاري الداخلي لبلاد المغرب الكبيرة. هي لا تدري لماذا أتاها شعور بحضور روح أطلننتيس الغابرة حين تبلل ثيابها وإحساسها بأن الماء الجارف يريد أخذها معه.

قاسمها وشاركها الشباب فرحتها ورقصتها المائية. لكنهم سرعان ما ارتجفوا جميعاً أمام أنظار المرافقين الآخرين، واحتاجوا لتغيير ثيابهم والرجوع إلى مائدة استقبال وقرى

وُضعت على شرفهم، تحت ظلال دالية عنب ممتدة، أمام الباب الرئيسي للمنزل الفسيح في قلب ضيعة (امباركة).

كانت صينية براد شاي كبير، وكؤوسه المزينة والمزخرفة بخواتم مزركشة مستديرة بالأحمر والأخضر... مناديل مطرزة وطاولتان مستديرتان عليهما فرشت أثواب وفوقها أطباق متنوعة بين زبد وعسل وتمر ولوز وجوز وأكلة حرشة ومسمّن. فطور بلدي بامتياز، تَحَفَّظ البعض في تناوله. لكن إلحاح أهل الدار والسيدة سعاد جعلهم يفتحون شهيتهم بنهم. (لا تخافوا. الأكل هنا يهضم بشكل طبيعي. والهواء والماء يفتحان شهية كبيرة جدا. لا حَمِيَة نحتاجها هنا).

هكذا انخرط الكل في الجلسة الدائرية والترحاب والبسط والاندماج في عالم جديد. فاجأتهم السيدة سعاد وكأنها قد وضبت كل شيء قبل مجيئهم بقولها:

- هذه الليلة سيكون حفل أحيديوس في ساحة الجموع القريبة من الضيعة. الحمد لله أن البدر بدأ في استعداده للاستدارة والمشاركة والسهر على حفلنا. ربما سيحضر أخي (الحسين) لرقصة أحيديوس، فهي ملهمته ومعشوقته في هذا الوجود. هي مناسبة لتتعرفوا عليه. ولو أن السيد حلیم السيد سبق له أن تعرف وتكلم معه.

احمرّ خدّاهَا وازداد نبضها. كان ذلك الحلم إذا. تلك السمفونية التي اشتركت الطبيعة والذات في تحضيرها وعزفها. كانت فكرة عند وفاء. مجرد تخمين وافتراس. كأنها اليوم قد جاءت لقدر جديد وتحديّ ليست مستعدة له بالتأكيد. الطبول زاد دويّها في دواخلها، والآلات ناب خريير المياه عنها في توزيع موسيقاها الداخلية. انهمكت على وجبة القرى ضاغطة على ضغطها. تناست الشعور في تلك اللحظة مغيبة له بتبادل الحوار والبسمات والنكات مع الجمع داخل الضيعة.

اثنان، اثنان، ثلاثة، ثلاثة. أربعة غرف هي الطابق العلوي للمنزل. تتزين بزرابي أطلسية مغربية، أرضيتها حمراء وزرقتها بألوان الحياة. فرش رقيقة وحنابل صوف سمكة تكسوها خطوط بارزة ومزينة لها بحسب لون الحبل، حيث الأبيض يخترقه الأسود، والأحمر يخترقه الأصفر، والأصفر يخترقه الأسود، والأزرق يخترقه الأبيض، والأخضر يخترقه مرة الأبيض ومرة الأرجواني المفتوح.

كانت الوجبة على الساعة الثالثة بعد الزوال. هي تلك الساعة الصيفية التي فرقت الأذهان بين التزامها مهنيا وتعهد عدم التقيد بها ثقافيا، خصوصا وأن مواقيت الصلاة ترتبط بها ثقافات وعادات، ومنها وجبتا الغداء والعشاء. يعيش المغاربة معها زمنين ثقافيين وسلوكيين. كل ذلك من أجل الاعتبار الاقتصادية الدولية وكذا تفسيرات الحفاظ على الطاقة. ينضاف سفر هذا الصباح، ومائدة الضيافة والاستقبال (القرى). أما سيدات المنزل فعملهن هو بالتوقيت القديم، لا يعتمدن ولا يعتبرن إضافة ساعة لا في برنامجهن اليومي ولا في تصويب

عقارب الساعة الحائطية. هذا التبديل جعل تناول الغداء بشكل خفيف عند بعضهم، رغم إلحاح أهل الدار وحثهم بالأيمان على الأكل.

كان أول المغادرين لمائدة الغداء الشباب. تعليق بعضهم على الآخر أمام الحضور: سأخذ تقاحة ووجبة فايسبوك الآن، لتردّ سلمى: التويتير أفضل.

لم تفهم نساء المنزل ما يدور من كلام. لكنهن على العموم تركنه لصفة أهل المدينة ولغتهم الغريبة. هكذا رافقت وفاء شريكتيها في الغرفة، سلمى وسلوى:

- لا بد من تغميضة. أشارت وفاء.

- أكيد، أضافت سلوى. لكن بعد رحلة رسائل إلكترونية عبر الهاتف. سأرسل صور الرحلة لهذا اليوم عبر الطريق وفي الضيعة إلى مشاغي المرسم.

أما سلمى، فكانت قد بدأت في مكالمة صديقتها رانيا بمجرد انسحاب الثلاثة من مائدة الغداء.

هي ضيعة عم السيدة سعاد. المرحوم السي علي باصليح. برلماني سابق، ورئيس جماعة قروية لمرحلتين. كذا عضو سابق في مجلس الجهة والغرفة الفلاحية. رغم تلك المناصب والمهام، فقد كان تواجهه بالعاصمة الرباط يأخذ منه أياما كثيرة خلال السنة. صلته كانت نافذة، وتأسيس حزب أو رسم خريطة انتخابية أو تعيين في مناصب مسؤولية جديدة بمنطقته، يكون له فيها رأي ومشورة وتقاطع مع مصالحه في دائرته، بالعاصمة الرباط.

لا يدري الناس، من عامتهم أو من مثقفهم، سرّ هذا النجاح وهذه الثروة. كأن جبال الأطلس غريبة عنهم لا تفتح أسرارها لهم في عقاب وجودي، أو هي قارة لم تكتشف بعد وخريطة سرية لكنوز لا يتوفر عليها إلا أصحاب الحال. لا زالت ملكية منفعة منجمين لمعادن نفيسة تحت تصرف أسرته. إضافة إلى ثلاثة مقالع للرمال والأحجار. أما ضيعة (امباركة)، فهي أصغر أربع ضيعات في ملكية العائلة. وهي الضيعة التي توضع تحت تصرف العائلة الكبيرة لاستضافتها وإقامتها خلال العطل والمناسبات التي يختارونها.

في طريقه إلى العاصمة الرباط، انفجرت عجلة أمامية. لسوء الحظ توفي العم المرحوم سي علي باصليح. بينما نجا السائق بأعجوبة، رغم الجروح البليغة التي خلفها الحادث على جسده وأطرافه. كان السبب هو السرعة المفرطة التي اضطرتها

لكي يصل إلى اجتماع بالرباط في أقرب وقت ممكن. السيارة فارهة وخارج التصنيف من نوع مرسيدس، لكن الطريق منحرجات ومغامرة مفاجآت. تلك حوادث السير بالمغرب التي تحصد أرواحا بالآلاف كل سنة. لا تميز عليّة القوم من دونهم.

كان خبر الحادثة قويا بدويّه في المنطقة وعلى ذويه كذلك. لم يصدق البعض ولم يستسغ موت صاحب نفوذ وجاه وسلطة على النفوس كما على المصالح والسياسة. كثرت التأويلات، وصرّف كل واحد روايته بما يراه طريقة لتفسير وغموض الثروة والجاه والسلطة، وتعويضاً عن خصائص المقارنة التي يخلقها هذا البون الطبقي وذلك الخوف المتسلط بين أعيان في رغد العيش وساكنة تقاوم لأجل ضروريات العيش والسكن والعلاج وحطب التدفئة لموسم الثلوج القارس في برودته.

حينما اعتقل (الحسين باصليح)، لم يكن العم بهذا النفوذ والمال. صحيح أن العائلة كانت تمتلك جنانا واستغلالاً لبيع الفحم والخشب. لكن هذا الامتداد الجديد بقي علامة تعجب واستفهام حتى عند المعتقل السابق الذي عاد لأقربيه. لقد كانت قضيته التي دافع عنها، ومبادئه التي تشبث بها، في مفارقة غرائبية لصيرورة عمه المتوفى. حتى بعد إطلاق سراحه و(العفو) عنه، الذي يضعه بين قوسين، كان يقبل الذهاب إلى منزل عمومته بالقرية.

لكن، وبالمقابل، يرفض زيارة أية ممتلكات مرتبطة بها. كل الحيل الصامته قامت من أجل إسقاط معادلاته، لكنه بقي منتبها وحذرا منها. أما بالنسبة للجنازة التي حضرتها شخصيات بارزة من العاصمة الرباط، ومن عالم البرلمان، فقد تمت

بالقرية، موطن القبيلة والفخدة والعظم، والدائرة الانتخابية الأم التي سطع نجم المرحوم فيها. لذلك فتواجد (الحسين باصليح) في الجنازة لم يكلفه التنازل عن معادلته. وخلالها بادر بعض الحضور من الرباط والإقليم لأخذ صور تذكارية معه بهواتفهم المحمولة.

لم يرفض توددهم ولا طلبهم، لكنه قام بمراجعة كل ذلك في دواخله فيما بعد، وكان ذلك مثل دوامة وبلاعة تحفر في الأعماق أو مثل زوبعة تتشكل لخليط الرياح لتعطي إعصارا يخرق بفضحه أعماق الأرض آفاق السماء. في كل ذلك وخلال الجنازة، كانت السيدة سعاد تتابع المشاهد وتذرف الدموع الأسيية على عمها المتوفى وكذا على ما تفسر به نفسية أخيها، حيث تحس مشاعره وما تنزوع به وتؤول إليه.

لقد شعر باستسهاله كورقة وكذكري وكبطاقة تاريخية، كتجاهل لقضيته التي هي من قضية وطنه ومبادئه. ساءل نفسه: من هؤلاء؟ أجابه ريح مخترق نافذة غرفته بمنزله بالقرية: مستفيدون جدد. تابع خطابه: ألهذا الحد أصبح المعتقل السياسي ديكورا داخل مجتمع لم يرتب تاريخه ولا أوراقه ولا مصالحه؟

السيدة سعاد الأطلسية، ليست هي السيدة سعاد الرباطية، سيدة المدينة. هكذا كانت جلسة الغروب المقابلة لأفق ممتد بين قمم الأطلس المنحدرة فوق أجمة ضيعات الفواكه بمنطقة (حراشة)، إلى هضبة أدروش البعيدة في الرؤية من زاوية ضيعة (امباركة). في الخلف منطقة (عين خرزوزة) الغابوية التي تستضيف أطفال المخيمات. وفي الطريق إليها إطلالة عيشة امباركة القريبة في الرؤية من سطح المنزل. الغابة ساكنة بخلائقها وهيبتها والمنبسط مجال الحلم الواعد بغد تأتي به السماء من عليائها. وبينهما قلب نساء المنزل الذي فتح بوابة شجونه، فكان لهن نصيب البوح والكلمة في هذه الجلسة المسائية قبل الغروب.

أوراق الشجر قد شكّلتها الشمس بألوان ممزوجة بين بنفسجية مغلوقة ذاهبة إلى سواد، وبين أرجوانية مختزقة بأشعة حمراء فاتحة، يبدو أنها تحالفت مع عليل الرياح لكي تراقص فسائين الأغصان وتسحر العيون بأوبيرا طبيعية فاتنة. لكن السماء كان لها سحرها الذي يطبعه خاتم البدر اللجيني المستعد لسهرة أحيديوس قبل أصحاب الحال.

بعض نساء المنزل، ومنهن زوجة عم السيدة سعاد (بذّة يطوبان)، فتحن ملف الفؤاد قبل أوان السهرة. ما دامت لا

تستطعن الذهاب لمكانها وساحتها البعيدة عن المنزل نسيبا. وتكتفين بسماع إنشادها وإيقاعها من شرفته أو سطحه. أيام العز التي عاشتها السيدة بدة، وعدد الضيوف الذين استقبلهم منزل (سي علي باصليح). تلك الحفلات التي كانت تقام حتى مطلع الفجر وأطباق المأكولات والشواء. يوم كانت تتناوب جل فرق الغناء والرقص، وحتى تلك التي تأتي من خنيفة أو مريرت. كبار المغنين والمنشدين جاؤوا إلى هنا وذهبوا منعمين مغدق عليهم بالخير الوفير... القدر لا يعرف غنيا ولا فقيرا. الكل زائل (ربي كبير عنده الحكمة والحمد لله).

لكن السيدة (بدة) لم ترد أن تكون جلستها لهمومها. فالضيوف ضيوفها. مازجت بين هذا الحنين وبين الترحاب والتذكير بجمالية العيش في هذا المكان. شوّقت السيدات الحاضرات لمجموعة من مفاتنه وأسراره، حتى إنهن تمنين أن تكفيهن الثلاثة أيام المتبقية لكي يتعرفن عليها.

ارتدت السيدة سعاد فستانا أبيض فضفاضا يصل إلى قدميها وينسدل على نصف ذراعيها. حيث اعتمدت واستعملت (مجدولا) أحمر مزينا ب(الموزون) في تشمير تلايبب كُمّي الفستان، في استدارة على ظهرها وتفارق بين كتفيها وحول عنقها لينتصف أسفل صدرها حيث رسم نصف دائرتين تحت نهديها العامرتين داخل الفستان الأبيض. فيما شعرها ارتمى إلى الوراء خلف فولار أصفر مزين هو الآخر على جنباته بخيوط صوف بالأسود والأحمر والأبيض وبذلك الموزون اللامع والناصع في انعكاسه اللجيني أصلا أو المتلون مع الأضواء. الأمر الذي جعل استدارته الأمامية على جبهتها مغرية ومسترجعة حلتها الشبابية كطفلة صغيرة، وكان ذلك

مُرَغِبًا لِسُلْمَى وَسُلُوى فِي زِي أَطْلَسِي أَمَازِيغِي. سَاعَدْتُهُمَا سِيدَاتِ الْمَنْزَلِ عَلَى تَحْقِيقِهِ، وَلَكِنْ بِالْبَسَةِ عَادِيَةِ الثَّوْبِ زَادَتْ مِنْ إِثَارَةِ أَنْوُثْتُهُمَا دَاخِلَ شَكْلِ أَحْرَشٍ وَغَرِيبِ خَاطِبِهِ بَدْنُهُمَا بِقَشْعَرِيرَاتٍ وَضَحَكَاتٍ مَبْتَسِمَةٍ وَمَنْقَطَعَةٍ حِينَ ارْتِدَائِهِمَا لِلْبَاسِ الْأَخْضَرَ وَالْأَبْيَضَ بِالنِّسْبَةِ لِسُلْمَى، وَالْأَصْفَرَ وَالْأَسْوَدَ بِالنِّسْبَةِ لِسُلُوى. رَغِبْنَا فِي نَفْسِ مَجْدُولِ السَّيِّدَةِ سَعَادٍ وَتَشْمِيرَتِهَا. وَكَذَلِكَ كَانَ التَّقَاطُ الصُّورِ الْمُتَعَدِّدَةِ بِأَجْهَازَةِ الْآيْفُونِ سَبَاقًا فِي الْإِحْتِقَالِ. رُبَّمَا وَصَلَتْ الصُّورُ إِلَى مَنَاطِقٍ وَمَدَنٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الضَّيْعَةِ قَبْلَ قِيَامِهِمْ مِنْ جَلِيسَتِهِنَّ النَّسَائِيَّةِ.

هَآ هُنَّ ثَلَاثُ أَطْلَسِيَّاتٍ اسْتَعَدَدْنَ لِأَمْسِيَةِ أَحْيِدُوسٍ. أَمَا الْآنَسَةُ وَفَاءُ وَالسَّيِّدَةُ أُسِيَّةٌ، فَلَمْ تُلْحَا عَلَى شَيْءٍ مِمَّا تَلَّ. اِكْتَفَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ بِجَلْبَابِهَا الصَّيْفِيِّ. فَقَطُّ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الشَّرِيبِلِينَ الَّذِينَ أُهْدِيَا لَهُمَا مِنْ طَرَفِ السَّيِّدَةِ بَدَّةً. وَكَانَ التَّوْقِيعُ اللَّامِعُ لِلْمُؤْرُونَ^{††} حَاضِرًا فَوْقَ مَنْبَسَطِ الْقَدَمِينَ عِنْدَهُمَا كَذَلِكَ. اللَّهُمَّ الْحِنَاءُ الَّتِي جَعَلْتَهَا السَّيِّدَةَ سَعَادَ خَطَا جَانِبِيَا عَلَى أَسْفَلِ صَدْغِيهَا مَخْتَرِقًا خَدَّيْهَا، لَمْ تَقْمِ الْأَخْرِيَّاتِ بِوَضْعِهِ كَزِينَةٍ. تَوَجَّسُ مِنْ طَقْسٍ غَرِيبٍ وَعَدَمِ مَعْرِفَةٍ بِهِ مِنْ قَبْلِ.

جَلِيسَةُ الْغُرُوبِ غَابَ عَنْهَا الرِّجَالُ إِذْنًا. فَقَدْ خَرَجُوا فِي جَوْلَتِهِمْ بِمَدِينَةِ أَزْرُوٍ وَاقْتِنَاءِ أَغْرَاضٍ مُتَنَوِّعَةٍ. إِنَّمَا اللَّقَاءُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ.

كَانَ إِنْصَاتِ السَّيِّدَةِ سَعَادٍ لِلْسَّيِّدَةِ بَدَّةً مُتَوَاصِلًا، رَغْمَ انْشِغَالِ الْأَخْرِيَّاتِ بِمَوَاضِعٍ مُخْتَلَفَةٍ تَتَدَاخَلُ فِيهَا الْأَصْوَاتُ بَعْضُ الْأَحْيَانِ حَتَّى تَجِدَ إِحْدَاهُنَّ فِي مَشَقَّةٍ مُتَابِعَةٍ أُخْرَى. كَانَتْ

†† حَزَامٌ بِضَفَائِرٍ صُوفِيَّةٍ مَزْرُكْتِشَةَ الْأَلْوَانِ وَمَرْصَعَةً بِضَفَائِحٍ رَقِيقَةً لَامِعَةً وَمَنْعَكِسَةً مَعَ الضُّوْءِ.

الحوارات كخيوط متشابكة، ولكن داخلها كان صوت السيدة بدة مليئاً بالشجن وسرد رحلة العواطف خلال هذه السنة المنصرمة وما قبلها حاضر كذلك. والسيدة سعاد تدرك بحدسها أن بوحها مرده عدم القدرة على حضور حفلة أحيديوس، وأن رقصته تفرغ للأحزان وفرح بالمسرات وتواصل ولقاء مع الأهل والأحباب.

الكبار يخلدون الأمجاد. والصغار والشباب يتطلعون للحياة من خلال المشاركة في هذا الحفل. الانشغالات اليومية بالرعي والفلاحة وشؤون الحياة التي أصبحت معقدة بين البادية والمدينة، جعلت التواصل بين الأفراد قليلاً، وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة. تشتكي السيدة بدة في كل هذا وتُذَكِّر بعدم رؤية ابنها هشام لمدة عشرة أيام وهو قريب منها في اصطيف بمدينة إفران. أما صالح فتأخذه الجماعة القروية في تسييرها كرئيس لها، ولا تراه إلا مارةً لتحياتها بالضيعة في عجلة من أمره، بالكاد يشرب معها كأس شاي أو يتناول نادراً وجبة غداء. بناتها الثلاثة تزوجن ولا تراهن إلا لثلاث أو أربع مرات في السنة: ما فائدة هذا النعيم في غياب الأحباب؟

تغرورق عيناها وتمسحهما بمنديل، ما أثار الجالسات ودعاهن للصمت واحترام لحظة مؤثرة ومعبرة. لَوْنَتْها السيدة سعاد بابتسامة ورّبت على كتفي زوجة عمها واحتضان وتقويل لرأسها ويديها ومواساة في الماضي ودعوة للحمد والفرح بما هو حاضر: الحمد لله كل واحد في مشوار حياة ومستقر فيها. المهم الصحة والسلامة أ أمي بدة.

- أنت على صواب آ لآلة سعاد. ما حرمنآ الله من زيارتك
ومجيئك عندنا. إنك تدخلين فرحا على قلبي كلما أخبرتني
بزيارتك لي في كل مناسبة.

الوصول إلى الساحة اتخذ مسلكا بين الضيعات. طريق متربة، استغرقت خمس عشرة دقيقة. كان التحاق مجموعة الذكور التي زارت مدينة أزرو حوالي الساعة الثامنة والنصف ليلا. وكان هذا الالتحاق مرفوقا بالسيد هشام باصليح الذي أتى من مدينة إفران لحضور الحفل وملاقة الضيوف. صداقته مع المهندس عماد الغالي تغار منها السيدة سعاد. وصداقته لأبنائها الثلاثة تشفع له في كل تلك الخرجات التي تستغرقهم ساعات وساعات، سواء بالرباط أو بأزرو أو بالقرية تيمليت.

في كل مناسبة تُحاكمهما بابتسامة ومرافعة غنجة ومدللة:

- لو كنت أعلم أنكما ستسرقان بعضكما مني لكنت اكتفيت بابن عمي في الزواج، ولم أكن لأتعرّف على السيد المهندس، رغم أن ابن عمي يصغرني سنا. أتساءل: ما الذي يجعلكما كعصابة؟ وكيف لا تخاف السيدة رشيدة على وسامة زوجها هشام وتتركه يصول ويجول؟ كم عزيز على الفتيات اصطياد المتزوجين، كما غنت (نجاة اعتابو: شوفي غيره).

- الأشغال والصفقات يا ابنة عمي ومهام مؤسساتية أخرى. وكذلك تسيير ممتلكات الأسرة والعائلة.

- لنفترض هذا، والمهندس، ماذا يفعل بجوارك في هذا التيه؟

- زوجك العزيز عَليّ - هههه - خبير الدراسات والصفقات ومفتاح الإدارات والشخصيات بالرباط. لا يمكنني الاستغناء عن هذا الكنز الكبير وعن مشاوراته.

- طيب. اجعلوا توأمة بين أزرو والجديدة، ستنفعكما.

- إنها قائمة بالفعل. يجيب المهندس ضاحكا.

- لذلك تدعوان بعضكما دون علم مني. وأنت يا هشام، كيف تأتي إلى الرباط ولا تزور بنت عمك؟ حرام عليك.

- والله يا بنت عمي لا نجد الوقت للراحة. إنه تعب وراء تعب. ولكي نُقنع ونُرتب ونُصفي دراسة أو صفقة، لا بد لنا أن نقيم دعوات غداء أو عشاء، رغم أنها تكلفنا كثيرا. تصوري، أن مشروعنا ما، لكي تتم المصادقة عليه وتسريع عملية تمويله، لا بد له من كل هذه الدبلوماسية، وإلا بدل ستة أشهر، يأخذ منا عامين في الانتظار والتحقيق.

- لكنكم تربعون من ورائها. تعلق السيدة سعاد وعيناها مركزتان على رد فعل زوجها الجالس في المقعد الأمامي بجوار هشام باصليح ابن عمها في سيارته رباعية الدفع الجديدة والفاخرة.

كانت سيارة السيد هشام في مقدمة القافلة التي أبقّت على العدد ثلاثة. ذلك أن المكان موحش وغريب على ضيوف مدينة الرباط، ما فرض على الكبار جعل الشباب برفقتهم حتى لا يتيهوا ليلا. ابن خال السيدة سعاد رافقه أبناؤها في سيارته الكبيرة التي أتت محملة بلوازم الحفل (أحيدوس). أما السيد حليم فقد رافقته زوجته وسلمى وسلوى والأنسة وفاء غانم.

مجال منبسط وممتد مع أضواء السيارات، بحيث إن العيون تستطيع أن ترى شساعته واعشيشابه. حتى الظل يتخذ أشكالا حية بالليل. يصبح مثل كائن أسطوري متحرك مع فلتات الضوء. خصوصا وأن القمر ينوب هذه الليلة عن الشمس في قراءة تضاريس هذا المجال. فالجبل يبدو شامخا بأجمته الغابوية الممتدة على صدره السرمدى الخالد الساكن في سواد الليل. كما يبدو المنحدر المؤدى إلى سفح الساحة خاليا من الأشجار. إلا ما كان من بعض الصخور والشجيرات الملتفة حولها بأعشاب ونباتات قصيرة. ينعكس ضوء القمر اللجيني على كل هذه الأحجام، فيعطي لوحته المشكّلة والبديعة.

حياة وحركة أخرى تكون ليلا، وأصوات نادرة تخترق ثوب صمته. وقبل ذلك بدت خيام عصرية، مربعة ومقبة بلونها الأبيض، مائلة ومتراصة في صف واحد، جعل من خلفيتها الداخلية جدارا مزركشا بأقواس رقيقة وعمودية بين الأخضر والأحمر، وعلى جنباتها تدلت أطراف تلايبها من جهتين، لتتخذ شكل منصة للجلوس ومتابعة المشاهد الأمامية.

حين نزوله من السيارة سألته السيدة سعاد:

- أين هي الخزانة الكبيرة؟

أجابها السيد هشام وفسّر لها سبب اعتماد هذه الخيام العصرية بدل الخزانة الكبيرة للجماعة القروية. فقد كان ممون الحفلات الذي تتعاقد معه الجماعة كل مرة هو صاحب الاقتراح. وبحكم ضيق الوقت في الإعداد للحفل، فقد ارتأى اعتماد هذه الخيام العصرية. لكنها جميلة في منظرها وشساعة فضائها الداخلي، كما علقت السيدة سعاد.

اتقدت نار وسط الساحة، وأعطت رقصة متصاعدة في لهيبتها. كانت معها هي شمس الساحة المضيئة في هذا الليل الساكن.

سحر الليل عجيب، والخوف من مجهوله غريب. بدا ذلك في شكل جلوس الضيوف واحدا بجانب آخر، ملتحي الأكتاف، ومحافظين على ابتسامة وتبادل كلام خافت، إلا ما كان من السيدة سعاد. فقد كانت مع ابن عمها، وسُمعت ضحكاتها عالية وهو يشير حين كلامه معها جهة المنصة: يبدو أن ضيوفك قد بدؤوا بتراص من أجل رقصة أحيديوس. ألا تلاحظين ارتباكهم كتلامذة مجتهدين؟ واستمر الاثنان في جولتهما وتفقد مستلزمات الساحة والحفل.

كانت كؤوس الشاي موزعة، وأطباق اللوز تتبعها. في الخدمة شباب بجلايب بيضاء عمائم رقيقة بيضاء كذلك.

في زاوية من الجلسة، ست شابات بلباس تقليدي شبه موحد في شكله وتزيينه سواء في الفستان أو شدة الرأس، ومعهن امرأة تبدو أكبر سنا منهن وقائدتهن في الفرقة. بعض نساء جنن مع

* - الخزانة هنا خيمة كبيرة مخصصة للحفلات الرسمية والمناسبات الاجتماعية الكبيرة كذلك.

أسرهن وأزواجهن أو أبنائهن، من جنبات الضيعات الموزعة في هضبة (حراشة). بينما التحقت أربع سيارات بالحفل بعد وصول ضيوف السيدة سعاد القادمين من العاصمة الرباط.

استوى الجمع في جلوسه مثنى وثلاث ورباع... دخل رجل وسط الساحة بجلبابه الأبيض ورزته وسلهامه الأسود. في يده بندير (ألون)، مخللاً إبهامه الأيسر في ثقب استدارته، ومبتدئاً في إيقاع بطيء موزون بدقات سباعية متتالية مفصولة بين الأولى والستة المتتالية. وبدأ الإنشاد:

- (رحو الوزيد) إكشم أذي يورار. إكشم أذي يلعب أحيديوس. هي نفس الجملة ردها بلهجات أمازيغية مختلطة. يعلم تمازج المناطق الأطلسية في هذا الحفل الليلي: (أنا رحو الوزيد الذي دخل ليلعب أحيديوس).

- أنا الشيخ (ن والون) لهذه الليلة. الإيقاع مضبوط والحركة بإشارتي والغناء بنظرتي وقفرتي ورقصتي.

- سكوت!

يعم الصمت جميع من في الساحة، حتى كؤوس الشاي ورشفها. حتى الخيل الرابضة في زاوية من جانب الخيام الأربعة التقنت للصوت ومناخ سهرته. كأنها اعتادت على مجرياتها وطرب صاحبها.

يأتي صوت الروح من أعماق الليل. كأنه جبال الأطلس التي تشد وتنشد وتنادي المحيط الأطلسي البعيد. إنه صوت شابة تخرق في ندائها ب (تماويت) الساحة، كأنها ستعانق النار

المتقدة ليصبح صوت الغابة هو صوت النار. لكنه صوت الروح الخالدة. تلك الأمازيغية الساكنة في جنات أعماق الفؤاد، الهاربة من ضوضاء العالم، لا تخرج إلا بطقوس نداء تماويت وإنشاده. صوت هو إكسير الحياة الذي يروي العطش ويستعد لمعانقة الفرح ومداواة الجراح والأحزان. تماويت الذي قد يأخذ الفرد ذكرا كان أو أنثى إلى أعماق الجبال، حيث لا أنام بين الأشجار وفي امتداد البصر وصدى الصوت، فينادي المنادي ويستحضر الأرواح ويشكو للطبيعة ويغتسل بالصراخ والغناء والشجن.

تماويت الذي تمنى مهندس فضاء مغربي - كما حكى للسيدة سعاد يوما ما في لقاء بمعرض للوحات في بهو السفارة الأمريكية بالرباط، والخاص بألوان أطلسية، والذي يعمل بالنازا الأمريكية - لو أنه بُعث مع سجل الحضارة الإنسانية في رحلة اكتشاف أحياء الكون، وتعريفهم قبل غيرهم ببناء الأطلس الغنائي (تماويت)، علّه يجعل الوجود، كما يحكي دائما، جرة حُبّ تسقي جميع القلوب، فلا عراك ولا حروب.

اندهش الجميع وانجذب. كانت مفاجأة السيد هشام باصليح في حفلة أحيديوس، حيث استدعى هذه الشابة من مدينة خنيفرة لكي توقع بصوتها لحن الخلود والمجد لجبال الأطلس. تعرف عليها في مهرجان صيفي أقيم خلال نفس هذا الأسبوع بمدينة إفران، ولَبَّتْ دعوته فجاءت مع مجموعة الغناء النسوية المرفقة بشيوخ الدف والإنشاد. هي التي أخذت على عاتقها أن تحمل رسالة هذا الإنشاد الساحر بين جميع قمم وسفوح وأنها وشلالات وبحيرات جبال الأطلس. أما منصات المهرجانات،

فتلك مهمة بشرية وثقافية وحضارية. إنما هذه مهمة وجودية، بصوتٍ يمدُّ حبل الخلود للشدو والإنشاد.

غمرت عيون الحاضرين، سواء من يفهم الأمازيغية أو لا يفهمها، غبطة وحيوية فؤاد. اغتسلت الذاكرة من مشوشاتها لتترك للحواس نعمة الاستمتاع بالغناء والإنشاد.

ينادي حمو الوزيد على أمغار الليلة. وهو أكبر الشيوخ الحاضرين من القبيلة. يتقدم (عكي ومبارك)، ويبدأ بإنشاد يلخص أمجاد قبيلة المنطقة ومشاركاتها في المقاومة ودفاعها عن الشرف ومحاربتها للظلم. ينتقل لذكر شيم أهلها بالكرم والصدق والشجاعة... ملخصاً بذلك مجموع ما تفتخر به بين جيرانها.

بعد انتهائه من مقامات مدحه الإيقاعية الإنشاد، يدخل أربعة رجال بجانبه، ويبدؤون الدف ببناديرهم بوتيرة متناقلة سرعان ما تحولت إلى إيقاع سريع ثلاثي الضربات على الجنبات المستديرة ل (والون)، وفي كل مرة يخترقها ختم مرحلي رباعي يتم وسط طبله البندير الجلدية مع دقة خامسة بجوانبه.

كانت الأغاني المألوفة والمكررة هي الملقاة جماعة. شاركهم فيها الجمع الحاضر. فجأة انتقل حمو الوزيد إلى الجالسات والجالسين وبإشارة من يده يأذن لكل واحدة وواحد بالنهوض والاصطفاف وسط الساحة، مشكلاً نصف دائرة جماعية من الذكور والإناث، متراسة ومتماوجة بأكتافها في حركة موحدة متمايلة مع الإيقاع، تجعل الأجساد في وقوفها تتابع نفس الخطو والرقص.

وطبعا كانت السيدة سعاد متوسطة هذا العُقد المحلق مع نغم أحيديوس، مرددة نفس الكلمات واللازمة التي ترد بها الجماعة على الجماعة الأخرى. مرة ينفرد صوت الإناث بالإنشاد والغناء، ومرة ينفرد به الذكور، ثم سرعان ما تختلط الأصوات في نفس الأداء كأنها سوّت الحوار وأذابت تقاسيمه لكي تجمعها في وفاق موسيقي خلاب لا يخلو من ابتسامات فرح عامر.

بقي الضيوف الآتون من مدينة الرباط مشدوهين ومتعجبين للحفل عموما ولمشاركة السيدة سعاد خصوصا. لأول مرة يرونها أمازيغية قحة طبيعية طليقة كيماة أطلق سراحها لتعود لغابات إنشادها.

استغرقت المرحلة الأولى من أحيديوس زهاء الساعة. حينها بدا حصان أشهب داخلا وسط الساحة، يعتليه شخص وامرأة. كان أخ السيدة سعاد هو الداخل إلى وسط الساحة. رافقته زغاريد وعلّا إيقاع البنادير بدون إنشاد... بادرت الأخت إلى معانقة أخيها دارفة دموعا يختلط فيها الفرح مع الأسى، حتى إن جل النساء الحاضرات تأثرن بمشهد اللقاء بجانب نار متقدة في النفوس قبل الحطب. اتسعت دائرتا نظر الأنسة وفاء متسائلة في شبه استنتاج من سيكون هذا الفارس الفاره الطول الذي نزل عن صهوة حصانه. طبعا لأول مرة تراه. كان هو السيد الحسين باصليح، المعتقل السياسي السابق والذي تعرفت عليه من خلال مذكراته وأشعاره، ومن خلال مرويات السيدة سعاد حوله وصورته، خصوصا في الثلاثة أيام التي سبقت المجيء إلى الضيعة في منطقة حراشة بالقرب من مدينة أزرو قلب الأطلس الشامخ.

كان حفل الشواء وكؤوس الشاي المرافقة له هو وجبة العشاء التي تلتها أطباق الفواكه، هذه التي جادت بها ضيعات منطقة (حراشة) دونما سماح للآخرين باشترائها من أسواقها العمومية.

تعرف خلاله ضيوف مدينة الرباط على الحسين باصليح أخ السيدة سعاد. كما تعرفوا على رفيقته في السهرة (ثالا). وقد كان تبادلًا للكلام وتعرفا على الأسماء والأسر... عبّر خلاله الكل عن الترحاب، ودعاهم الحسين باصليح إلى زيارة القرية غداً هذه الحفلة.

تأملت وفاء غانم ذلك الشخص الذي تصورته كم من مرة، وتخيلته من خلال كتاباته وأشعاره. محت كل تلك التخيلات البوهيمية التي ناسبت رحلاتها الرومانسية الذهنية. هو الآن مائل أمامها، وضروري لها أن تلاحظ بدقة أوصافه ومميزاتها. وطبعاً، ضروري لها ان تُشخّص أوصاف هذه المرأة (ثالا)، وتدرك سرّ هذا التعلق بين الاثنين الذي بخر أحلامها وآمالها في التحدي للوجود بتملك روح هذا الأسير لمحكومٍ بالإعدام ورافضٍ لأحكام عفو الأنام.

بدا لها طوله يفوق كل الرجال الجالسين في طاولة وجبة العشاء. فكتفاه يمكن اتخاذهما كشرفة للاطلاع على ما فوق. بنية رقيقة غير ممتلئة بعضلات ملحمة، تبدو جوانبها المعظمة مقاساً لطول فاره ومرافق سريعة الحركة. بطن لا محل لانتفاخه ووجه أبيض محفور الخدين. لكن عينيه تكنزان رؤية حالية وتخفيان لغة لا يشبع الكلام ولا يغني في تفسير

تعايرهما. حينما يستميل بكلامه بلغته الأمازيغية التي لا تفهمها وفاء، تتداخل الكلمات مع الابتسامات التي تتخذ بنية تحتية للتواصل، حيث لا انقطاع فيها. يستطيع من عاش ويعيش الغرام أن يعلم عمقها وصدقها ورأسمالها كسعادة لطرفين. اتخذت مع كحة خفيفة شهقةً حاولت إخفاءها، أعادت بها ترتيب أنفاسها ونفسيته. أه لو كانت بجانبك تلك الملعونة العزيزة لطيفة، كانت مخلصتي من شباك تعلقَ فيها روحي الآن. هكذا همست دواخلها. في حين حاولت إخفاءها بمشاركة الكلام والابتسامات الحوارية.

أما (ثالا) ، فقد بقي ملف تعريفها ووصفها مفتوحا لصفحات بيضاء خالية لا بد من إعمارها من خلال الاستنتاجات التي ستنتسح وفاء بذكائها من أجل تسجيلها. هي مصاحبة، ليس للحسين وحده، ولكن، لطرفين اثنين متصاحبين: الحسين وثالا.

ثالا، بالأمازيغية تعني ينبوع الماء، مجرى الماء في الغدير الصافي. كذلك تعني كلمة الدمعة المنهمرة على الخد. دلالة التسمية حينما سنتكشفها وفاء من خلال تقديم شخص ثالا أمام الضيوف ستغير منطلقات تحليلها لها ورسم معالم وأسرار شخصيتها. تُرى، ماذا يدور في ذهن الطبيب حلیم السيد؟ هكذا طرق السؤال عقلها وهي تحته على تذوق فاكهة الكيوي التي استلذت هي الأخرى بطعمها الرائع.

- تعلمون أن أول ما بدأ إنتاج هذه الفاكهة بالمغرب كان هنا بضيعات حراشة، كانت تُصدّر مباشرة إلى الخارج. الآن أصبح سوق استهلاكها محليا ووطنيا كذلك - تنبه للمعلومة السيدة سعاد.

- جميلة جدا. يعلق الطبيب حليم السيد.

سحر عيني ثالا مختلف عن كل طاقات الجذب التي تمتلكها النساء والفتيات. لا تحتاج إلى استعمال تلك الطاقة لكي تجعل الآخرين يكتشفونها ويحتفلون بأثويتها في وجودهم وذهنهم وشعورهم. صفحتان لجينيتان ناصعتا البياض، وسطهما قمران مستديران هما مصباحا الرؤيا للعالم. وهما مرآة الناظر لشخص ثالا لكي يعلم بحدسه فعلا أنه يقترب من نبع ماء فعلا. نبع يزيدك عطشا ولو كنت قد ارتويت من فيضه للتو. إنما العطش هنا رؤية. هذه الرؤية التي وظفت الأنسة وفاء تجربتها في التفاعل مع اللوحات والرسم والتشكيل لكي تستلهم منها معاني جديدة وترسم خيوطا للوحة جديدة، تدري أنها واقعة في شباكها وعالقة، وإلا لماذا ديبب ذلك الخفقان الذي تنمل له جلدها حين رؤية زوجين على صهوة حصان. رؤية زادتها حرارة مترجمة على احمرار خدين حينما استنتجت بحدسها أنه هو: الحسين باصليح.

تسائل وفاء نفسها، كيف تكون حركات ثالا طبيعية وبدون تكلف وهي جالسة لأول مرة بين ضيوف ليسوا عاديين. هم من العاصمة وبينهم رجال غرباء عنها؟ بدون تكلف، تتكلم وتضحك وتطلب شيئا من فوق الطاولة وتبادل الابتسامة والحوار بزاد أنثوي يغري المتكلم معها. تهاجم الحسين كل مرة بكلمة تكون طلسم فراشة تهب الخلود لرده وفرحته وتنفسه المتفاجيء بهجمتها الغنجة.

يبدو أننا مغرورات كثيرا نحن الآتيات من المدن الكبيرة. كم من بروتوكول نقيمه في الكلام. وكم من ترتيبات نجعلها

لأجسادنا ولباسنا وتسريحات شعرنا، وفيهم أفادنا ذلك؟ مزيد من التعقيدات والحواجز بيننا وبين الذكور. أي ثقافة هذه التي تعقد شخصية الإنسان وتعرقل حريته؟ لم ينفعها مع هذه التساؤلات الدفينة سوى كوب ماء أطلسي تناولته جرعة واحدة بدون توقف. ما دام هذا الماء يهضم كل شيء. كما قالت لها السيدة بدة صاحبة الضيعة، ضيعة امباركة. فيما الطبيب حلیم السيد تابع لمساتها وطريقة شربها المتلهف لشيء ما داخلي وليس للماء.

لباس ثالا كان فستانا فستقيا فاتحا. ضحكته داخله كانت مبسوطة، تذكرت معها وفاء بحة المغنية نعيمة سميح. لا تدري هنا كذلك لماذا اختلجتها أغنية (ياك آ جرحي)... تَغْنَى بها جميع المغاربة والمغربيات صراخا فنيا مع جروحهم. الآن نوبة وفاء غانم في التغنّي بها. راودتها فكرة: لِمَ لا أقوم وأغني داخل هذه الساحة هذه الأغنية؟ ستكون أكبر شفاء لي ولأنفاسي هذه الليلة.

أجلت هذيانها مع أفكارها حتى موعد عشقها اللازوردي الذي يبدو أنه تحالف مع حفل هذه الليلة لكي يشرك الجميع معها فيه. وكانت المرحلة الثانية من الحفل، بعد وجبة العشاء. غايرت الأولى مع حضور الحسين وثالا فيه. لقد قام (رحو الوزيد) من طاولة عشائه، ونزع سلهامه من على كتفيه، ووضع على كتفي الحسين باصليح. تعالت زغاريد جديدة، وانتفضت ثالا تسبق الجميع لوسط الساحة التي انقادت نارها جمرا بدون حاجة إلى لهيب. بدأت موالها (تماويت)، هذه القصيدة

المفتوحة على شجن النفوس، والجرعة من إكسير البوح
الشافى للقلوب.

{ثالا تنادي أمها:

يا أمي ... يا يماااااا...

حليبيك نضب...نضب... وماذا بعدك يا يماااااا؟

ما عاد فطور الصبي إلا قهوة مرة بعدك يا يماااااا

حرقة كبيرة ومزيد اشتياق

...

تُسمع شهقات باكية وسط الحضور. أكيد أن النداء المُنشَد كان
مطربا ومؤثرا. لكن دلالاته لم تعرفها وفاء غانم ولا ضيوف
الرباط إلا بعد الحفل. ويستمر الإنشاد:

حصان هو...

بارتعاشة الصفصاف

هو

من أوقف هبوب الرياح

من أحجم الموج عن معانقة شطّه

عطشان لأرض عليها يرتاح

يا يَمَّا
 سأحاسب الصاعقة التي زفَّتكما للسماء
 لو أخذتني بديلاً وتركتكما
 و بقيت وحدي في صياااااااا
 ها هو عاد يا يَمَّا
 كنت حكيت لك عشقي وأنت تمشطين شعري
 أو تغزلين ضفائري
 كنت غنيت للفرح زغرودة فوق فخذيك
 ما كان بهاء الحناء على جسدي
 و لا عطر الحمام
 بدون أناملك
 يا يماااااااا...

...

تقدمت السيدة سعاد باكية لمعانقة (ثالا). صافحتها بملء يديها
 وعانقتها وما يزال صوتها ينشد، واضعة فكها الأسفل فوق
 كتف السيدة سعاد الأيمن. واستمر تماويت في وضعية العناق
 والبكاء. لكن بكاء (ثالا) كان دمعاً تسقي به حروف إنشادها. لا
 تشهق. لا تنتحب. محافظة على ابتسامتها الأولى التي حطت
 بها الرحال فوق هذه الساحة، كأنها قطار جامع لا يتوقف رغم
 فراغه من ركبائه. إلا ما كان من روح ثالا التي تعمّره:
 الأصفاد وشمّت...

و الرسغ اکتوى...
و القضبان نهشت من جسد تيللا•
لم يحضر تحليق أمه في السماء
أمير (ويوان•) عاد
ليحارب الظلم والأشباح
روحي يا يماا... وخذني معك روعي
حتى أرتاح...

....

بقي قوس الاستفهامات مفتوحا واخرقت نباله أفئدة الحاضرين في قشعريرة مخيفة. كان الندب قويا وعنيفا، وكان الشعور بأن درجته لا تنبئ بالخير، لأن الإنسان يحتاج دائما إلى وصفة النسيان للجراح. أما وقد فجرتها (ثالا) بهذه الحرارة المشتعلة، فإن الاحتراق الداخلي مألها لا محالة، خصوصا وأن وسائله في المتناول للأيدي والذات المحترقة التي ترمي نفسها قربانا للقدر الذي عذبها. الغرام والتئيم المؤدي إلى حمى قاتلة. السكر المؤدي إلى غيبوبة. ورماد الروح المؤدي إلى فناء وعدم.

احتاجت السيدة سعاد فيما بعد الحفل، وللغد على ضفاف بحيرة ويوان، أن تحكي لضيوفها قصة (ثالا). تراجيديا أمازيغية مزجت الحب بالسياسة وقدر اليتيم المبكر في اكتواء الذات.

• - تيللا: الحرية.

• - ويوان: بحيرة قرب مدينة عين اللوح

جاء أمينو•

سلطان أحيوس*يستاهل• الزعامة

....

يبدأ إيقاع بطيء ل(والون) البندير. تتحول ببصرها البارق في ابتسامة مغرورقة يغار منها الجمع نحو الآتي إلى وسط الساحة. يتساءلون عن سر قدرتها على وهبها لها رغم الوجع الذي يطفو ويسحق البوح؟ يدخل الحسين (أمينو، كما تلقبه ثالا). وحينما يستوي في وقفته، تجثو ثالا متوسلة مزيدا من الإيقاع لرقصة أحيوس. (حيدس)! تصرخ داعية للرقص ويدها ما انفكتا تتخالجان وتعلوان صعودا بجسدها لتستعيد وقفته الراقصة. تدخل الفرقة المكونة من النسوة السبعة وتقفن مترصات أمام (الشيخ ن والون). بعد ذلك يتراص صف من الرجال قبالتهن والحسين باصليح يتوسط الحوار الحركي الراقص بين الجنسين، ويبدأ قصّ حكيه بحركاته المعبرة. أكيد أن السيد حلیم السيد، كذا الأنسة وفاء غانم، قد لمسا بحدسهما رمزية التعابير الحركية في رقصة الحسين باصليح. لكن فهم الدلالات نسقيا سيحتاج إلى متسع لاحق من الزمن لاستجماعه.

• - أمينو: الفهد بالأمازيغية.

• - يستاهل : يستحق

أوقف دفّ البندير، وبقيت الأكتف في تمايلها. وطبعاً لن ينعم بطرب اللحظة إلا من حضرها لكي يشارك الإيقاع الصامت ويتمايل معه. الكل يتابع حركات الحسين. يتعالى البندير مع قامته ورفع يده الماسكة به. يقف على رجل واحدة، فيما الأخرى مثنية في خطوة إلى الأمام دالة على وضعية المحارب المستعدة ل (الحركة) الفروسية. يُسمع صوت البندير الملتطم بالهواء المتماوج معه فقط في لحظة بسرعة البرق لا يلحظها إلا من تعود على وقعها وانتظارها. تزيد الزغردات الملتقطة للإشارة من هذه الحركة. يعود ليأذن للصينين بالإنشاد الجماعي والغناء. تتوحد الأيدي في التصفيق المتناغم مع إيقاع (والون). ساعده طولُه كذلك في حركة قفز يتمايل معها بكتفيه نزولاً وصعوداً، وفي كل مرة يصدر كلمة معبرة وأمرة، وأخرى ساخرة. تختلط مع بسمات وانزياحات الأفراد وتلاقي عيون الذكور مع الإناث.

سر الطبيعة الحب والتزواج، ولولا الحب ما كان هناك إلا عقم في الطبيعة ككل. هكذا كان الحسين يبرر حركته في نزهة مع الضيوف بجانب البحيرة، فيما بعد السهرة.

فيما الإيقاع قائم لرقصة أحيديوس، صفرّ الحسين لحصانه الذي أطلق أحد الشباب عنانه ليتوسط الساحة. ركبه وهو في وضع الدف، وأخذ بكف ثالا، فكانت خلفه ممتطية صهوته. انطلق بالدف والسلهام، والجمهور قد خط الرقص بالضحك.

فيما الشيخ رحو الوزيد يصرخ مبتسماً: أويد أزنار، اويد ن والون. (أريد السلهام... هات البندير).

في مجيء الضيوف إلى بحيرة (ويوان)، التقوا من جديد بالحسين وثالا. كانت ثالا قد حضرت لجلسة النزهة. أحضرت زرابي ووسائد مزركشة وبُسُطا جلدية مصوفة. حملت السيارة المكتراة، الأواني وأنواع الفواكه والخضر الجاهزة للطبخ وللسلطة. كذا السّفود، قضيب الحديد المتين والطويل لشواء خروف فوق جمر نار متقدة، جعلت شخصا خبيرا هو المكلف بعملية شوائه.

كانت الجلسة بين أشجار الصفصاف وتحت ظلالها، في زاوية من ضفاف البحيرة وبعيدا عن الأماكن العامة التي يرتادها الزوار والسياح من الناس في الغالب. زاوية لا يصلها إلا محترفو الصيد والقنص في طوافهم حول البحيرة التي تبلغ مساحتها سبعة عشر ونصف هكتارا، والتي تعلو عن سطح البحر بحوالي 1600متر. تمتلئ البحيرة بمياه العيون وانسيابات الثلوج، ما يغري الأسماك بالعيش فيها مع عمق يصل إلى المتر ونصف بحسب المعاينات له ومراحل امتلائها، بحسب الفصول طبعاً. تحتضن ثروة سمكية تتكون من الزنجور، سمك الفرخ، البرعان والشبوط. كما تحتضن نباتات مائية بارزة وثروة حيوانية مهمة: أربيان، ديدان الأرض، سلطان، الضفادع الخضراء، الطيور المهاجرة...

يتباهى الصيادون والقناصون في جعل رؤوس غنائمهم تذكارا معلقا في منازلهم. لذلك نجد عند الحسين باصليح ثلاثة رؤوس مفتوحة ومحنطة ومعلقة على الجدار لسمك الفرخ مع تفاوت في حجمها. يقابلها رأس خنزير بري بنايين حادين، معلقا هو الآخر في الجدار المقابل. هي ثقافة الجبل وعشق الصيد والقنص وبطولات التحدي إذا.

ثالاً.

(ثالاً) منبع الماء، و(تملالت) هي الغزالة. لقبان يوظفهما الحسين باصليح في مناداة حبيبته ومعشوقته وسرمدية روحه كما يصفها بها بعض الأحيان. حينما يكون الحنين الطفولي إلى الأم، إلى الأرض، إلى وجدان الذات المحتاجة للتعبير والشكوى وتفجير الدواخل، يناديها (ثالاً)، كأنه رجوع إلى منبع الحياة والوجود وليس منبع العين فقط. إذا كانت الآية الكريمة تقول (وجعلنا من الماء كل شيء حي)، فإن الحسين باصليح يجعلها تقول كذلك: وجعلنا من منابع الروح كل شيء حي. حتى باللاتينية تعني النمو والترعرع والبدء المستحب، وبالعربية الشابة الحسناء والمشرقة. لكن أحب التوظيفات عنده هي منبع الماء والغدير الصافي النبع.

تتعجب وفاء لتوظيفه لنص قرآني. أليس من المفروض أنه اعتقل ليساريتها؟ ألم يصمد بعد الإفراج عنه داخل قصر يساريتها ومنطقها الذي غلب ناموسه على ناموس العيش داخل المجتمع؟ بدا لها أنها تحمل أفكاراً مغلوبةً وجاهزةً غير مناسبة في كثير من منطلقات فهمها وأحكامها وتحليلها. لذلك أجلت تساؤلاتها إلى حين انتهائه من تكلمه عن (ثالاً).

وحيثما يكون هو العاشق الراغب المشتاق، يناديها وهو الفهد أو النمر (أغلاس) ب(تامالنت)، أي الغزالة الرشيقة الهائمة في مروج وبراري جبال الأطلس.

- قد تحتج وتقول لي: كيف لفريسة أن تلبى نداء مفترسها؟ فيتساقط وصفي وندائي ويتم رفضه. وكلما شاءت تاملت أن تكون ما عدا الفريسة، شيئاً آخر، احتجتُ إلى الخروج من ثقافة اجترتها قرون داخل نفوس المجتمعات البشرية. أقع في شباك الوصف وانفلات التشبيه، فتكون اللغة بدالاتها سبب تيهي العاطفي بجوار حبيبتني (تسمونتينو).

- أوصيك الأنسة وفاء بالأ تتقي بلغة واحدة. فهي غير كافية للعيش. لرؤية العالم بأبعاده المنفتحة على حيوات عدة، لا بد من تعابير عديدة. فاللغة تغتال العالم في فهم مقنن. لذلك فإن (ثالا)، هو الاسم المحبب عندي في ندائها. يحتوي جميع اللغات المتوسطة.

- اعذريني، فإن طريقة كلامي قد تكون مباشرة وليس فيها بروتوكول ثقافي وأخلاقي. سحقْتُ الحواجز النفسية قبل اللغوية وراء القضبان. إذا تكلمت وصفت بما أشعر به بشفافية دون حجاب.

- أكونني مجبراً لظماً الصحراء على حافة سراب اللغة التي لا أقبض بها على جرعة حب واشتهاء، وقُبلة وسباحة واشتياق. تجدين (ثالا) تشفع لي ضياعي وتيهي وعطشي. تسمح لي بمجرد الخطو للافتراس، فتنسب تاملت سريرا يذوب فيه الجسدان، حيث لا انتصار ولا قانون غاب. إنما الدّين يبقى على عاتقي في استحضر الصورة المناسبة وتجسيدها في

التعبير المناسب. لذلك قلت لك بأن اللغة الواحدة سجن. كذلك الحياة.

تطلب وفاء مزيدا من تفاصيل الدلالات. يستفزها الحسين: أنادي لك على (ثالا). لعلها تراقص بساقيها ضفاف البحيرة. فكلامي بسيط لا يقدر على مزيد.

كانت بداية الارتقاء في هذا الحوار العميق شباكا وجودية ولغوية وثقافية، خطّطت لها السيدة سعاد. أرادت لأخيها اختراق ألوان حياة جديدة. هي تعلم وتدرك أفكاره. لكنها تعلم بحدسها أن لغات أخرى وحياة أخرى، سيكون لها طعمها مع حوارات أنثوية جديدة... هدفها إخراجها من حياة تنتكص إلى طفولة وطبيعة بدل أن تتقدم إلى ثقافة جديدة. فلقد علّمها أدب السجون الذي واكبت على قراءة نصوصه وأشعاره وتحاليله المفسرة والمؤولة والمشخصة، أن الآثار النفسية والعقلية للتجربة مريرة ودفينة، ويصعب علينا نحن الذين لم نعشها أن نقنع صاحبها أو صاحبها بتصوراتنا.

الحسين باصليح

- ((شاب في الرابع والعشرين من عمره كما في الصورة تقريبا. بين ولادته واعتقاله أربع وعشرون سنة. التهمة غريبة: هو الشيعي، هو الإسلامي، هو المتطرف، هو الخارج عن القانون، المعارض للمقدسات. كل العناصر تداخلت في وصفه واتهامه، حتى أصبح عدو الدولة والنظام، ما دام متبنيا لمواقف جذرية لا تتوافق مع الجميع لم يتبَّه أحدٌ، رغم انتمائه للجميع. تبرأ منه الكل، فأعلن رايته الفريدة:

((- أنا ضد الكل، أتحمل مسؤولية الكل وكل ما تتهمون به الكل، فهو وصف لي وأنا صاحبه. اغسلوا التاريخ على حبل مشنقتي. تطهروا أنتم بدمي وصلُّوا تضرعا بجرمي)).

كانت هذه إحدى رسائله.

تتذكر الأنسة وفاء مضمون ذلك الحوار الذي كان بينها وبين السيدة سعاد. ها هي الآن بين الحلم واليقظة. ها هو الآن مائل أمامها، ليس بنفس الشكل الذي رسمته فيه أخته سعاد. رجل في الخمسينيات من عمره، لكنه يحافظ على رشاقته، وقوته في شخصيته وطريقة كلامه. وتستغرب وتتساءل عن سر القوة الحركية التي ما يزال يحافظ عليها. أكيد أن قوة تكوينه الجسمي ساعدته على الصمود في السجن وخلال هذه المرحلة العمرية بعد خروجه.

لكن شيئاً خفياً يكمن في شخصيته ويجعله يزداد شباباً وحيوية. ربما عقليته وطريقة تفكيره. ربما تكوينه البيولوجي والفزيولوجي اللذان لم ينل منهما شيب في رأسه وتجاعيد في قسما ت وجهه. خداه يفوران دماً وينضجان حياة. أسنانه لا تزال منضدة بيضاء. إلا ما كان من ثنيات في جبهه رسمت خطوطاً كأنها خطوط تدون لمُعمر باسق من نخيل مناسب لطوله. - متى كان اعتقاله؟ في أواخر السبعينيات أم في بداية الثمانينيات؟ على العموم هي مرحلة حرجة من تاريخ الوطن.

لماذا لم تشأ السيدة سعاد إعطاء تفاصيل دقيقة حول أخيها منذ بداية التعريف به؟ هل كانت تخلق فضولاً وأقواسَ أسرارٍ، على وفاء أن تتعطش للبحث عنها؟ أيعقل أن يعود اللوم من جديد على الذات؟ أيمن للشعور بالذنب أن يخفق تفكيرها ونفسيها؟

اصطادها هذه المرة ذلك الشعور. افترضت وخمنت جازمة بدون يقين داخلي وفي حيرة من أمرها، أن تخصصها في الأركيولوجيا هو سبب هذا الانجراف وراء سلوكات وعلاقات ومواقف مثل هذه.

ناجت ربها : يا رب. هل أنا سبب محن العالم؟ هل أكون ذلك المسيح في عصره الذي يجب أن تغسل خطايا وهفوات الجميع على صليبه؟ أم إنني الحسين بن علي في مصيره الذي يكتوي بنار التاريخ الذي وقع بعد مماته حتى اللحظة المعاصرة من واقع الأمة الإسلامية الآن؟

ما سبب هذا العذاب الذهني داخل مناخ نزهة على ضفاف بحيرة ويوان؟ التفتت فجأة فوجدت نفسها بمفردها، بينما ذهب

الحسين باصليح يبحث عن (ثالا)، هذا الاسم العالمي في دلالاته الذي جعل هذه المرأة في الثلاثين من عمرها تتعلق بشخصية معتقل سياسي. ما سر شخصية ثالا حتى تكون نجمة الحسين باصليح الشاعر والسياسي والمتقف الفيلسوف؟ صاحب الفهم الخاص لقضايا عصره خارج شباك الإيديولوجيات والهويات المتناحرة على فتات كعكات العالم، كما قرأت واستنتجت ذلك من خلال مذكراته التي رافقتها قبل المجيء في هذا السفر الأطلسي.

يبدو أن سفرها عروج إلى أعلى، ما دام هذا العلوب 1600 متر بين أحضان جبال وغابات وشخصيات جديدة قوية ببساطة أسلوب عيشها وفرحها وبفلسفة سعادة عيش لا تحتاج للمدينة وتعقيداتها التنظيمية. وبين المدينة والبحيرة بقيت ذات وفاء مشتتة الذهن في أي شيء تختاره؟ وماذا تريد في ومن حياتها؟ شعرت بالتيه يمتلك وعيها. كأنها ستفقد الذاكرة والهوية فتعود اللاشيء واللامعنى في آن واحد: ما أخطر ما أمُرُّ به الآن. هكذا خاطبت ذاتها رافعة عنقها إلى السماء لكي تخترقه أشعة شهر غشت اللاهبة في توقيت ما بعد الزوال. ولكن، أي زوال هو قائم الآن؟

لابد لي أن أرتمي في بحيرة نفس ثالا لأنقذ نفسي من تيهي وتشتتي. كيف أداوي أنثويتي بها؟ هكذا نادى هي الأخرى على (ثالا) بين شعاب مختلجة بنباتات مرجية تحتضنها مياه ضفاف من البحيرة هادئة وساكنة.

كان الحسين باصليح قد سبقها لدعوة ثالا لمرافقة وفاء في جولة وحديث حول البحيرة. فهل كان يريد الهروب من وفاء

وأسئلتها التي تشبه أسئلة كل أولئك الصحفيين الذين بحثوا عنه بين قمم الأطلس، أو أولئك المخبرين المتخفين في شارات إعلامية والذين بحثوا عن كتابة تقارير وليس حوارات ثقافية أو إعلامية تجعل لهم السبق والتفرد في الاستجواب. لقد سئم من تلك الألاعيب رغم أنه يعلم أن وفاء ليست منهم. لكنه سئم من السؤال. يريد الحياة بأجوبة وليس بأسئلة. يكفي جحيم الاستنطاقات الذي حوَّله إلى كائن غريب عن ذاته .

ثالا

- ((كنت أسمع عن ابن آيت باصليح الذي هو الحسين. مسجوناً ومحكوماً بالإعدام. في لحظات كان نطق اسمه وقصته يتمُّ سرا وبشكل خافت مخافةً من شبح ما. لم أكن أدري ما هو. قد يتعاير الناس أو يقومون بإعطاء المثال باسمه: (حتى تكون أنت هو الحسين باصليح الذي أثار الموت على المذلة). هكذا كان اسمه يتشكّل في ذهني وتتراكم صورته فيه.

كنت صغيرة، بشعر أحمر منساب دون ضفائر. وكما تحكي لي الجارة، كنت أفتن الناظر لي كأيقونة جمال رغم كوني صبية صغيرة. يوماً ما، ناداني زائر للقرية: يا قضيبي الخيزران، يا خفيفة الظل. لم أفهم ما قاله. سألتُ امرأةً بجانبني في الطريق عما قال. أجبتُه بالشلحة* (تاشلحيت): يا قصبة عوجاء لا تليق لصيد سمك صغير. ضحكت المرأة وشرحت له ما قلت، فانفجر الجمع المرافق له ضحكا، خجل هو معه من نفسه.)).

ثالا، وحيدة أبويها اللذين توفيا بسبب صعقة برق ضربت شجرة صفصاف طويلة وسميكة. ارتمت الأب في اللحظة التي لمع فيها البريق فالقا الشجرة إلى شطرين آيلة للسقوط على

*- الشلحة : لهجة أمازيغية إلى جانب الريفيّة والسوسية.

الأم، احتضانها لها وحماية ومحاولة لإنقاذها من جذعها الثقيل والعريض. سقطت الشجرة على الجسدين فأردتهما ضحيتين هامدتين. كان عمرها آنذاك خمس عشرة سنة، حينما احتضنها عمها الذي رفض طلبات الزواج منها لعدة مرات. حينما كبرت، لمست سر ذلك ومصيرها فيه.

ثروة كبيرة خلفها الأبوان، وكانت تحت تصرف العم الذي زاد غنى على غناه، وجاها على جاه. في انتفاضتها على وضع الاستغلال هذا، كان عمرها خمسا وعشرين سنة. حققت استقلالها رغم ضياع بعض ممتلكاتها معه. قررت الزواج، لكن الزوج كان أكثر طمعا واستغلالا ولعابا سائلا. حسمت في طلاقها، واسترجعت حريتها (تيليل)، والتي أعطتها شخصية جديدة تنافس بها رجال القرية وتضح الشجاعة للصمود أمام تراكم تجاربهم في العمل والتجارة والمعاملة.

لم تعد من علاقات اجتماعية. ربما لأن جل أسر القرية فقيرة. اختبر الناس طيبوبة قلبها وكرمها وجودها في محطات كثيرة. لكن نفسيته بقيت معقدة من حرمان يحرق دواخلها وغياب ملوحة مراهقة وشباب أو حلاوة زواج. لم تلمس طعم كل هذا بالشكل المريح لفؤادها وروحها. هذه الروح التي كانت تفجر المواويل كلما خلت إلى نفسها. إنشادها بتامامويت، علاجها وإكسير حياتها الذي استمرت في العيش بفضلها.

لقد أوقفت الزمن في سن الخامسة عشرة من عمرها. خلطت ذكرياتها الدمع مع ابتسامة وقبلبة أمها وكذا حنان أبيها. مثلما أوقف الزمن عند الحسين باصليح يوم اعتقاله ويوم الحكم عليه بالإعدام. كان نضاله نضال طفل بريء لمس حاجة الناس إلى

عدل وحقوق وكرامة ومساواة. مزج بين هندسته التي تَفَوَّقَ في رياضياتها وبين هذا الحلم الإنساني في العدالة. لم يكن يتوقع انه سيجازى بالأمر. وحينما عاد الحسين باصليح إلى القرية، تثاقفت هذه الأخيرة مع الحكايات المنسوجة عن غيابه واعتقاله وشبح الخوف الذي يسكن النفوس المتذكرة لوقوف المخزن ضده. والناس قد جعلوا دستوراً خاصاً بالخوف. من أهم قوانينه الخوف من المخزن. كان الحسين يريد جعل الاحترام بدل الخوف، وجعل احترام القانون بدل أي شيء آخر. كلنا مواطنون.

كم منهم أعدمه في غيابه مرتين أو ثلاثة، ربما تخلصاً من عقدة قضيته التي تراحم وعيه. وكم منهم لم يكن يعرفه بشخصه لأنه لم يلتق به من قبل إما لصغر سن أو لهجرته للدراسة مبكراً بمدينة أزرو ثم الرباط.

لذلك، لما عاد، كان تصالح الوعي والذاكرة عند صغار القرية وكبارها. حينها كانت (ثالا) شخصية نافذة ومستقلة في بحث عن رجولة حقيقية وكبيرة تحترم مبادئها لا صغيرة حقيرة يسيل طمعها من أجل حطام المال.

تستحضر ثالا كل هذا وهي تتكلم عن نفسها. لا تريد فصل شخصها في الكلام عن شخص الحسين. هو منها وهي منه. هكذا جاءت كلماتها قوية ومحدثة غير باطنية عند أنثى تسمع لها، كانت هي الأنسة وفاء.

كانت جلسة ما بعد الغداء الذي كان شهيا ولذيذا. ذلك أنه لأول مرة تعيش أسرة حلیم السيد والأنستين وفاء وسلوى، جو النزهة بهذا المنظر الطبيعي الخلاب، وهذا الشواء الذي تقتطع بسكين لحمه، فتألتهم صحنه بنهم كبير. وذلك الحليب المروب بطريقة تقليدية طبيعية بقطرات رحيق التين الطرزج أو الخرشوف الشوكي الذي ينمو في الخلاء على جنبات الغاب وضافف الأنهار، والذي قد تعاون الشباب على القيام بمهمة تحضيره.

كانت جلسة الشاي التي تلي الشواء مباشرة، وكان الحسين باصليح في زاوية فوق الزربية الكبيرة التي جلس عليها جيل الكبار. بينما اختار الشباب جر بساط جلستهم إلى تماس مع ضفاف البحيرة، اختاروا لعب الورق (الرامي)، في جو موسيقي وطفوا فيه أجهزة آيفوناتهم والأبياد.

في الزاوية المقابلة لجلسة الكبار وللحسين، كان (ثالا) في وضعية الأربعاء التي لم تستطع المدينيات تقليدها فيها. مفاصلهن تألمت في خوض التجربة، فأثرن التمدد الجانبي متكئات على مسانيد.

جاء صوت الحسين موجهها الخطاب ل (ثالا):

- ثالا!

- نعم.

- أوجعيني طربا.
- آ لالة سعاد، من فضلك اطلبي من أخيك أن يرأف بي .
كفاني أوجاعا داخلي. تَرَجَّتْ ثالا السيدة سعاد بالطلب ولغة
الابتسامات غالبية على لغة الكلام.
- أراكما تتبادلان الأوجاع .علَّقتُ السيدة سعاد.
- وهل في طلب الطرب وجع يا ثالا؟ علَّقَ الحسين.
- إبدأ أنت يا (أغيلاس) •الذي لا يرحم.
- حاضر، سنغني للبحيرة جميعنا. ما رأيكم؟
- ردّد الكل الموافقة بإشارة أو كلمة وشوق لمفاجآت جلسة ما بعد
الزوال.
- تعرفون المغني إيدير وأغنيته : آ فافا اينوفا ؟
- ذكّرنا بلحنها. طلب مبتسما السيد حلیم، رغم أنه نادرا ما
يتدخل في الحوار بين الشخصيات، يوتر الصمت والمتابعة
أكثر، حتى يرى هو الآخر هذا الوجد الحاصل في الغناء.
- تقاسم الجمع الإيقاع بالأكف والأصابع الموقعة للآزمة
الموسيقية بين الوسطى والإبهام. كما تكلف البعض بوظيفة
الكورال المردد، فيما تبادل الحسين وثالا الحوار جاثيين على
ركبتيهما وقبْلُهما مواجهةً البحيرة التي اخترقت صفحتها
بعض الطيور بمخالبها محدثة دوائر مائية متموجة تشقها
طلعات خفية لأسماك تحاول التقاط زادٍ يطفو فوقها.
- بدأت ثالا:

•- أغيلاس : النمر.

افتح لي الباب يا بابا إنوفا يا بابا إنوفا
ردّ عليها الحسين بالجملة الثانية من الأغنية:
آه يا ابنتي (غريبا ..) دعي اساورك ترجّ
ثالا:

- أخشى من وحش الغابة يا أبي إنوفا.
الحسين:

- ايا ابنتي (غريبا) وأنا كذلك أخشاه

.....

العائلة مجتمعة

تستمع بشغف لحكايا زمان

أسأل صوت ثالا دمعة على خد الحسين الذي عانق أخته
الجالسة بجانبه وهو في غناء. وبعد الانتهاء، تلاقت صفحتنا
يدي العشيقين، ساعدتهما على تبادل قُبلة خفيفة لكنها ليست
بالسريعة.

لم يمتلك الجمهور الجالس، حتى ما كان من جمع الشباب
المبتعد بأمطار، والذي ترك لعب الورق وكان يصور من
مسافته حفل الغناء الجماعي، إلا أن يصفق بحرارة كبيرة،
سكن فيها المغنيان في لحظة خلود وصمت كبير. ردّد ذلك
الانتهاء ذلك الصمت صوت الإوز الموحش زبيطه، والذي
يسبح بين خلجانٍ قريبة من السد المائي المشيد على حافة

انحدار البحيرة في جهة الغرب المؤدية إلى منابع وادي أم
الربيع والمختلطة معها.

- ثالا!

- نعم. أجابته وهما في جولة بين أشجار الغاب خلف مكان
النزهة.

- الليلة مقمرة اليوم. سأسافر مع البحيرة من جديد. كلمها،
وعيناه ملتفتان نحوها، ما دامت خطواتها متباعدة بمترين
تقريبا عنه في مشيته.

- لك ذلك. لكنني مضطرة للعودة إلى القرية هذا المساء. لا
أدري إن كان ضيوفك سيعودون إلى الضيعة أم القرية. على
العموم، نسألهم لنرى إن كانوا سيأتون إلى القرية. ربما
يحتاجون إلى استقبال واعتناء.

- أوكي. قل لي الأنسة وفاء، عمّ سألتك؟

- هه. صوت المرأة لا يغيب في كلامها. أجبته في الأخير: هو
لي وأنا له.

- هه .. صحيح؟

- والله.

- عظيم . أصبحت سمك فرخ مستهدفا في البحيرة .
- لكن سمك الفرخ يصعب اصطياده على الصيادين الكبار . ما بالك بمجرد متفرجين .
- صحيح هم مجرد متفرجين . على العموم، هم، يمتلكون سياراتهم . أينما أرادوا التوجه، فالمسافات ليست بالبعيدة . أما أنا فربما أقضي الليل بأكمله هنا .
- هه . أخاف عليك من وحش الغابة . لكن: في الحقيقة، هل أخاف عليك أم منك؟
- خوفك على البحيرة أولى . سأناجيهما وأقرأ عليها نصوصها المفضلة .
- وهل جئت بأوراقك من جديد؟
- ضروري . فهي أوراق اعتمادي في هذا الوجود .
- أوكي، ثالا تمنحك حريتك (تيليلاً) .
- ههه، شكرا لمعبودتي .
- يجثو الحسين على ركبته اليمنى، ويمسك بصفحتي كفيّ منحنيا أمام ثالا . تأخذه من معصميه بقبضة حارة، فتسنده على جذع شجرة أرز بقبلاتها ويستوي جالسا متكئا على حافتها، فيما ثالا تهجم عليه في اشتعال بركان الشهوة والرغبة الجامحة . تتصاعد الأنفاس وثفك الأزرار، تحتجب الظلال احتراماً لطقسهما المفضل بين أحضان الطبيعة الأم . في لحظاتٍ سفريّة للوجدان داخل ملاحه العشق، يسائلها بصوت مستسلم وخافت:

- من المفترسة الآن؟

- ثالا، (تيزمت) • ، يا مُوجعي.. تجيبه في انقضاض تختلط فيه الأنفاس والأوراق والأدوار بين الفريسة والمفترسة. حين بلوغ ذروة النشوة، بقي المشهد محتضنا لثلاثة في عناق استراحة محاربين أو متصارعين منهكين: هي، وهو، وجذع الشجرة المسكين.

اقتربت الشمس من الغروب، واتخذت البحيرة ومحيطها ألوان فستان بنفسجي وأخضر فتان رائع . زاده هدوء الخلق الذي بدأ يستكين للتحلي بلباس الليل والسفر في الذات والأحلام .فناجين القهوة السوداء هي الأخرى، استراحت من قبضات مرتشفيها، لكنها سافرت مع الأعين في قراءات قعرها الذهني.

ساءل الحسين أخته سعاد :

- هل تحبون قضاء الليلة بالقرية أم بالضبعة؟

- ما رأيك؟

- أنا سأبقى مع القمر والبحيرة. هذه ليلتي هنا.

- ولم لا تدعونا للسهر معك ومع القمر والبحيرة؟ ألسنت أختك العزيزة عليك والغالية؟

يبتسم وهو متملّ في عينيها كأنه يتغذى بهما بما ينعش روحه وأخويته الخالدة جوابه، ويسألها بعد ذلك:

• - تيزميت : اللبوة بالأمازيغية.

- والضيوف؟ من سيكون معهم يا سعاد؟
- سنرى إن أرادوا البقاء أو الذهاب. ربما نبقى حتى منتصف الليل ونغادر. ما رأيك في هذه الفكرة؟
- أفضل من الأولى. ههه.. فيها أنصاف الحلول.
- طيب. لنخبرهم في المسألة. ختمت سعاد حوارها واستشارتها مع أخيها الحسين.
- يا قوم. خاطبت السيدة سعاد الجماعة: ما رأيكم في هذا الاقتراح؟ نسهر بجانب البحيرة حتى منتصف الليل، مع قمرها وحسينها، ثم نذهب إلى القرية للمبيت؟
- في الحقيقة، لم ننم بما فيه الكفاية الليلة الماضية، والنهار كان جميلاً بالبحيرة وبهذه الطبيعة. ربما يحتاج بعضنا، والأولاد على الخصوص للراحة. عقبت السيدة أسية ويدها حاضنة لسلمى مع ربت على ذراعها.
- بعد تشاور، قررت السيدة سعاد البقاء، هي والسيد حلیم، والأنسة وفاء، وعلاء الإبن الأكبر. فيما رافق الآخرون ثالا في رحلتهم إلى القرية.
- نبتت (ثالا) الساهرين مع القمر والبحيرة إلى طقس الحسين في مثل هذه الليلة وأوراقه التي لا تفارقه، كأنها جعلت للحطب وقوده الذي سيشتعل به. فيما وقّرت لهم مصابيح مضيئة ببطاريات، أوقفنها كأعمدة بيضاء بجانب الزربية الكبيرة التي تركتها مبسوطة، فكانت باعثة لحياة أشباح متحركة مع فروع الأشجار العالية والمعانقة لصمت السماء. أما باقي اللوازم التي استعملت في النزهة، فقد جُمعت وأرسلت

مع سائق السيارة والشخص الساهر على الشواء والخدمات خلال هذه النزهة.

لقد أثار التنبيه فضول السيد حليم والأنسة وفاء التي بدت كأنها من أعضاء مختبر الطبيب النفساني في فضولها، متحولة من معاينة إلى معاينة.

من بعيد لمح الحسين بجانب الضفة المقابلة للبحيرة، شابا يحمل آلة وترة • في يده. ناداه للتأكد مع التصفير:

- علي ولد الحاج!

مع التفاتته لزاوية النداء، رأى إشارة اليد الملوحة والداعية للالتحاق، خصوصا لما أضاف المنادي:

- راه الحسين من آيت باصليح.

هي ليلة وقد تحولت إلى سمر، جعل الأنسة سلوى وخالد الإبن الأوسط للسيدة سعاد، يرغبان في البقاء، مغيرين رأيهما. قبلت السيدة سعاد ابنها الأصغر حسن، أوصته بفرشاة الأسنان وغسل القدمين وبذلة النوم. كما أوصت زوجها بوسادته الخاصة التي جعلها مع حقائب ولوازم هذا السفر السياحي لأربعة أيام أو خمسة، بفضاء جبال الأطلس.

وسط نور المصابيح البيضاء، فتح الحسين محفظةً جلدية سوداء. بدا ثقلها من مشقة حملها بيد واحدة. لمح ونبه:

• - آلة الوتر تشبه العود وتتميز بطرب صوتها. اشتهرت بين جبال الأطلس مع مطربين كبار أمثال معمد مغني ومحمد رويشة.

- لكي تعلموا جميعاً، هذه المحفظة هي دستوري وشهادات حياتي المتبقية. ما دونها لا أعترف به، ولو كان مرصعاً ذهباً بشهادات رسمية أو غيرها.

أنتم الآن ستدخلون فضائي الذي تشكله بحيرتي ومدينتي. قد تلاحظون أن أختي سعاد، العزيزة على قلبي، كل مرة، تدعوني للعيش في المدينة وترك القرية. وقد لاحظت أن الأنسة وفاء خلال حوارها معي، قد نقلت نفس الدعوة والرسالة في تساؤل. أشكرها على طيبوبتها. هذا عمق مياهي الجوفية، ستغوصون فيه وستكتشفون أسرارها. لكنني أسألكم: لماذا تأتون إلى هنا أسبوعاً في السنة؟ إذن لماذا لا تقبلون مني زيارتكم أسبوعاً فقط في السنة؟ هذا تنازل مني لزيارة قلوبكم وليس مدينتكم. من عائق قمر هذا الليل فقد عائق مدينتي. مرحباً بكم جميعاً.

- سي علي ولد الحاج سيطربنا من صوت العدن بوترته الرائعة. لكنني، لي طلب ورجاء عنده: أرجوك أن يكون وقع الموسيقى المعزوفة كدبيب النمل أو رمش عين البوم المراقب لجلستنا في عتمة الغابة.

- هه. من سيسمعنا يا خال؟ ساءله خالد.

أعجب الحسين وقع اللقب في نفسه. شعر بسعادة انتماء ووظيفة هوية جديدة. بابتسامة هادئة أجابه:

- سي علي يعلم طريقة تحقيق ذلك.

بين البحيرة والمدينة

وبدأت الرحلة بمقدمة الحسين باصليح وافتتاحيته:

((سأشرع لكم بوابة مدينتي وأوزع عليكم شوارعها وأرافقكم في قراءاتها. كل واحد منكم سيقراً. فهي تراثيلي الداخلية. سأعطي لسعاد حق الافتتاح والسباحة في البحيرة. هل أنت مستعدة؟))

- أهي سباحة في بحيرة ماء أم في بحيرة ورق؟ ما رَحْتُهُ السيدة سعاد وهي ممسكة بملف ورقي تضمن بعض الصفحات المكتوبة، والمُعنونة: على مشارف البحيرة.

- سي علي، من فضلك، ثلاث دقائق تقاسيم قبل كل قراءة.

في البداية تقرأ السيدة سعاد:

- سباحة حياة:

* ((اختار هوايته. افتتن بمغرياتها ومثيراتها. جمال في جمال يكسو ألوانها وروائحها ورقصاتها.

اختارها نعيمه الذي يحقق به سعادته وجنته. كل يوم هو على استعداد وتهيء للدخول في عالمها. يتطهر ويتزين. يخلق أدنى

شعيراته، ويقلم بإحكام أظافره. يختار تسريحة شعره بحسب الفصول، وبحسب سطوع أشعة الشمس واحتجابها.

سطح الماء، يحفظه بتموجاته الهادئة وألوانه المنعكسة. ظلال الأشجار الموزعة على ضفافها، تلقي بأشكالها وأحجامها. أصبح مهندساً لقياس توقيت حضورها وغيابها، طولها وقصرها. قد تشكل جداراً رمادياً قائماً، كما قد تحولها أشعة الشمس بسناها إلى امتدادات فردية. كل مرة يرتسم لونها بحسب قدرة الضياء على اختراق ثانياً أغصان أشجارها وشعابها المنافسة بما سقى من كليبتوسها أو صفصافها، فتجد الأشعة كالسهام المصوبة، الرابطة بين سقف السماء الشمسي وسطح البحيرة المحتفل بالحياة، والتموج مع الرياح وحركات الهبوب ومسه، وقوة دفع أجمات الأشجار المنحدرة من كل السفوح، وسباحة الحياة والرشاقة لأجساد حية تعانق ماءها، تبلل بطهرها وظلها.

رقصات هي بين الشكل واللون والحركة والهواء والريح والأجسام وموازين قوى الطبيعة، تعرف تنوعاً بين الصباح والمساء، وبحسب أحداث المناخ والفصول وحركة الخلائق. لوحة متحولة، متجددة، مبدعة كل حين. يحفظها مهندسنا في الغاب حتى أصبح مدمناً على متابعة سمفونيتها وعرضها الملحمي البديع.

أصبح مكوناً من مكوناتها. إنذارات شجر الميموزا الممتد على طول الضفاف الشاطئية للجهة الشرقية للبحيرة، تلقي بعطرها الاستخباري الدفاعي من بعيد وهو آت في مشيته على مسافة مئات الأمتار من البحيرة. تلتف أغصانها وتستنفر أزهارها

الصفراء المصوفة والمكومة، فيتصلب عودها خشية استئصالها. ورغم علمها بأن هذا المخلوق كل يوم يخرق ظلها باتجاه ضفاف الماء، فهي على عادتها التي قد تنفعاها مع الطيور الآتية أو المهاجرة بسرربها في فصل من الفصول. لكن، مع هذا الآتي العاشق للبحيرة، يمر الإنذار والاستنفار، وتعود لوضع حياتها اليومي البيئي، حتى إنك تجدها مرفرفة في نوسها بوريقاتها المستقيمة الطول في اهتزاز غصني دال على الترحاب والأمان، كأنه تصفيق وتهليل مع الهواء الذي ينقله إلى تلاقي أوركسترا الهواء والماء واللواقح والمخلوقات الصغيرة والكبيرة التي تحلق في فضاء البحيرة وتعانق سطحها في تبلل وهيولى متجددة مستمرة.

إنما عين العاشق وعتاد قصبه صيده على محيا الماء، وعمق الماء.

يفك التفاف أعمدة الكرسي المنثني - أريكته الشاطئية -، يحط وتد مظله الشمسية، يمد بساطها ليحتمي بظله. يصوب قصبه صيده الطويلة. يتعجب كلب سلوقي ماراً بجواره من غياب خيط سنارته، ونقطة غطسها فوق سطح البحيرة، فقط هو ظل ممتد طولا على ملمسها.. يدني أذنيه ويطأطئ رأسه في استغراب، كأنه لم ير شيئا. كأنه يبحث عن شيء. لم ير شيئا. يخاف على قانون صيده البري من عدوى الصيد المائي. بمجرد ما يبتعد بأمطار عن دائرة حضور الجالس على أريكته، يسرع بجريه، في بصبصة، يصدر نباحا خفيفا قريبا من الاحتجاج الأدمي. يغيب وسط الأشجار في مشهد إسدال ستار عن مرور إلى ليل غابوي مظلل، وخروج من نهار غريب الأوتار.

فكر السلوقي حين غيابه عن هذا المشهد، مثلما فكرت الطيور المرادة للبحيرة، والسماك ذو الخبرة الزمنية مع مصيدة وطعم الصنارة، حيث إنه كلما وضع كفه السفلي منبطحا على مقدم قوائمه الرقيقة، كلما مدت أجنحتها في هبوط اضطراري أو صيدي أو تراقص متلاعب مع موج الماء وبساط البحيرة، متجدفة بها مرفرفة، كلما قفزت من عمق مناسب لاصطياد حشرة على سطح الماء، الكل فكر في استغراب حول سر هذا الجالس، وهو العالم بعالمه، الهائم في سره.

تجده في استكشاف مكتشف لأفاق البحيرة، واستششاف واستشراق. قد يقف لدقائق تطول بعض الأحيان معتصما، معتضدا، ثم يعود لجلسته الوجودية المستكينة.

ترى ما سر هذه الجلسة المستشرفة لماء البحيرة؟)).

تَهْمُ الأَنسَةَ سلوى العائدي لقراءة الجزء الثاني الذي ناولها إياه
الحسين باصليح مع قرب انتهاء علي ولد الحاج من تقاسيمه
على آلة الوترة، في صمت يستحضر أعماق الكلام في ليل
بحيرة ويوان.

عنوان الجزء الثاني من القراءة الأولى:

* سباحة حياة - معانقة الماء

((فجأة يعم هدوء نسبي، كأن أهل البحيرة وزوارها في قبيلة
واستراحة. يتمايل ظل القصبية المسترخي فوق بساط
الماء. تقفز سمكة من تحته في حركة نصف دائرية في الهواء،
محاولة ملامسة رأس القصبية، فضولا في اكتشاف الطعم
العالق بها. تندهب لفراغه منه. تعاود الكرة تلو الأخرى،
تحدث صوتا غاطسا إلى أسفل أعماق الماء. تنتشر دوائر
متموجة عاكسة أشعة الشمس، وبريقا في عين هذا الإنسان
الجالس هائما بالبحيرة. تداولت الأعماق السر الغامض لهذا
الصيد المحير. قررت جعل ناطق محاور مخرج من قانون
هذا الاستثناء، لا دراية. ما العمل؟ هل أخذ الحذر أم جعل
الأمان مع هذا الشاذ الذي لا أمان على أمنه؟

- لِمَ لست بصياد عادي، طامع، غانم، محتال، مفترس؟

- لِمَ أت لصيد ولا لطمع ولا لغنيمة ولا احتيالا أو افتراسا.

- إذا كنت رومانسيا، لِمَ القصبية إذاً؟

- أنا عاشق، وقصبتى عربون رغبتى فى نيل وديّ، وصحبة
مختارة، لا منتهزة ولا مقتنصة ولا صائدة.

- ولم اخترت البحيرة؟

- البحيرة أعماق نفوس، ما أردت نزع تعبير عابر، ولا فرض
اختيار كاذب. أردت صدفةً، سمكة، تأتيني بطواعية، لا لأكلة،
أردتها لرفقة. ولتكن رفقة يوم، أسبوع، دهر. يكفيني تحقيق
أمنية. تكفيني للعيش على هدف وأمل ومعانقة إنجاز.

- لكنك تعيش بالهواء، وتجعل إنغاض رأسك بحثاً في السماء،
وهي تعيش في الماء وبالماء. وطلبك سيبقى مجرد أمنية كما
قلت. تحتاج إلى عوم وغطس وسبر أغوار، وبرهان على أمن
وتجانس وأمل وسلم... وأنت مجرد متأمل حالم متفرج...
تحتاج إلى مراقبة الماء، والبرهان على رشاقة أداء،
والمشاركة للحظات عيش الأحياء، بنعيم الهدوء ومخاوف
ارتجاج الأعماق... حينئذ تتجانس، تتعايش، تتطابق، تتجاذب،
تترافق، تعشق... تعشق هذه الطبيعة إن كنت عاشقاً. وهل
أزلت من فهمك مفهوم السمكة لتكون عاشقاً، وأنت بَعْدَ وهيئة
وأهبة صياد؟ خالف منطوق شكلك مضمون قولك. وهل أنت
باحث عن حورية؟ اختر بين الماء والهواء، بين البر والبحر.
عش طبيعة واحدة. حتى تكون طبعك، ويكون طبع العاشق من
طبع معشوقه.

لمل رأسه في إنغاض، يمنة ويسرة... رجّ أشداقه، جحظت
عيناه، حلق في الآفاق. غاب عنه إلهام البحيرة. خلع ثيابه
بأكملها، عارياً، استحم بمائها. جدف بأطرافه الأربعة مازجا
صراخ صوته بنفث الماء الذي أراد اختراق خياشيمه وحلقه.

عاد مرتعشا، مرتجفا. عكست طيور حجلية معانفته للماء. من بعيد في الضفة المقابلة الموحشة بأدغال مستعصية على الخلائق، جعلت تقليدها لهذا المستحم في شاطئ البحيرة الشرقي، وهي في دفٍ ويسفٍ وجدفٍ ورفرفة... راقصت بالماء سربها بأجنحتها، تعالت رشاته في الهواء، بصوتها تابعت موسيقى العوم التي بدأها فجأة الصياد بلا سنارة صيد... تزمّل بفوطة القطنية مجففا بدنه من بلل الماء. قعد القرفصاء.

نهض وارتدى ثيابه، جمع كرسيه ومظلته، تأبط شيئا وأخذ بأربعة أصابعه شيئا آخر... حيا باليد الفارغة آفاق البحيرة وعاد أدراجه إلى المدينة. فجأة، اكتشف أن اندماج روحه وأعماقه لا بد أن يكون مع وجدان وأعماق مدينته. مع تواصل بشري، يشكل هو جزءا منه، يعبر له عن عواطفه، يصادف به مُكملة روحه وبحيرة حياته ومشاعره. شعر بأنه قد عبّ ماء البحيرة بأكمله في بلعومه فارتوى أكمل ارتواء، وصدره مكتمل الهواء في تنفس متماسك مرتاح. لامس الميموزا في تراقص مشي. قبل كفه برائحتها البرية وعطرها الغابوي. استنشق من جديد نفسا عميقا، هواء نقيا. رفع وجهه إلى السماء مغمضا عينيه في راحة شعور، والشمس تاركاً إياها خلف ظهره أفقية الأشعة، مقتربة إلى غروب، وزفزة تلف خطوه بين الحشيش.. غنى وغنى كأنه، كأنه مخمور بماء البحيرة مداما ولحنا وغنى... اخترق شوارع المدينة، بادئا بالتحية والسلام والابتسامة وعشق كل أنام)).

أراد الحسين أن يجعلَ دخولَ المدينة، بعد مناجاة البحيرة والتطهر في مائها، رواية يقومُ بها السيد حليم، كماسك لخيوط الشوارع التي سيتجول فيها الحضور ويتعرفون من خلال جولتهم فيها على معالمها وخصائصها. وكذلك كان. تناول السيد حليم الكلمة والقراءة:

* ((العنوان: عائد إلى المدينة - في شارع دموع مطهرة:

((في شارع ندي، ترقرقت مجوهرات مائية، صافية، دافئة. إنها دموع رحمة مسكوبة من أعماق بحيرة قصية، خارج المدينة. تبخرت، وعرجت إلى أعلى نظرات سمائية، رافقت خطاي حتى شارعي هذا بالمدينة. سميته شارع الدموع. بالفرحة والترحة، بالشوق والحرمان، بالطلب والإعراض، بالتعبير العاطفية والاحتجاج الصارخ الصادق من أعماق البحيرة، هي ذي دموع هذا الشارع، تتساقط رهمة، رهمة. ترافقك في خطوك، وتختلج ذلك، فتمارن حركاتك. لا تكون غدداك جواهر إلا بقيم بحيرتك التي أسقتك من عمق سمائها، ومن علو أعماقها. تقول لها يا سلام! ترد عليك بأحلى وأشهى، وأذكى لياقة ولباقة: يا سلام!

شارعك يبدأ ببوحك من أول خطوة حياتية. في طلب حليب الأم وحصنها. في تمنى لعبتك الأولى المعلقة بالألوان. في خوفك

من أجنبية العالم والبنية خارج المنزل الأسري. في تصديقك لمشاهد مسلسل أو شريط تلفازي أو سينمائي. في بكائك مع من تحب، ولمن تحب. في قضيتك الأولى التي رسمت ألوانها مع نغم فيروز على خشب سرير مخيم نحتت فيه علمها بالأحمر والأخضر والأبيض والأسود. في مسيرتك النضالية داخل مدينتك الجامعية. ها أنت الآن تخرج لشارع المدينة الكبرى. تستحضر رسالة الدمع داخل شارع الدموع. لم يكن الدمع ضعفاً، ولكنه تعبير وإحساس ورد فعل ولغة رقيقة تشحن إرادة وقراراً وتشكل وعياً. تتجاوز به الصدمات، وكل صدمة تفتح باباً جديداً من عوالم المدينة. زاوية مدينة!

تخلصت من حذائك القديم المحمل بأتربة طريق طويل أصبح ماضياً، والذي كان ليله ونهاره يتكاملان في تلقينك دروس حياة المدينة. ها أنت ذا حافي القدمين، أخذت مكنسة ذهبية، ناديت سماء البحيرة:

أرسلني سقاية مطهرة للمدينة، رهمة رهمة! بدأت في تنظيف وتطهير. رَوَّعَكَ اختلاط اللون الأحمر بتراب الطريق. آثار ظلم منسوبة. رَوَّعَكَ مشهد القلوب المسودة، آثار ضغن مغروسة. كنستَ وكنستَ، وكنت الرهمة التي لا تتضب في التطهير. أنت الآن صاحب رسالة، رافعت ورفعت من قدر المدينة، ومن صحبة مرجوة: هل لكم أن تعيشوا بطبقات سماوات داخل بحيرة واعية، ساكنة في نفوسكم، موجهة؟ هل لكم أن تجعلوا شوارعكم سماوات، آفاق غلاً مرغوبة، بصفاء زرقة وبهاء الفضاء، وبطهارة رهمة المعطاء؟ قالوا: وما الرّهمة؟

أنتِ أيتها المدينة، أتعجب لاحتضانك كل هذه المتناقضات، بين
دمعة وجمرة، وصخرة وصرخة، وألم وفرحة، وتخمة
وسغب. أترى هل من مزيد ومن أسرار أخرى بك أيتها
المدينة؟)).

تتسلّم الورقة الأنسة وفاء غانم. تبدأ في قراءتها، وفجأة تنهمر باكية. تتداخل حينها الحروف مع شهقات محبوسة. يمنع الحسين الجمع من مقاطعتها ويفرض الصمت المنتظر للاستمرار. هو طقسه المقدس الذي يريده بطريقته وشكل تحقيقه: شارع المناجاة:

تشارك الإنسانية وتلتقي في مناجاتها وشكرها وعشقها وحبها لخالق نعمة الحياة. توسله لأجل كسب هناء واطمئنان ونجاة من كارثة طبيعة وعقاب.

هذا الإنسان المخترق للوجود والحياة. هذا الإنسان الذي بصنّبه ملأ الأكوان والأرجاء. أي غرور يجعله يتحدى مجهول الحياة؟ كلما تفرغ لذاته ودواخلها، شعر بفراغ خاو يؤرق قصبة هوائه ويثلج دفئها.

بين دروب المدينة، الكل يتجرع من قارورة السؤال والمناجاة. تراه بقناع الابتسامة العريضة، لكن محيا صدره جريح بالأهات. يحمل ثقلا متراكما عبر التاريخ، مع الأساطير والحكايات، مع الروايات والنبوءات، مع طقوس الموت وخضوع الجميع لأوامر السماء. كل له نجمه وسناه. وكل له شمس وضياؤه. الكل تائه في شارع الحياة يبحث عن مناجاة. لا يستطيع الوصول إلى بابها. ينادي وينادي، ويعاود النداء. وحينما يتعب يستريح، يعود إلى الحياة. أعياء السير الطويل. لا محطة وقوف يستريح فيها. أهي حياة دنيا إذا مقابل غليا؟ ما الجواب؟

يأخذ الكلمة الحسين باصليح، وعيناه منتقلتان بين انعكاس
صفحة البحيرة والعيون المتألئة للحاضرين في هذه الأمسية:

((حوار بين الشرفة والبحيرة في ملتقى شوارع المدينة:

ملتقى الشرفة والبحيرة:

لم أكن مدركا سر هذا الملتقى. كيف تلتقي بحيرة داخل مدينة
مع شرفات، تتبادل معها الأدوار وتتشكل كأنها في رقصة
(باليه)، تستحم الذات بحركة البحيرة ثم تصعد لتناول بمرآقها
أفاق السماء لتشرف على أسفل وعلى الذات الأخرى بنظرتها
المتماوجة مع جاذبية الجسدين واندفاعاتهما المتلاحمة
والمتناغمة مع لحن الحياة.

الشرفة شرفات، والبحيرة بحيرات. كل مرة يخترق الموج
الدواخل فيقلب الأعماق لتصبح مندفعة إلى أعلى وإلى أمام،
ولتطوي الأعلى إلى أعماق. كل مرة أكون فوق شرفة أرقب
الشارع وملتقياته. أتأمل أحوال الأنام. أصوب نظري وأرسم
عالما للآخرين. وأتساءل: ما الذي يفكر فيه الآخر؟ لعله يريد
جوابا عن السؤال؟ أبحث وأبحث، وأنتقي مجموعة حوارات
بين شرفتي وبحيرة ما، وبين بحيرتي وشرفة ما. على الأقل كم
من شرفات علقت نظري أنا كذلك حولها. حاورتها استيهاما،
أو إنني استطعت بلحن الآلة الموسيقية وضياء شمسي في

سما عيوني أن أجذب نظر المتفاخرة بطلتها وإشراقها الشرفية. قد نتساوى أرضاً، وقد أتسلق شجرة الحياة لكي أتربع على كرسي عرش الشرفة البهية التي تحقق أحلامي الشخصية.

لم أكن أتوقع أن تسرح البحيرة في شوارع المدينة، وأن تختار اليايسة لكي تنشر غسيلها، وتعرض دررها اللامعة، وتتباهى كما تتماهى برقصة ممتزجة مختلطة بين البحيرات. بحران يلتقيان، ماءان يمتزجان، وكل مرة يريدان الانفصال حتى يتباينا ويتماجدا ويتفاخرا، كأنهما في لحظة بينهما برزخ لا يبغيان. لا يبغيان ماذا؟ هذا التواضح والتمازج. على العموم بين شرفتين وبحيرتين، يتم هذا التلاقي. زمن هذا الشارع لا ينتهي. كل لحظة يسجل أحداثاً تاريخية جديدة.

سأنقلكم إلى شارع العرفان. وأترك ملتقى المحاوره حتى تكون حاضرة تلك المحاوره، ما دامت لا زالت على قيد الحياة)).

ويلج الحسين باصليح شوارعه بقراءة أخرى:

شارع العرفان

مررت على معبر الوجود، حيث المدينة تنبسط لأفاق سماوية، يرتفع معها الصعود في هذا النهج العرفاني الفسيح. الروايات

معروضة للقراءة. وكأنك في شريط سينمائي ساحر، حيث تتناسخ وتتجدد الأرواح بمجرد ما تفتح صفحة من أحد هذه الكتب العجيبة المعروضة.

نهج العرفان لا يعترف بقانون الليل والنهار. سير طويل لا ينتهي. أغلفة كبيرة الحجم تزين جوانبه وأرصفتها. وألحان منظومة بالحروف تنتظر من يطرب بها. ضوءه مستقل في تنوير العقول والأبصار والخطوات.

تخترق كل لوحة أعجبك اكتشافها. لا تحتاج إلى فتح باب ما دام الدخول اختراقاً عبر الصفحة الأولى، وها أنت في بحر كبير يبتلع بحيرتك الصغيرة.

- اللوحة الأولى:

عالم روحي شرقي بألوانه القرمزية، وكيمونوه، ومسرح النو الياباني. الروح الأولى، تنقلك من الجزء الأول إلى الثاني: باب الجياد الهاربة - رسم الروائي يوكيو ميشيما. وهب روحه لكلماته. بمجرد ما انتهى من رباعيته حتى منح روحه للممثلين الذين شاركوا في مشاهد روايته. إنما القارئ للوحة - الرواية، تنجذب روحه إلى تناسخ أرواح الأبطال. فتخترقه روحهم ويصبح مفكراً بلسانهم، ناظراً إلى العالم بعيونهم، راسماً مراتب الحياة بذوقهم. قد تنوب عنهم إذا أتوك في حلم منام أو يقظة في التعبير أو التنفيذ الفعلي لما أرادوه في تلك اللحظة. باسمهم تتكلم وباسمهم تفعل. من أنت؟

ابحث في الباب الثاني للرواية - اللوحة، تجد في العنوان رقم 273: "وعي الأليا". تناسخ الأرواح. ونشاط التناسخ هو "الكارما" الخاصة بهذا الوعي وأصل الأشياء الأولى.

إنها تجربة بوذا التي ناب بها عن الإنسانية في رياضة الروح والتناسخ. ها أنا أغامر داخل هذا السفر الروحي مع أرواح تزورني أو أزورها. تحاورني وأحاورها. أسجل بذلك حياة لها، تعبر هي بلساني كلما رأيت الحاجة لتبليغ رسالة أو الاحتجاج على أمر ما. تقوم بعملية "السامسارا"## كلما رأيت الحياة في حاجة لتدخلها.

ميزة شارعي هذا أنني لا أسافر إلى الما وراء، بل الما وراء الخفي يأتيني إلى شارعي.

شارع العرفان هذا شارع أرواح إذن. سأطرق أبوابها وأحاورها في عالم غيبها وموتها وأزمنتها القصية وأمكنتها البعيدة. ليس هناك زمان ولا مكان. ليس هناك ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل. اللسان ملك جماعي. والتفكير سفينة تبحر فيها كل العقول وتتقاطع فيها.

الباب - اللوحة الثانية

(عزازيل) : تشكيل يوسف زيدان:

الأرواح المعروضة للتناسخ، والتي هي مستعدة لمرافقتك في عرفان تلو آخر، هي هيباتيا العارفة، إسكندريا المدينة. استطاعت هيباتيا أن تنزع من روح حروفي نظما تبعث به روحها الغابرة، وتحتج به على مظالم التاريخ وعذابها. أذاقتني بغرامها تجربة موتها وعشقها وتفكيرها.

- السامسارا : هو في البوذية يدل على دورة الميلاد، التي يترتب عنها الانحلال والموت وقد ترتبط بالمعاناة وربما تكون نقيض النيرفانا.

أصبح فؤادي ناطقا وعاشقا لها. تَلَوْتُ مرثيتي وغزليتي دون أن أستطيع الخروج ما دام قلبي بقي معها. امتزج الروحان معا، لا فراق بينهما ما دامتا عاشقين رغم مئات السنين الفارقة بينهما. باح لسان الحال قائلا:

صرفت القلب عن باب هواك أتاني إعصارا من فوق سماك
وضبت الرحيل عن ديار قلبك تُرى كيف ارتحلت ديارى فيك

...

وتسكن المدينة في عالم هيباتيا. شرطها في عشقها أن أعشق مدينتها. شوارع مدينتي فضاء كل العالم، وكل الإنسانية. وفي داخل قلب هيباتيا وقلبي تسكن مدينة من زمن الآلهة الغابر(الإسكندرية). ها هو قرباني وعربون محبتي للقلبين داخل شارع روك وروحي، محبتي لقلب مدينة أردتها بسعادة ومعرفة وعرافان)).

كانت القراءات في جلّها متوسطة الطول. لكن ما ساعد على متابعتها هو هذا السمر وهذا الطرب وهذه الجلسة التي تجلب الدفء للمقرب من دائرتها. وكل واحد سافر مع فقرة أو فقرات مما سمع. حاولت وفاء خلال كل ذلك أن تكتشف شخصية الحسين باصليح. ألمتها ذكراه وتذكره لأخيه زكرياء.

((باب أخي زكرياء ، في شارع العرفان:

أفتح قوسا قبل متابعة القراءة، لأبين لكم أن زكرياء أخي الأصغر توفي وأنا في المعتقل)

رافقت الروح الطاهرة دون التي هي مريضة بسوء الوقع. أيقظني من غفوتي على سرير النجمات، صوت من بعيد ل(يوكيو ميشيما) :

- ((ليس هناك شيء إلا نواة مراوغة للغاية في قرار نشاط عقلي، شيء يرتبط بدواخل دوران دولا ب الظواهر المحيطة بالميلاد والموت المستمرين اللذين يصاحبان تناسخ الأرواح...)) الوعي وحده: وعي الأنا •.

عبرت الرصيف لمحت باب زكرياء. حاورته وحاورني، دعاني إلى تسجيل اللقاء، إلى عرضه على سكان المدينة. جلست متأملا، لمست خيوطا من سحب السماء. نسجت بها صفحة حريرية. كان مداي رحيق عسل محبة ذهبي. نثرت الحروف فإذا هي تنسكب على بياض: سأجعلها قصة محكمة بإخراج مشهدي)).

وتتناول في هذه اللحظة السيدة سعاد الكلمة باسم أخيها المتوفى زكرياء:

• - رواية الجياد الهاربة للروائي الياباني يكيو ميشيما (ص 273/ الجياد الهاربة).

((الحب في الوجدان:

هذا الصباح، فتح الذهن نوافذ اشتغاله استعدادا ليوم جديد من العمل التشاركي مع الحواس والجسد والبيئة والمحيط. حكيم هو هذا الذهن في تأنيبه وتهيبه لمختلف مكونات طاقم الحياة الجديدة في اليوم الجديد. بقي الجسد مسترخيا داخل دفاء الغطاء، ممتدا براحة ليلة من عمر. لكن الكل يعلم أن الحركة آتية، أن دوران الدم في الشرايين يحتاج إلى حلقة نهائية جديدة يجدد فيها الخلايا والتغذية والوظائف المختلفة لهذا الجسد الحكيم كذلك. فالكل حكيم في إبداعه وتكامله.

هذا الصباح، سافر الوجدان مع الأرواح. وما الوجدان سوى طبقة عميقة في النفس والذهن، حيث يستقر المرغوب والمحبوب مجردا في الذاكرة، مرتاحا له حرس العواطف والمشاعر، محافظا على التوازن وعلى الرغبة فيه داخل شخصية صاحبه. إن كان هذا هو الوجدان، أعماق أعماق، حيث اللؤلؤ والمرجان، بعيدا عن المثيرات السريعة التي تحدث الانفعال، أو تغيير مع الحال، فهو في قرار مكين، على حاله غال ونفيس.

هذا الصباح، سافر الوجدان مع الأرواح، استحضر المحبوب المرافق في الوجود سواء بالجسد أو بالروح.

....

يكفي الإنسان، وتكفيه شقاوته في الحياة، حصول النسبي فيها، إخفاقه وعجزه عن تحقيق كمالها. لا أحد استطاع الكمال والخلود فيها. فلم هذا العناد وهذا التصيد لإغراقه في رذائلها؟

ولو كان نصفه غارقا في وحلها، ابتسم له النصف الآخر، ودعا للحفاظ عليه، وساعده للخروج، وعلى تطهير نصفه الواحل فيها. وبعدها لا لوم ولا عتاب ولا حساب.

هكذا ستكون إنسانا يعيش في الحياة وبعد الحياة. يعيش خالدا ولو واريناه التراب. سيقطن في وجدان كل واحد فينا، وسيعيش سعادة أبدية وأمنا روحيا، لأنه لا يتأثر ببرودة أو حرارة، لا يتألم بمادة. إنه كماله الذي وجدته فينا. وهنا سر بناء الحضارات. ذلك أن الأفراد تخلد بما أنجزت من فضائل الأعمال، لا بما كسبت من مال وبنين... هكذا يسكنني كمال أخي زكرياء، تسكنني سعادته التي يعيش فيها)).

أن تقرأ نصا فتسكنك روحه وشخصياته، ذلك ما وقع لكل قارئ وقارئة في هذه الليلة الساحرة والعجيبة. لعبة ذهنية أو فلسفة تفكير. كل واحد أولها بطريقته الخاصة ونوع ثقافته وإعجابه.

لاحظ السيد حلیم ذلك الابتعاد التجريدي عن العالم الواقعي، وعالم العمران والمدينة، والذي لا يتحقق إلا بحياة موضوعية وواقعية، ومع نفسية تحقق التوافق بين هذا وذاك. لكن، أن تصل درجات الرومانسية والتجريد إلى هذا الرفض لمجموعة من خصائص المعاصرة، فذاك ما لا يعتبر مسألة عادية وطبيعية.

ربما أنها اختيار وحق يجد فيهما صاحبهما متعة وتلبية وسكينة ودرجات توازن كبيرة. وهذا يوافق مبدأ التسامي الذي يربطه مع عالم الإبداع. لكن، ما هي درجات وحدود التسامي المؤدية إلى الإبداع؟ متى ننزل من علياء إلى الواقع؟ وما هو الوقت المناسب؟ وكيف يتم ذلك؟

في وضعية الحسين، يعلم السيد حلیم السيد أن هناك نصوصا أخرى عنده أخطر وأندز. أما هذه فهي نعيم ثقافي وغنى فكري داخلي، مرتبط بقراءات وأحاسيس عاطفية ووجدانية، الكل سيغبطه على ثقافته وسعة علمه ولغاته التي يعلمها.

احترار السيد حلیم. كيف يمكن للكتابة أن تجعل نفسية صاحبها تطفو بجميع طبقاتها على سطح الوعي والتفكير والشعور؟ وهل يمكن للإنسان أن يعيش متوازنا مع حضور جميع متناقضاته؟ بين شكه ويقينه. حبه وكرهه؟ كلٌّ في آن واحد؟

هي عناصر تقرير الطبيب بدأت تختمر في ذهنه. ربما سيكتبها في الصباح. لكنه قبل ذلك أراد ان يُسائل الحسين:

- هل يمكن أن نعتبر هذه النصوص مرتبطة ببعضها البعض؟ رغم المدة الزمنية الفاصلة بين لحظات كتابتها؟

- ما دامت بحيرتي، فهي من مكونات بعضي وكلي. الارتباط تكامل، وهذه قد يقع فيها التكامل وقد يقع بينها التنافر. ما أدرانا هل الكون في تمدد مستمر أم في انكماش ما؟ كذلك الدواخل قد تلتقي وقد تتبعد.

- حين القراءة، ما هو التغيير الذي يقع في دواخل صاحبها؟ طرح السيد حلیم سؤاله مُعمّما.

ساد صمت جميل مناخ الجلسة والليلة. ذبذبات الوتره مستمرة ومتقطعة. بعض الرموش غلبها النعاس فبدأت تستسلم لتغميضة أو غفوة مريكة مع رغبة الاستمرار في اليقظة. وجد الحسين عناصر إجابة جديدة، بعد أن فكّر في أبعاد واختيارات السيد حلیم لأسئلته:

- أظن أنه ومن خلال تجربتي الخاصة، القراءة كتابية متجددة في الداخل دائما. وأن النص يأخذ صفة الخلود بدرجات صدقه مع الذات. أما الطفو على السطح، فكلنا نمتلك خصائص تصفية نوع الفكرة والكلمة والسلوك الذي نريده متمظهرا. أما

ما طفا عندي، فإنني أحاوره وأجادله لكي ينتج تناقضاته وجديده.

الإيمان بوجود الله ومناجاته إلى جانب حفر سؤال المجهول في الوجود والشك في كل اليقينيّات، مسألة أعتبرها طبيعية. لماذا أجعل عداوات مع أفكاري؟ ما دامت تحقق طرقاً جديدة للتواصل والنقش على صفحة العدم الذي ينخر الحياة. فلنعانق كل عناصر التفكير بحب وعشق في المعرفة، لا خوف وتدمير للذات من خلال الشعور بالذنب.

ربما المعتقل قد جرّب الخوف المادي. ربما المحكوم بالإعدام قد قام برحلة غلغاميشية في لحد الزنزانة النفسية قبل أن يعود بنسبية كل شيء. لماذا لا نترك للكتابة وتراتيل قراءاتها تنعم بذلك الشعور بالخلود؟ هذا ما تبقى لي أنا على الأقل.

تابعت السيدة سعاد هذا الحوار. أنذرها بذلك الألم في الشعور الذي قد يحضر شقاوة الفكر عند أخيها. لم تستطع إلا أن تبارك درجات تجريده وعشقه، حتى احتمالات تغيير جديدة.

- سعاد !

- نعم الحسين؟

- ما بك صامنة؟ عبّري لأخيك عن رأيك.

- أشعر بمتعة الليلة وسحر قمرها وبساط ريحها الفكرية. لذلك أسرني موضوع (الأليا) كسفر روعي. لا أظنني قرأت عنه من قبل مستقلا كمصطلح، ولا كتبت عنه في رسائلك. تُطِيعني دائما على جديد قراءاتك. أريد أن أمتطي مركبة رحلتك.

كانت تريد قول شيء آخر، لكنها لم تستطع ذلك. خافت من جرح مشاعر أخيها: (علني أمتطي مركبتك لكي أعانق وأصالح روحك أنت أخي وحببي. روحك المنفلتة من قبضة الحب والحنان والرافضة لبديل حياة أخرى، داخل العاصمة الرباط).

هي تعلم أنها لا تستطيع السفر معه في رحلته، مثلما أن الإسراء كان خبرا عاد به النبي من رحلته، والبحث عن نبتة الخلد شعرا خلد لغالغميش وأنكيدو ملحمتها.

- والآنسة سلوى، ماذا تلاحظ أو تضيف؟ سألهما الحسين.

- أنا سأكتفي فقط بترجمة بعض صور البحيرة المتخيلة إلى لوحات. أعجبتني كثيرا.

- جميل من فنانة أن تترجم أفكارى إلى رسم. خلود رائع.
- لا تنسَ أن الأنسة وفاء كاتبة كذلك. تعلق منبهة السيدة سعاد.
- صحيح؟ وتركتمونى وحدى أناشد وأجذف فى نهر العدم. لآبد
أن تُسمعى القمر والبحيرة ما كتبته.
- إننى أشعر بخجل لا يريد أن ينافس أمير البحيرة المتوج
بنصوصه الفلسفية. وكتابتى جد متواضعة. أنا فقط أتمرن
معها.

- كلنا نتمرن على الحياة يا أنسة. أسمعينا من بوحك.
بحثت فى حقيبتها اليدوية، داخل أجندة صغيرة، وجدت ورقة
صغيرة مطوية، احتفظت بها من لحظة جلسة ليلية منعزلة
خُذتها بالكتابة:

{أنا وهج وضياء. لا أحتاج إلى أشعة شمس فى السماء. أنا
طاقة بدون نار ولا دخان. لا تنقد بحرارة حمياء.
فى دواخلى هذا اللون الزاحف على عتمة الليل والكون وبريقه
الخادع. أسكن فى أفاقٍ خارج مدار الليل والنهار. لا أهاب
الصمت، فهدوؤه لغتى. أما ضجيج العالم فلا يعنينى مهما
اصطبغ به من ألوان.

أنا شعور يسكن الأنفس وحيث لا حياة سوى حياتى. لا أبالى.
يتسابق الكل إلى تنويج. الشمس فى الأعلى. والقمر بالليالى.
لكنى لست من نور هذا ولا تلك. أعيش خارج المدارات. هذا
حالى.

حتى لو اقتربت ساعاتي وحتمي، فإنني أجدد الخلود داخل وعيي. يكفيني لكي أستفيق، فالسعادة لحظة نطلب منها ألا تغيب.

ها أنا ساهرة في حمى مشتعلة. لا أدري أي ركن في الجسم أطلق إنذارها، أو هي احتفالية على طابق خارج المدار، تجرّني وتجردني من كل الطاقات والذكريات والحاجات المادية الأرضية.

كلما اشتعلتُ، زاد بحثي عن كتب المنطق وتحليلاته المجردة والمعقدة. ينقش العقل بأدواته على صخر العدم والمجهول، يشق في جدرانه لكي ينفلت نورا أو هواء أو ماء أو أملا، هو مفتاح سعادة الحياة. أنقش بخيط من حرير ناعم لأن المطلق والكمال أمران بسيطان، ونحن نعيش المعقد في الثقافة والمجتمع.

أستمع لبسمتي وأغترف منها سُكري ونشوتي. أسافر ممتطية جناحيها في كون خيال. تراني المالكة والملكة والممثلة. لكم الاشتقاق والشكل، ولي جذر المحال.

في ذروة الحمى، وقوف على حبل وخيط أثير، بين الوجود والعدم، والنفي والإثبات، والخلود والفناء. أرى الخلود اختيارا والإثبات قرارا، وما بينهما كوكبي سيّار.}

انتهت الأنسة وفاء من ورقتها الأثرية. مع نبرة الوتر الأولى اقتحم صوت الحسين مشهد الكلام:

- يا للروعة. هل سمعت يا دكتور هذه الجمل القوية؟

(ينفش العقل بأدواته على صخر العدم والمجهول).
(أرى الخلود اختياراً والإثبات قراراً وما بينهما كوكبي سيّار).
- يا سلالا لالالام. أتنازل بقلمى لصفحاتك يا أنسة وفاء. وتزّ،
وتزّ.

تغيب آخر نغمات الموسيقى المعزوفة مع هدوء الليل
واستراحة الأنام، وتنتهي هذه السهرة العرفانية لضيوف
الحسين باصليح. كما تخلد مدينته إلى عوالمها التي لا تنام
بدواخله. وكان القرار هو الرجوع للقريّة غير البعيدة في عز
هذا الليل الذي أطل على وفاء بلون لازوردي حيّاه ضوء القمر
اللجيني.

أن يعلم ضيوف الحسين باصليح أنهم كانوا تحت رعاية أمنية من بعيد، ذلك ما لم يستنتجوه إلا حين تأهبهم لمغادرة مكان النزهة والسمر الليلي الذي تحوّل إلى سمر أدبي بامتياز.

غلب النعاس جفون البعض، وبمجرد ركوبهم في السيارات الحاضرة ارتمى جهم في غفوة بينما بقي السائقون منتبهين مع خط الطريق الإسمنتي المرسوم في جوف العتمة وأشباح جذوع الأشجار المستقبلية لنور مصابيح السيارات الهاربة كسهام تخرق أطلال الغاب.

فبمجرد ما انطلقت القافلة راجعة إلى القرية كانت الإشارة الضوئية التي أعطاها سائق السيارة والذي يجلس بجواره الحسين باصليح. خرج من باب الإقامة الغابوية الخاصة بمديرية المياه والغابات السيد (موحا باري) صديق الحسين في الدراسة والذي كانت دورية مصلحته بالجوار مخبرة إياه بمغادرة الضيوف لمكان اصطيفاهم. دورية تراقب طرقات الغاب ونظام الصيد بالبحيرة والقنص، وكذا شرعية استغلال الخشب والحطب والفحم بدائرة (ويوان) الغنية بالثروات الطبيعية.

بلبسته الخضراء الداكنة، والتي مالت إلى سواد مع ظلمة الليل، وقبعته الرسمية التي ألفها فوق رأسه ليل نهار، كان السيد

موحا واقفا باستقامة بدت معها بنيته الصلبة والمجندة لمهام الغاب والتوغل فيه. ومع توقف حركة السيارات انتبهوا لذلك الحوار الجاري بين الصديقين في عز الليل. وكذلك لهدايا موحا للمجموعة والتي كانت سلة سمك طري مستخرج من أحواض التربية الخاصة به. توديع وتمنّى للسلامة وتكرار الزيارة. كانت معه الساعة مشرفة على الثالثة صباحا. كان نسيم الجبل هواء باردا ومنعشا وصحيا شعرت معه صدور الضيوف برحابة تنفس وتغذية رئاتهم، قارنوا من خلال ذلك بشكل حدسي أو حوارى بين هواء الجبل ورطوبة الشواطئ الثقيلة والخطيرة على صحة الإنسان. كفاه الحسين ما سمعه من بعد حول هذه المقارنة ليدعم نظريته حول المدينة والعمران وليدافع عن اختياره في العيش في الجبل. لا يهمه في تلك اللحظة الحديث أو استحضار العوامل المرتبطة بالاعتقال والرفض لحياة مؤسسات مجتمع رماه في العدم قبل الأوان.

أطلال المنازل شكّلها القمر المرتمي على حافة الغياب في اقتراب فجر الصباح الجديد. فتحت وفاء خلال ذلك جفنيها على حلم يقظة مستقبلا إياها في روح القرية التي يسكنها طيف الحسين وثالا. أما سكانها فكان التعرف عليهم للغد الآتي.

كان اللون اللازوردي هو ساعتها البيولوجية التي تبرمجت على معانقته بصريا كلما لاح في مشهد ليلى جديد. لكنه هنا كان متميزا وقويا في رسالته. فأن يكون اللون مخاطبا روحيا ووجدانيا لعاشقه، ذلك كان حال وفاء في رومانسية وجودية يعيشها فقط البوهيميون والبوهيميات الذين راقصت أحلامهم في مرحلة المراهقة والحياة الجامعية.

غمرتها فرحة الاكتشاف الجديد، كأنها في تعرف على عالم لم يطلع عليه الناس من قبل. شكرت قدرها الذي سنح لها بهذا المشهد غير المتكرر. استسلمت للآتي بعده في اطمئنان.

ارتوت الصدور بأكسجين الفجر الجديد في انتقالهم من داخل السيارات عبورا لساحة المنزل المفتوحة على جنان متفرقة الأشجار وعلى منحدر مطل على سديم سحب يغطي منحدرات الغاب والهضاب المتماوجة أسفل قرية تيمليت.

وكان الصباح استيقاظا من نومة محتفلة بعالم السمر الفني والأدبي، وبأصوات القراءات التي اخترقت مشاهد الأحلام التي عقيتها. صباح فاجأ الضيوف بأطلاله و منظره القروي. اغتباط زاده الجلوس على مائدة إفطار حضرتها ثالا خصيصا للضيوف، كان قد سبقهم لها من لم يسهر إلى آخر ساعات الليل، السيد عماد الغالي والآخرين.

أما الحسين، رغم سهره، فقد كان استيقاظه باكرا كما المعتاد، وكذلك استحمامه وجولته بين أشجار الجنان المحيطة. ساعته من حصة المشي التي ألفها كطقس شعائري خاص به ، كانت سر صموده أيام الاعتقال. لكنه اليوم عامر بالحياة. كأنه أجّل فلسفته ما دام عنده ضيوف الآن. لا بأس إذن من تغييب ناموسه الوجودي الذي فصل بينه وبين مجتمع غبنة في الشعور والإحساس قبل الحقوق. هو يدرك غضبة الطفل بدواخله كيف هي، وما تحتاجه لإخراجه منها. وقد لا يعلم كيفية الخروج. ربما صدفة أو إشارة تغبط نفسه.

في عودته إلى مائدة الإفطار، كان جل الضيوف مستيقظين، باستثناء الشباب الذين لم يستيقظ منهم سوى حسن وسلمى.

ارتأى أن يستغل جلسة الجمع من جديد في لعبة ثقافية هي
رأسماله في الحياة وجرعته في الفكر حتى لا يعيش اللامعنى
الذي نظمه قصيدة علّقها داخل غرفته منذ دخول شهر أبريل
من هذه السنة. تقول قصيدته التي سيأتي بها ملفوفة في جلد
رقيق يبدو أنه أثعلب اصطاده قدر الطبيعة مع الأنام، وسيلقيها:

هذا الشيء يسكنني في اللامعنى

يفجرني في ذاكرة العدم

في الجوف يصرخ بصوت الفراغ

هأله صمتي

هاله استرخائي على قوس السؤال

كلانا غريب عن الآخر

قريب من قبس المحال

يمتد موجا

يتصاعد ماسكا بحبل الخيال

هل نروي بعضنا

بحرقة

تتدحرج بين نقص وكمال

الاتهام متبادل

...

جدار اللاجدار

رحلة سفر هي ،
في اللامكان
و في معنى الإنسان...!

بعد انتهائه من القراءة وبعد تحية الجمهور، وقبل أن يجلس لتناول الفطور، أهدى قصيدته للآنسة وفاء. لاحظت حين تقبلها واستلامها انفتاح فاهِ ثالا المندهشة لما يقع. غيابها عن السمر الليلي وسّع من دوائر الاستفهامات في عقلها، وأسرع في رد فعلها:

- أين هي الهدايا الأخرى لباقي الضيوف؟ هكذا أقحمته بسؤال يتضمن الاستفسار حول السبب في تخصيص هذه الآنسة أو السيدة بهدية دون سواها. وهي تعلم مدى حرصه وتمسكه بمحفظته وبكل ما يكتب. والرقاع المُهدى، أليس جزءا من المحفظة؟ كان السؤال حطبا أشعل نيرانا داخلية فيها. مزيدا من الكرم إذن. سلاحها في إزاحة هذه النيران واستجلاء الأمر الخاص بالمرأة في مملكة عشقها.

يتميز منزل عائلة باصليح بموقعه الاستراتيجي والهام بين طريق الغابة الصاعد للجبل والذي يحاذيه شرقا، ومجرى مياه العين الشهيرة بجودتها وخفتها وتسهيلها لعمليات الهضم وإنعاش الجسم. ذلك أنها عرفت زيارات واعتمادا خاصا من طرف الساكنة ومن يأتي لزيارة القرية. الجل يحب ماءها ويعتقد بقدراته الشفائية. والجل كذلك يغبط هذه العائلة التي تسكن بالقرب من منبع الماء الشافي. امتداد ساحة المنزل التي تحيط بها أشجار متنوعة وبنائتان متفرقتان بين زاويتين منها. الأولى بمحاذاة الطريق البري، وهي المدخل الرسمي للمنزل. بجوار المدخل الفسيح، كساحة خارجية، بقايا هيكل شاحنة قديمة كانت تستعمل في نقل الفحم الخشبي لعقود خلت. الآن هي رمز للذكرى والتعاليق التي تحت على التعجب والاستفهام. حينما يسأل البعض عنها الحسين باصليح، قد يجيب ساخرا أو مازحا: لقد شاركت في حرب العراق الأولى.

البناية الثانية صغيرة نسبيا. حينما هجرتها أسرة سائق الشاحنة، بقيت فارغة إلى أن عاد الحسين من اعتقاله واستفاد من عفوه. أراد خلوة اعتادها نفسيا. ترك بيت الأسرة الكبير الذي تقيم فيه عمته (بزة) وابنها (صالح) الساهر على مصالح وممتلكات العائلة، والذي يبدي حبا واهتماما مخلصا لأولاد خاله جعلهما يفوضان له الأشغال مع الأتعاب. هكذا يقضي الحسين بعض الأوقات مع العائلة قبل أن يذهب لخلوته التي

ليست بزنازة مغلقة. بالعكس، منزل بطابق علوي. سفلي بغرفتين كبيرتين ومرفق حمام ومرحاض، ومطبخ فسيح له باب أخرى على الساحة الداخلية. أما الطابق العلوي، فهو كذلك غرفتان مطلتان على منحدر الجبل وامتدادات أشجاره وتلاله البعيدة. ومادم منحرج الطريق البري والغابوي يمر بالجانب الشرقي للمنزل، فإنه ينزل مع المنحدر ليؤدي لباقي منازل القرية المتفرقة بين جنباتها ومساحاتها المعلقة مع الجبال، فيعطي منظرا بانوراميا جميلا ومتشكلا. أما مركز القرية فهو في أسفل هذا المنحدر بعد ثلاثة منحرجات انطلاقا من بيت آيت باصليح.

هكذا اتخذ موقع آيت باصليح رمز التماس مع مجهول الغابة الليلي الذي يخيف بحيواناته أو عمليات تهريب وسرقة أخشابه من الغابة. كذا رمز العلو ومحاذاة القمة، والذي صادف استفادة ولدي باصليح من تعليم ومكانة اجتماعية. إذ إن ظروف الاستفادة من الدراسة والنجاح فيها تكون بصعوبات وإكراهات موضوعية، تحول دون القدرة على الاستمرار في الدراسة. لكنهم هنا يجدون بنتا أستاذة بالعاصمة الرباط، وابنا بطلا رمزيا وكاريزميا للقرية بعد أن كان مهندسا فعاد من حكم الموت إلى حياة. الجل يحترم فلسفته ولا يعلق عليها أخلاقيا. كأنه حق استثنائي في الممارسة لا يكون إلا لمن مرّ بتجربة الحسين باصليح. لكنه حق يمارس بامتياز. نخبة اجتماعية تعيش يسر الحال المادي والمجالي، وكذا العلائقي. أبناء عمومته في مناصب سلطة وجاه كذلك. معارفه في مراكز قرار ويأتون لزيارته ببذلاتهم وسياراتهم الرفيعة. إنما الحسين فلسفة غريبة مستعصية على الفهم كما على التطويع.

حينما تكون الحياة داخل فضاءات وممتلكات خاصة، تنعم فيها الذات بحريتها وأخلاقها الخاصة كذلك. وهو الأمر الذي تشعر به ثالا مع الحسين. فزيادة على العوامل الشخصية التي شكلت ذاتها وعلاقتها، تعلم بحدسها أن كل هذا النعيم المتمرد داخله، مرتبط بالفضاء الذي يوجد داخله الفرد وبالإمكانات وعلاقات الاحترام التي يقيمها مع الناس.

حينما تكون في الطريق داخل القرية، ذاهبة إلى غرض أو اتجاه ما، وتلتقي ساكنتها، تجد (ثالا)، كما الحسين، في سلام يحترم الكبار ويقبل رؤوسهم كما أيديهم، ويطلب الدعاء والبركة منهم. يزيد الناس سعادة بهذا التقدير.

ربما هذا ما ساعد الاثنين على الاستمرار في فلسفة علاقتهما التي هي خارجة عن المؤلف. خصوصا وأن مناطق عدة من البلاد قد عرفت مدأ أخلاقيا مرتبطينا بمرجعية دينية متشددة وثائرة على السلوك الاجتماعي المتساهل مع اقتصاد الجنس وثقافته. تضاربت الآراء حول هذا المدّ الجديد، واحترار البعض في تقبله من رفضه. ذلك أنه يستأصل ولا يعالج. والخطورة هنا أنه يهلك الناس ولا ينقذهم. وهناك من يتوجس من برامجه الآتية في التحكم في الرقاب وحكمها بأحكام غابرة باسم الدين والأخلاق.

لا يريد الحسين الخوض في هذا الموضوع، رغم التساؤلات التي يطرحها في دواخله حوله. ورغم الأسئلة التي كانت في مناسبات حوارية مع إعلاميين صحفيين أو مع معارف له. ما باح به مرة لمقربين له من أصدقائه:

((ليّ هامش فردي من الحياة قصير الأمد، لا أريد أن أضيّعه في مناقشة وصفات خوف وترهيب. أما الناس، فجدليات حياة. لا بد لهم أن يواجهوا بعضهم بعضا لكي يحققوا تغييرا متوافقا مع قدراتهم. لا أستطيع مساعدتهم الآن. أنا في غياب رغم الحضور. أنا من فئة ملحمية عادت من الموت، وضحت من أجل حياة الآخرين)).

((بماذا اعترف الآخرون؟ وبماذا ردوا جميل موتنا؟ وجلنا ممن بقي معلقا في هذه الحياة يعاني من أمراض مزمنة أو نفسية وعقلية. بعضنا مشرد في الشوارع. إذا ذهبت إلى مدينة مكناس أو صفرو أو غيرها من المدن المغربية، لاحظت من يهيم في شوارع المدينتين ولا أحد يكثر لحالهم: هه... كانوا في السجن. هم سياسيون خرجوا من السجن. الذي يخاف ينجو. هكذا يفرون من الإنصاف إلى دخول قفص الخوف، كالحبوان الذي رغم أنك تفتح له باب الحرية يهابها ويرجع للقفص. كذلك حال الناس، لا يقدرّون على حرية كاملة. لذلك فإفرازات الأخلاق هي تسييج نفسي لذواتهم. عليهم أن يحرروا أنفسهم!!))

في فترة من الاعتقال، انكب الحسين على قراءة ودراسة الأساطير. كأنه كان يُحضّر نفسه لعوالم ما بعد الموت. لكنه وجد داخلها عناصر الخلود وكسر جدار الجهل حول الحقائق الغيبية. فالغيب غيبيات إذن. لذلك اعتبر نفسه كما في قصائده (بطل غلغامش الذي عاد ولكن بدون نبتة الخلد). واعتبر ثالا (ليلات) التي عانقت الغاب رافضة مهمة آدم في الوجود. فبنى أسطرته الخاصة أو أسطورتَيْهما التي أشركها فيها. ومن أجل أن يداوي جراح ولمم الغيرة التي بدت في سلوكها هذا

الصباح، استحضر عدّته الورقية من جديد، واعتذر للجمع في إعادة إقحامه في لعبة القراءة. لكنها هذه المرة بإنصاتهم فقط. قبلها دعا الشباب إلى الاستفادة من جولة في الغابة الجبلية أعلى. طلب من صالح الذي كان حاضرا مرافقتهم فيها دون توغل كبير في خلجانها وشعابها المجهولة المقام.

- ماذا هناك يا صالح؟
- الطريق مוגلة وموحشة.
- كيف؟
- بدت لنا من مسافة غير بعيدة جماعة تتدرب بشكل غريب، وتتخذ لباسا على الطريقة الأفغانية مع أحذية رياضية وعصي يتمنون بها على أشكال قتال. لذلك أثرت عدم الاستمرار في الجولة وعدت بالمجموعة آمنة إلى المنزل.
- لقد سمعت عن ذلك الشاب من المدينة - المركز الذي التحق بهلال الجحيم للمشاركة في القتال هناك، والذي جاءنا خبر مقتله في إحدى المعارك.
- أي هلال الجحيم يا الحسين؟ تسأله أخته سعاد.

- أعني الهلال الخصيب. بلاد العراق والشام. هذه الأرض
تعلقت بها لأنها مصدر الملحقات الكبرى الأسطورية وبداية
الكتابات الأولى للجنس البشري. ربما لعنة الحرف الذي يتبع
عقل الطبيعة والحياة ها هو يجنيها في تصرفات البشر.

- لا أدري لماذا يقوم الناس بطي زمن الحياة ويجعلونه على
حافة الموت، بينما الحياة تمدد يحتاج إلى استيعابه والعيش في
لحظاته بكل جزيئة زمكانية ووجودية ذاتية وموضوعية؟
يعقب الدكتور حلیم السيد. ثم يضيف: التقدم والتطور هو هذا
التمدد القائم بين الذات والموضوع حيث يكبر العقل والوعي
ويعيش الفرد بيولوجيا وفزيولوجيا ووجدانيا كل هذا التفاعل
المنتشي بإنجازات الحياة. ذلك أن كل فصل له فواكه وثمراته
المادية والمعنوية.

- انتظر يا دكتور من فضلك. نحن نناقش ظاهرة ربطت
اختياراتها بالتدمير للآخرين ولعالم الحياة المجتمعية بذريعة
السماء. فرق بين هذا التوجه والتوجه الذي يكون اختيارا فرديا
داخليا فلسفيا ونفسيا لا يضر الآخرين ولا يدمر محيطه.

- ممكن أن أتدخل في حواركما حول هذه النقطة بالذات.
تساءلت طالبة السيدة سعاد.

- تفضلي. أجابها الحسين.

- بما أنك قلت إن المرفوض في العملية هو تدمير الآخرين
والمحيط، أرى أن اختيار الفرد تدمير ذاته هو تدمير لمحيطه.
فتشكيل الذات ثقافي واجتماعي بالمفهوم الأنثروبولوجي
والبنوي التاريخي.

- اشرحي أكثر يا سعاد! يعلق الحسين.

- سأتكلم بصراحة وأنتهز الفرصة، ما دام الشباب منشغلين برؤية المنظر العام هناك على حافة التلة. لقد تكلمت نصوصك عن وحدة وجودية وحب إلهي وتلاحم طبيعي. كما تناولت تداخل الأرواح وتناسخها. وأنت حينما تقول إن الفرد من حقه أن يختار العيش من دونه، فإنما تتحدث عن اختيار من حق الأرواح الأخرى أن تشاركه القرار فيه. فحينما يحدد فرد ما ويقرر الإقدام على الانتحار، فإنه يقتل معه الآخرين دون استشارتهم ولا رغبتهم. قد يخلص هو بفلسفته إلى راحة من عذاب وصراع، ولكنه يزيد من عذابات الأحياء. بل إنه يمارس عليهم تعذيباً ممنهجاً ومستمراً، ما دامت روحه حاضرة معهم وهم أحياء. فهل يلجؤون هم كذلك إلى الانتحار؟ ماذا لو كانت حياة هذا الفرد هنيئة منذ البداية؟ لم يكن ليفكر في وضع حد لحياته؟ ولكن الحياة تجارب بين السالب والموجب، وجدلياتها تفرض تحقيق التوازن والتوافق فيها.

أظن أن علمك وفلسفتك لن يسمحا بالخلل واللاتوازن في البناء؟ صحيح؟ كذا فلسفتي والمنطق الذي درست به المعارف، وعشت به الحياة لن يسمحا لي بالتناقض في التصرفات المصيرية. حتى العالم النفسي الذي يخوض غمار علاجه السيد حلیم، وهو الأخطر لأنه منفلت وغير مادي ولا ملموس، يحتاج إلى التوازن والتوافق البيئي والمجمعي بشكل لا يدمر عناصر الحياة.

- ربما لمست قصدك في التحليل، بل عرفت هدفك فيه بالتحديد. ربما لم أكن واضحاً ومباشراً في تصاريحي حول

هذه النقطة بالذات. طيب. ما دام الأمر وصل إلى مدى هذا الخوف والرعب في دواخل المحيط، وما دامت مثل هذه الظواهر المناقضة لطبيعة الحياة، سأحاول أن أصارح المقربين لي والمعنيين بأمرى. أكيد أنني لم أجعل ثالا تشعر في يوم من الأيام بمثل هذه الأفكار، لكانت قتلتي خوفا عليّ من قتل نفسي، فتحمل هي عبء عذابي وتعيشه تضحية من أجلي. هذا ما يبين وجود الألم الداخلي في ذاتي. وحينما أقول الألم، فهو العذاب المرافق في الشعور والإحساس طبعاً. وحينما ألبأ إلى فلسفة رافضة فإنني أداوي الألم بألم أخطر. هكذا أجعل المعادلة والصراع بين عناصر التدمير القصى التي تهدد كل كائن بشري.

إنما في دواخلي أعلم أنني لو كنت أريد النهاية لَمَا تلاعبت بها وراقصتها نارا بين يديّ إلى حدّ الآن. إنني أحاكم ضمير أمة ضيّعت أفرادها وهمشتهم من دائرة الحياة. أخطاء كبرى يذهب ضحية لسياستها الأفراد. فمن يحمي حق هؤلاء؟ من ينصفهم؟ أنت أدرى يا دكتور حلیم السيد بدرجات الأمراض النفسية والعقلية. كيف هو شعور المحكوم بالإعدام؟ وكيف تدرجت به صدمات الوجود عبر الاعتقال ثم الأحكام المرتبطة به؟

في البداية كان عندنا شعور بوجود خطأ في الفهم وسهو جماعي. لم نرد سوى الخير والعدالة والسعادة لمجتمعاتنا. من حقنا كأفراد أن نحلم بكل هذه الأمور من أجل الجماعة. قارنوا بين أهدافنا وأهداف هؤلاء الآن. بين رمز الوردة وسنبلة العيش ورمز الرؤوس المقطوعة. وحينما أفرجوا عنا، بقينا في جراح الذات والشعور بالغبن.

نعيش بياضاً أعمى، ليس ذلك الذي جرّبه محمود درويش في
غيبوبته الإبداعية. نحن عشناه حكماً مرعباً وساحقاً.

أتذكر أنني كنت أتسلّح بقصيدة إكسير الشعر وما أزال،
بصوت محمود درويش:

لي حكمة المحكوم بالإعدام

((لي حكمة المحكوم بالإعدام:

لا أشياء أملكها لتملكني،

كتبْتُ وصيَّتي بدمي:

"ثُقُوا بالماء يا سَكَّانَ أُغْنِيَتِي!"

وَنِمْتُ مُضْرَجاً وَمَتَوَّجاً بَغْدِي...

حَلِمْتُ...))

- فعلاً إننا نحيا ميته أخرى.

- تطلبون منا أن نكون أسوياء مثلكم وقد كُسِّرَتْ أجنحة أحلامنا
وتحليقنا في الحياة.

تستسمح الأنسة وفاء بعد أن رأت انتهاء الحسين من كلامه في
إبداء ملاحظة:

- أرى أن السيد الحسين يعبر فقط عن احتجاج. فهو يعيش
حياته بشكل طبيعي وينعم بحب وإبداع ويعانق المعرفة
والشعر. اعذروني على الملاحظة.

يسود صمت طويل، اكتفت الأعين خلاله بتبادل ابتسامات
معتذرة ومستسمة. صعوبة الموضوع واختراقه
بخصوصيات الذات المجترحة. قد يكون الحسين رافضاً لتدخل
الأنسة وفاء بدرجات. فهي مجرد ضيفة لم يتعرف عليها إلا

خلال الثلاثة أيام هاته. وعمر قضية الحسين هو عمر مجتمع يجتر تاريخه وتخلفه وجهله. سيركز النظر في عيني أخته سعاد وكذا السيد حلیم ليستنتجا بحدسهما ضرورة المسافة في الحوار بين الخصوصيات المقتحمة الآن وبين المواضيع العامة التي يمكن أن يشارك فيها الجميع.

حقيقة أنه تقاطع معها أفكارها داخل إبداعها، لكنه لم يصل إلى درجة إشراكها في دواخله العميقة. ربما غيرة ثالا في محلها، لأن ثالا أقرب إلى نفسيته من زاوية الغوص العاشق لها والمروّض للحظات هذيانها اللطيفة والعنيفة. لكن الأنسة وفاء ضيفة سعاد. سيصرف الموضوع إلى موضوع آخر.

- كونوا على يقين أن اختياراتي هي فعلا احتجاج كما قالت الأنسة وفاء. ولكنها تبقى إنذارا مستمرا ما لم يسوّ الأمر بعدالة اجتماعية وقضائية للجميع. أنا فراشة تحترق مع نور كل حقيقة وكل ملف حقوقي. لكن هذه الفراشة قد تذهب هي وهذا النور. حينذاك لن يكون اللوم عليها. اللوم على من تسبب في الإطفاء الكلي لهذا النور. أي جراح هي تتقد مع شمس هذا النهار؟ اعذروني في الانصراف في جولة.

- والقراءة الجديدة التي ننتظرها سيد حسين؟ ساءلته السيدة أسية بابتسامة طبية أطفال.

- لك ذلك بعد أن أعود من جولة قصيرة. أجابها الحسين.

آثار بكاء بادية وظاهرة على جفون السيدة سعاد كما على عينيها. لحظة كانت تعلم بحدسها مجيئها ما دامت تصطم مع ما تخاف عليه من مصير أخيها، وما كانت تتمناه من تعرفه على الأنسة وفاء غانم.

فتحت قلبها لكي تتكلم بمكنون الوجدان وتاريخ الأسرة الذي يحضرها في هذه المحطة الحزينة. واساها الجميع، لكن لحظات الضعف عند الإنسان لا تكفي فيها المواساة. لا بد من تفرغ ومرور ذروة اشتعال العواطف واتقاد آلامها وتهديداتها الحياتية. لا بد فيها من قول كل شيء، أكان منطقيا أو اعتباطيا مجرد عابر للذهن ومختلط بموضوع التفكير الأساسي.

- لو تعلمون ما قاسيته مدة اعتقاله، والجمر الذي زادني احتراقا هو موت أمي في غيابه وبسبب بعده واعتقاله. كنت أعاني ما تعانيه هي، وأنقاسم معها كل فكرة وشعور. أجازيها في البكاء كما في الصمت. في الأمل كما في الحلم. كلما جلست معها على وجبة الفطور، كان لا بد لنا أن نتقاسم حلوه ومره مع الغائب والحاضر في قلوبنا. موت أخي زكرياء زادها انطواء. مرضه المفاجيء ومغادرته لنا بدون سابق إشعار، جعلني أسأل القدر في كل النوازل والمصائب التي لم تجد طريقا إلا في قلوبنا لكي تجرفها وتعيّشها في العذابات.

لقد أشفى الحسين جراحا كثيرة حينما قرأ ذاك الحوار مع أخي زكرياء. أحياء من قبره وأرجعه من الما وراء، لكي يرفع بالحب والتسامح وبابتساماته المعهودة. شعرتُ معه بحضوره. استرجعته في حلمي هذه الليلة وحاورته أنا الأخرى. تصوروا أنه سألني عن عدم زيارتي لقبره كل هذه المدة من الغياب. طلب مني عطرا ووردة وقبلة على شاهده. ما أروع ما طلب.

أما الحسين، فإنني أعلم أنه بذكائه يستطيع الصمود والعيش بفلسفته كما يريد ويشاء. ولكن الأخت تتمنى لأخيها حياة أرقى وأفضل دائما. كلما رأته بقميص، تمننت له قميصا أفضل. كلما طلع عليها بهندام، رسمت له صورة جنتلمان أرقى. هي دائما هكذا. قد يكون سلوكا مملا عنده، لكن الأخت بحبها تعيش بهذا الفيض.

أعلم سر ارتباطه ب(ثالا). لا ألومها. فهي امرأة بشخصيتها وكرامتها التي تضاعف كرامة الرجال في القرية، بل آلاف الرجال داخل المجتمع. أعلم أن عينيها من عيني أمي رحمها الله. نفس النظرة التي تغوص بك إلى الوجدان الطفولي الذي يربت على كتفك أو يسوي هندامك، أو يغطيك حين غفوة نوم من برد ويسوي وسادتك. تلك النظرة التي تسحرني أنا كذلك. كلما أردت تغذية في حنين إلى أمومة، تذكرتُ عينيّ ثالا ونظرتها الصريحة والمبتسمة لي. اعتبرتُ أمي حية فيها. فما بال الحسين الذي لم يحضر لموت أمه ولا أخيه زكرياء.

حينما أتى إلى القرية، كانت هي المواسية له، والتي عرفت كيف تعوض عنه غياب الأم. ذكرني أن دموعه جفت منابعها لمدة ثلاث سنين قبل استفادته من حكم حبس مؤقت ثم عفو تام

من العقوبة التي سجن بسببها. لكنه بمجرد ما عاد للقريبة وقابل عينيُّ ثالا، انفجرت من جديد مالحه غاسلة لصدره، مجهشة لتنفسه. احتاج للاختلاء في غرفة لكي ينعم بحقه في البكاء، وكذلك لكي يفجر حرقة غياب الأم. كان يظن أنه مع عودته سيجدها في انتظاره. رفض فكرة موتها حقيقة رغم إخباره بالأمر من قبل. هذا العيش بين الوهم والحقيقة هو الأخطر على الإنسان. وحينما تواجهه الحقيقة كمتكررة للأمل ومتوعدة بالألم، ما ذا يتبقى للرجبة في الحياة. كنت قد وضعت حداً لحياتي لو عشت معاناته.

هما عينا ثالا، روح الأم الغائبة. لكن، يبدو أنها ارتبطت بوضعية أعدد. الدكتور حلیم السيد يعلم هذا. كيف نشفيه من مرحلة الاعتقال والسجن؟ هذا هو الغائب في المعادلة.

- كيف ذلك؟ سألتها الأنسة وفاء.

التقت عينا السيدة سعاد مع نظرة السيد حلیم. كأنها تستنجد به في الكلام حتى يخلصها من عذاب الاستحضار كل مرة لأمر أخيها الحسين.

- وضعية المتهم تكون في وهم كونها بريئة قبل المحاكمة. تعيش على كونها ستخرج من أزمتهما بالحلول التي تتصورها في ذهنها. أنانية الفرد ترفض كل احتمال بعكس المتوقع داخل أنانيته الخاصة. حينما يصدر الحكم الابتدائي مثلاً، تضاعف الأمل في استئناف يصح الخطأ ويخرج من المأزق. ولكن حينما يحسم الحكم تصبح في أزمة نفسية حقيقية. تعاني معها المرض النفسي بدرجات متفاوتة.

الأخطر هنا في وضعية الحسين أنه عرف حكما بالإعدام. ما حوّل المرض النفسي إلى مرض عقلي متدرج. وكلما طالت لحظة التنفيذ كلما ازداد تأجج المرض العقلي، ما قد يدفعه للانتحار. ربما ومن خلال سلوكه الآن، أنه كان متشبثا بحبل خلود واستمرار في الحياة. ربما القرية الأصل. ربما الأم. ورغم موتها، يمكن القول إنه كان يرفض الحقيقة. يتوهم استمرارها ووجودها على قيد الحياة. تبقى صدمة العودة إلى القرية، كيف استطاع مواجهتها؟

يمكننا أن نقول الآن أن وجود شخصية (ثالا)، ساعده على الصمود، وعلى رؤية الأمور بمقاربات أخرى أصعب وأذكى. لا يريد لأحد ان يتدخل في تفكيره وأسلوبه واختياراته. يمكننا التقرب إليه بمحبته وعشق ثقافته وشعره وفنه ورغباته في الحياة. لكن أن نخترق حريته الخاصة ومعادلاته الداخلية المحورية، فهذا أمر مرفوض عنده. هذا هو الحسين في رأبي. أما فكرة تعويضه عن الحرمان بالحياة في المدينة وترك القرية، وإمكانية الزواج من أخرى، فالمسألة لم يحن أوانها بعد. أنا على يقين الآن أنه ذهب ليلتحق ب(ثالا) التي انسحبت بهدوء لم ننتبه له، شعورا بالغيرة من تخصيص الأنسة وفاء بهدية هي جزء من هويته في الوجود والاستمرار في الحياة. أظن ان المرأة القوية هي التي تستطيع التصرف بهذا الشكل من الانسحاب. تعلم أن قيمة الحب كرامة واعتذار وصراحة تعبير وصفاء في صفاء من كل تشويش مشاعر.

سُمعتُ صفارات سيارة متوقفة أمام الباب الرئيسي للمنزل، في ساحته الخارجية التي استفادت من تبييط وتزفيت، مثلما استفادت الطريق المؤدية من مركز القرية حتى استدارة هذه الساحة. أما ما علاها في اتجاه الغابة، فما يزال متربا ومعبدا فقط ب (توفنا)، ذلك التراب الطيني أصفر اللون الذي يتماسك صلابة ويساعد على ولوج الطرق البرية غير المعبدة. على العموم، هي سياسة تنموية جديدة استفادت منها القرى المغربية وليست امتيازاً خاصاً لعائلة باصليح. ذلك أن جل المنازل المتفرقة عن مركز القرية استفادت من هذه العملية بنسب متفاوتة بحسب وضعية الطرق المؤدية إلى مشارف أبوابها.

حتى ما كان من العمود الكهربائي الذي يضيء هذه الساحة الخارجية، تليه أعمدة أخرى نازلة إلى أسفل القرية بجوانب الطريق المزفتة. وكأنه منتهى التوقف لمشاريع الحياة البشرية وبداية الحياة الغابوية والطبيعية.

نزل السيد هشام الذي التحق من جديد بالأسرة والضيوف. فمنذ ليلة أحيديوس وعدهم باللقاء. خصوصاً مع السيد عماد، صديقه في مشاريع عدة وعمليات برمجة لدراسات واستشارات مشتركة.

كان فتحُ الباب الكبير الذي يسع دخول شاحنة، يوم كانت الشاحنة تبيت في الساحة الداخلية. الآن هي تحفة منسية في

الخارج دالة على تاريخ مجيد للعائلة. بينما سيارات الضيوف
وسيارة السيد صالح رابضة بالداخل.

- ما لأميرة الجبل محمّرة الجفنين؟ تساءل مستغربا ابن عمها
السيد هشام.

- ابن عمك يؤرقني وضعه وحاله وعيشه.

- لا تقلقي على ابن عمي. أو تعلمين؟ هو أفضل منا سعادة
وتمتعا بأسلوب عيشه. لقد اختار استراحة من أوهام التسابق
والتنافس الذي نتلهف له وراء المصالح والماديات. يعيش
فلسفة يحسده عليها كل واحد اليوم. مبدؤها أن ليس لي ما
أضيعه في الحياة من وقت ومزايدات. ما تبقى لي يكفيني
لأستمتع به وأحب به وأعيش.

- أو أنت تقول هذا؟ مستغربة السيدة سعاد ومتسائلة.

- وهل تظنين يا ابنة عمي أننا سعداء الحال. لا تغتري بما
تلاحظينه حولنا من أموال وسيارات وامتيازات. قد لا نعرف
الراحة والسعادة في كل هذا. ما معنى أن تذهب للنوم وألا تنام؟
أن تستيقظ على احتمالات الفشل والانهيال لكل المشاريع؟ أن
يترصد الجميع أخطاءك فيحاكمونك على كل صغيرة وكبيرة؟
الحسين استطاع أن يفك قيده من كل هذا. جعل مسافة بين ذاته
لكي تعيش ما تبقى لها ناعمة بفلسفتها، وبين المحيط الذي لا
يجب أن يقلق راحته وحرите.

- أنت على صواب سيد هشام. يعلّق الدكتور حليم مبديا
اغتيابه من ملاحظات ابن عم السيد الحسين.

فعلا، لم يكن ليلاحظ مجموعة من الجزئيات في تحليله لشخصية الحسين لولا تفاعله مع هذا المحيط المقرب منه. ما زاده اقتناعا بأن العلاج والخروج من وضعيات مرصية يحتاج إلى تواصل مع عناصرها الأساسية وتلك الأولى التي شكّلها.

هكذا فُكر بالموازاة في شخصية الأنسة وفاء. رأى أنها تطرق أبوابا مسدودة ومغلقة. بنت آمالها على حلم وأمنية رومانسية وأدبية أكثر منها واقعية وعملية. قد تزيد تعقيدا ومعاناة لشخصيتها في الآتي. لذلك عليها أن تخرج منها في أقرب وقت ممكن. ربما هذا التسامي عليه أن يتحول مع بيئة جديدة وليس هذه. سنة الحياة والمّل والنسبية التي تطوق كل شيء. كإشارة صوتية داخلية رنّت في أذنيه، منبّهة لفكرة طالما أجلها. لماذا لا تتصالح مع بيئتها الأولى بالمنطقة الشرقية التي ترعرعت فيها في طفولتها وصباها؟ ما المانع؟ فاصل زمني كبير أبعدا ثقافيا ومعيشيا عن الشرق. الحياة الجامعية ولادة جديدة عندها. لكن توجهات الشخصية السلوكية والمرتبطة بالعلاقة مع الجنس الآخر، تستحضر في مواقفها واختياراتها ونتائجها، تلك الأحداث الصادمة التي عانتها. ذلك الحرص المخيف من الأذى الذي أحاطتها به أمها رحمها الله. أي منبع ماء سيعيد سمك السلمون إلى عذب مسبحه وخصوبة عالمه؟

ماذا أحضرتُ معي في السيارة؟ سؤال ساعده على تفكّر دزينة أقراص لأفلام سينمائية يعتبرها لعبته في مراجعة رياضته النفسية ومختبراتها. (رمز دافينتشى code da Vinci) - (الغريزة الأساسية basic instinct) - (أنطوان فيشر ...)(antwone fisher

لاحظت السيدة أسية حالة الشرود التي ذهبت بذهن زوجها. استشعرت انشغاله كطبيب بتفاعلات الجلسة وحوارها. ساءلته:

- يا دكتور. أين سافرت بذهنك؟ نحتاجك معنا.

- تفكرت أنني أحضرت بعض الأفلام معي في السيارة. وأراجع عناوينها تسلية فقط. لا أدري إن كانت الأنسة وفاء تحب مشاهدة الأفلام؟

- أكيد أنني أحبها، فهي خلاصي من الإدمان على المسلسلات التي ملأت شاشة التلفاز. مصيدتنا أننا نجعل أساس الصداقات النسوية والمناقشات الثقافية حول مجريات المسلسلات، وكأنه تعويض عن حب الفضول الذي يرافق جلنا في التعرف على تفاصيل الحيات الشخصية للناس.

- أنت على صواب مائة في المائة أنسة وفاء. ردّت عليها السيدة أسية. وتابعت: والله إن لاحظتكم في الصميم. لا أدري لماذا لم يأخذها بالدراسة هذا النفساني الذي هو زوجي؟

- سأعمل على ذلك أكيد. إنما لا تنسيا أن في العملية تعويضا يبحث عنه الفرد، ذكرا كان أو أنثى، عن غيابات في الواقع. ولكن، ما أشارت له الأنسة وفاء جديد عليّ من زاوية ربط نفسية الأنثى منطلق بناء العلاقات بين الإناث بمشاهدة المسلسلات والإدمان عليها. جميلة جدا هذه المقاربة. ولكن، لا تنسيا كذلك بأن الرجال لهم أشكال إيمانهم وفضولهم المتبادلة في أنشطة يومية. ربما أسرار الذكور محتجبة عن أسرار الإناث.

- ماذا تريد للآنسة وفاء مشاهدته؟ تسأله زوجته أسية.
- لا أدري إن كان الوقت مناسباً. ماذا هناك في برنامج ما بعد الزوال؟

- إلى أين أنتم ذاهبون؟ ساءلتهم أم صالح (السيدة يزة).
- سنقوم بجولة في الجنان المحيطة بالمنزل ونبحث عن الأولاد جهة المنحدر لكي نقوم بنزهة رفقة ابن عمي هشام في المنطقة أسفل الغابة. أجابتها السيدة سعاد.
- ليس قبل أن تتناولوا وجبة الغداء. أجابتها أمي يزة.
- للتو انتهينا من مائدة الإفطار.
- وهل هناك إفطار في الساعة الثانية بعد الظهر؟
- إنها الساعة الواحدة وليس الثانية. ردت عليها أمي يزة مستغربة.
- كيف؟ انظري إلى ساعتني.
- لا. تلك الساعة الإضافية في الصيف لا أعترف بها.
- ضحك الجمع المواكب لحوارهما واستحسن ما علقت به أمي يزة. كما وجدت من يعلق على الساعة الصيفية الإضافية:
- فعلا إنها ساعة الكدح للمغاربة. مبرمجة مع آلة الإنتاج الأوروبية باسم الاقتصاد في الطاقة. علّقت الأنسة وفاء.
- وفاء! لم أكن أعلم أنك متمرده. ولكنني أظن أنك على صواب. أجابتها السيدة سعاد مبتسمة.
- كلنا نتفق مع أمي يزة. لا حاجة لنا بالساعة الجديدة الآن. إنما ماذا حضرت لنا أمي يزة؟ ساءلها السيد عماد.

- قصعة كسكس وشواء.

- جميل. سأفتح شهيتي لتناول لقمات كسكس لذيدة من يد امي يزة. أضافت السيدة سعاد. إنما بعد جولة قصيرة في جنان المنزل. ما رأي الجماعة؟

أيّد الكل الفكرة، وقاموا بجولتهم التي التحقوا فيها بجماعة الشباب التي كانت جالسة في غناء مواكب لموسيقاه على آيفون خالد، ذلك المشاغب في كل شيء، في الرياضة والدراسة والرقص والموسيقى المرافقة. إنما بذكاء يجعل مسافة بين القيام بالواجب واحترام الآخر. تعليقات أمه سعاد أقسى عليه من توجيهات أبيه عماد. لذلك يحدّرها دائما فيما يقوم به احتراماً وتربية. يرى في أمه مربية وأستاذة، لذلك يستشيرها في مجموعة قضاياها الشبابية حتى ما يكون من أمور عاطفية، مع بعض الانفلاتات الحذقة في مغامراته، ما يكاد يغوص فيها حتى يفضحه لسانه أو تعليقات أخويه علاء وحسن.

انتظروا مجيء الحسين على وجبة الغداء. كانت مفاجئتهم أن الأنسة ثالا، هي الأخرى حضرت قصعة كسكس وأحضرتها للضيوف. لكن المفاجأة الجميلة هي إحضارها لهدايا فردية لكل واحد منهم. كانت عبارة عن وسائد صوفية مزينة جنباتها بخيوط منفرشة، تتخللها في الوسط خطوط مركبة بإبداع أطلسي جميل. تسابق بعضهم لاختيار اللون المفضل عنده. علّقت عليهم ثالا مبتسمة وضاحكة:

- يجب أن تعلموا أن كل الألوان سيان في ذوق الصانع. في مركب النسيج بمركز القرية، لا فرق بين هذه الوسائد سوى

في نوعية المادة والصبغة. أما اللون فهو من الطبيعة. لذلك كل الألوان طبيعية وجميلة.

انطفأ ذلك التسابق واستسلم الكل لما وجدته أمامه من لون ووسادة. شكروا ثالا على كرمها وطيبوبة قلبها، وأكّدت النساء على استضافتها بمدينة الرباط. وعدتهن بذلك، ولكن برفقة الحسين إذا أراد.

تحوّلت العيون جهة هذا الواقف خارج سرب الوسائد المحتضنة في الصدور، كأنهم ينتظرون نتيجة قضية استعصت عليهم في مقاربتها. لاشعوريا، يعلمون أن المسألة أعقد من مجرد دعوة للحضور بمدينة الرباط. ولكن على الأقل، محاولة تفسير هذا التعصب والرفض للمدينة والعيش فيها - كما ظنوه حكما على مواقف الحسين - كان كافيا لهم كانتصار ونجاحا فيما بدؤوه كمنافشة هذا الصباح على وجبة الفطور. لكن هذا الحسين سيكون برفقة ثالا إذا أراد المجيء معها.

نظر إلى عينيها في شبه حوار وخطاب متبادل عميق ورطب وغدق بالتعابير الرمزية. وداعة النظرة جعلت الكل يستنتج أن هناك شيئا ما حصل في ذهابه وإيابه. هل كانت جولة أم بحثا عن ثالا؟

إذا كانت عين اللوح هي غطاء المنازل التي بنيت باللوح والخشب من شجر الأرز، فإن ثالا هي عين الروح بالنسبة للحسين. لذلك كان يعدّ مفاجأة للجميع خلال هذا اليوم. فقد قرّر أن يقرأ نصا جديدا وعدهم به. وهو المناسب للروح بأمر تخص عين روحه ومنبع صفاء وجدانه: ثالا.

بعد الغداء وتناول كأس الشاي الضروري في تسهيل عمليات الهضم للحم الغنم القوي بدهونه، كانت الجولة في أماكن جديدة طبيعية وتاريخية بالمنطقة. لم يذهب اليوم سدىً بالنسبة لمسافرين سياح يريدون أن يكتشفوا جمال جبال الأطلس الساحرة ويملؤوا بها بصرهم ووجدانهم وذاكرتهم. مروا من جديد على ضاية ويوان، انتقلوا بعدها إلى ساحة أفنورير، تلك الأرض الجماعية التي تحتضن بوابة الأرض للسماء. (إفري أبريضى)، أو كهف العتروس كما يسمونه في المنطقة. اكتشفه مستغورون مغاربة سنة 1949 كما يحكي بعضهم. واطلع على أسراره كذلك فرنسيون ينتمون إلى النادي الألبى الفرنسي CAF.

استمرت الجولة حتى اقتراب الغروب. بهرهم وجود ضيعات كبيرة بفاكهة حب الملوك، زهرة العرسان كما سمتها (ثالا). كما ذكّرتهم بزهرة حب الملوك البيضاء التي تكسو الأشجار خلال فترة الإزهار في أيام فصل الربيع، بحسب علو المرتفعات.

- سأجعلها مسرحية يشارك فيها جلنا. حتى الجمهور المتفرج سيكون له دور فيها. على الأقل سيتفاعل مع شخصياتها ويتأثر بمواقف ويبيدي انطباعات ويصدر انفعالات. ما رأيكم؟

- سأجعل الشباب هم بطل الحكاية، أما نحن فلنترك لهم حبل الحياة لكي يتمسكوا بخيوطه وينسجوا بساطها بما يروونه مناسباً لهم وقادرين عليه.

- نعم، سجلي يا سلمى مجريات الحكي والمشاهد. فهذه الليلة أريدها بوابة مفتوحة لتدق فيها قلوبنا طبول إنذارها، ولكي تزف زغردات فرحها، ولكي تنهمر دموعها فتسقي الأرواح بالحياة، وتطهر الدواخل من شجن لوثها.

- تفضلي يا (ثالا). أنت البطلة المعترشة داخل مدائن الملحمة. اجلسي في بحبوحة هذا المساء. دثري جبهتك وعينيك، واسترخي بأطرافك في استسلام للسرد الجديد. سأجعل سلوى متكلمة بلسان (ليلات). فمن منكم تريد أن تأخذ دور (حواء)؟

- أمامي ثلاث سيدات. إما تختار إحداهن الدور، وإما نجعل تصويتنا يرشحن باختيار. وفاء. سعاد. أسية.

- وأمامي ثلاثة رجال. من منهم يريد أن يأخذ دور (آدم) التاريخ؟ وإنسان البدايات؟ عماد. هشام. حليم.

- لاحظوا أنني جردتكم من انتماءاتكم النَّسَبِيَّة. أنتم الآن أفراد أمام بوابة التاريخ وضيوف مدينة جديدة، داخل شارع الوجدان والعرفان.

- طيب: سلوى هي ليلات. عماد هو آدم. علاء هو إنسان البدايات. حواء هي سعاد.

- ليلات تنادي:

مرحبا بإنسان التاريخ. كيف تجدون الحياة؟

يجيبها آدم:

- هي كما نعيشها. لكننا نبحث عن كمالها. نضمن استمرار النوع وتطوره داخلها. وأنتِ، كيف تجدين اختيارك يا ليلات؟

- أنا؟ أنا خارج التاريخ يا آدم. منذ اخترت التراجع عن طبيعتك. منذ أردتُ التحكم في نصفك الآخر الذي به أنتِ كائن الآن. أنا خارج التاريخ. أقف في بدايته، وأنتظركم في نهاياته. أنا لست مصنفة، ولست ملائكية ولا شيطانية. أنا طبيعة طبيعتي. فلسفتي وحياتي خارج ثقافة شكلتموها أدواراً، وتراضيتهم حولها مصالح وغرائز وحدوداً. فهل زيارتك قادرة على البحث عني؟ صعب عليك أن تجدني خارج دائرة الروح التي تمتلك شارعك العرفاني. تستطيع أن تلتحمني روحياً بتناسخ الألأيا، ووعي الذهن العالي. ولكن إياك أن تتيه في واقع حياة، ربما ستجد أقتعة باسمي، وشعرا بحريتي مصبوغ. ولكنني، ليلات الأولى والنهائيات، أنا وحدي لي عالمي. ولكم

عالمكم. اخترتم الحكاية المقصوفة والمنقوصة. لا أستطيع سرد الحقيقة التي هي لي، فذلك عالمي، لي، ولكم عالمكم لكم. يتدخل إنسان البدايات. سيكون نازعا لقناع ولباس آدم ومتكلما في مواجهته:

- على الأقل، أستطيع الالتحام بالفكر والوجدان والكلمة والبوح. سأهديك ما به أعترف بوجودك. أشرع حقك. أسمع صوتك.

تتدخل سلوى/ ليلات، من جديد:

- لك ما شئت، ما دمتُ اشتريتُ تاريخكم ثمنا لحريتي. هات ما عندك يا لابس العري الطاهر:

البدائي الطاهر في عريه / علاء :

- لا أو من بأنك أسطورة. أنت العقل الغابر في ذهني. الهارب من سجنني. أنت الثائرة الساكنة في خواطري. كل مرة تتشكلين بصورتك، فتفجرين داخل الكائن صوتك. أنت ليلات، ونحن في تطورنا التاريخي نبحث عن حقيقتك لكي نصل إلى فلسفتك. علنا نعالج الأدوار لتصبح بعشقتك وعشرتك. سأسمعك ما استطعت أن أعشقتك به. فأنت حاضرة متناسخة في وعيي وعقلي:

أمن تذكر ذكراك من زمن، عشقت الهوى بقبلة لهف بفمك دست عرف العشيرة نفضت، كل قيودي وأحزمتي في حوضك

نلت السعادة بك نلت سعادتي، رويت الحب سقيت ظمأً
بفضلك

يا ليلا تي هذه ليلتي سمرٌ لكِ، يا جسد الطبيعة فُوحى بعطرك

...

بين ثنايا الحوار والحكي، استشعرت وفاء قلبها وقد زاد نبضه. ربما جعلها تركّز على أخطار تحقق بها. هذه الأفكار التي تشعبت فلسفة في نصوص الحسين باصليح. هذا العالم الغريب الذي يؤنث به عقله ووعيه ووجدانه. كلها إشارات ملحمية لا تتكرر. كلها مفاتن لفضول الأنثى تودّ أن تمدّها بمفاتيح سحر عجيب تمتلك به الخلود. لكنها لا تمتلك الآن سوى المتابعة والمشاركة.

- تفضّل يا آدم التاريخ. هكذا دعا الحسين السيد عماد الغالي، وطلب منه ان يقرأ ورقته المكتوبة:

- أنتِ حواء التاريخ. أعطيتنا العنفوان وصهوة الجسد. امتطينا ظهرك. امتزجت الأهات مع ريح الشعاب وقطرات النسل مع الأمطار الآتية مع الضباب. في هيجاني تحضرنى حركة، رشاقة طبيعة، ابتسامة الطبيعة. أنت مرضاة السماء وقانون البقاء.

وتتدخل حواء مرافعة ومحتجة على حرمانها من ليلا تى روحها:

- سلخيتي جلدًا، وتركيتي لإعصار الزمن. ما تقاسمت معاناتي ولا تضحيتي. اخترت الحرية والغاب المنسي. وكان لك النسيان من سطور الصحف. لا الأولى تجرأت عليك ولا الآخرة علمت بوجودك. لكنك حاضرة وعابرة وهاربة. أشعر بريحك كلما حرمت أنا من تحليقتك. وجعي ولادة العالم وخلود

الزمن. بموازاتي تنعمين في حلمك. أعجب لمن أشعر بطربك.
لولاى ما كان القياس لك. لولاى ما كان له نمو زهر تقطيفينه
في فصل خالد هو ربيعك.

وتجيبها ليالات:

- أجتري بصبرك وحلمك. وأختنق بدورك. أحقق لكل
استسلاماتك. ماذا لو كان التاريخ ببوصلتي وشُرعي؟ ها هم
في عودة للبحث عن جزيرتي. ها هم عطشى لمنابع بحيرة
و(ثالا) تروي الظمأى وتطهر من دنس أضحى على حبل
غسيل ما ضمن الخلود ولا أبقى.

- أنا اخترت الغاب. سألج أجمته. وسأعيش في أجمته. اكتشفت
عبارة كانت محجوبة عن لبي: النور حجاب. وحجابي أنا نور
في دواخل غابتك. أنا الأسطورة المنفية بين الأدغال والغابات،
وتلك العبرة المخوفة لحواء كلما شهقت برغبة هواء جديد
خارج كهوف الطهي وشهوة الامتطاء. أنا الفارسة التي
تركض على صهوة الريح وتعانق شجرة الأرز في الاشتهاء.

تنتهي المشاهد، ويبقى كل واحد مؤدِّ لدوره ومشارك في
حواره ماثلا في مكانه ومنتظرا فك طلاسمه. يرفض الانتهاء
قبل اكتشاف الأسرار.

يتدخل الحسين، المؤلف والمخرج:

- كنتم مع أسطورة (ليالات). تلك المرأة البدائية الأولى التي
رفضت الدور الذي أخذته بعدها (حواء). عوقبت بالنفي
والنسيان. أبعدت إلى الأدغال وتم الترحيب بحواء لكي تؤدي
الدور التاريخي للمرأة الثقافية التي شكلت مجتمعاتنا.

- ماذا أقول لكم في نهاية المشاهد. لعل النسيان شكل من أشكال
النفي القسري والتعذيب الوديح. ذلك ما لا أريده لبحيرتي
ومدينتي في شوارع عرفانها ووجدانها وأرواحها.
لكم مدينتكم ولي مدينتي.
انتهى.

قد يكون الحسين باصليح قد انتهى من مرافعته - مسرحيته،
وبيانه، ما دام يمازج بين الذاتي - الفلسفي والوجودي - الثقافي
والفكري المجتمعي، إلا أن هذا الانتهاء لم يكن هو الواقع
والحاصل مع وفاء غانم. انسحب الحسين بعد انتهاء مشاهدته
أخذاً (ثلاثاً) في جوف الليل، من جلسة المصباح الذي ينبير
الساحة الداخلية للمنزل الكبير، وهي مدثرة بزينة رأسها التي
ترمز إلى احتفالية عرسية دون أن يكون هناك عرس حقيقي.

كان الأمر بالنسبة لوفاء مجرد أمنية في البداية. نوعاً من
التحدي لخيبات الأمل والقدر، لوضعيات تخلف مجتمعي
تعرقل الطموح الذاتي في دواخلها هي. أما وأن هذه الرحلة
وهذه الأمسية قد جعلت أمنيتها كطلب في عوز وتوسل، في
وضعية وموقف ضعف لأنوثتها، في مفاجأة امتلاك الناس

لحيواتهم الخاصة والمستقلة عنها، فذلك ما اكتشفته بفضل أو بسبب السفر. لا تدري، هل الأمر نعمة أم نقمة. إنما شعرت بحنق شديد أمام طبيبها المعالج، هذا الحاضر في هذه المشاهد، وكأنه عامل إسقاط لها في مطبات خيبات جديدة. فكّرت في ضرورة التخلص من معيذته ومن حضوره لا في لقاءاتها ولا في تفكيرها. إنما الرحلة لا زالت قائمة.

كان الذهاب يوم السبت صباحا إلى مدينة إيفران رماديّ الرؤية للسماء وللطريق الإسمنتية وأجمة الغاب الممتد في الرؤى البعيدة والموخزة في الدواخل. حتى الهواء أصبح جليديا في استنشاقه بسبب انجرح الوشائج واختمار حمم الدمع في سديم وجدانها.

قادتهم الرحلة عبر منحرجات الطريق إلى شجرة (كُورُو) * الضخمة والسامقة، والتي رأت وفاء في علوها يأسا من آمالها وجوابا على نتيجة طموحها الذي كان مغامرة ثقافية أكثر منه حلا ذاتيا مناسباً لها في حياتها. حتى القردة المنتشرة في هذا المجال الغابوي، حينما التقت عينا وفاء بنظراتها رمقت سخرية أو شفقة أو استغرابا من شخصها التائه في اللاتيه. كأنها تستغرب من ضلالها عن ذاتها وبحثها عن سراب غير مجيب.

هكذا رفضت روح وفاء كل تجاوب لوجدانها، هذا السفير المخيب لرسائلها الحياتية. فكّرت بشكل عرّضي في التخلص من الحياة. ألقّت بالفكرة في أول منحدر جبلي بدا لها مع

* - أقدم أشجار الأرز في القارة الأفريقية إذ يفوق عمرها 800 سنة، ولقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مكتشفها الجنرال الفرنسي هنري جوزيف كورو، الذي كان مندوبا لسلطات الاحتلال الفرنسي في المنطقة. يبلغ طولها 42 مترا وعرضها 8 أمتار.

منعرجات الطريق. محته من صور تفكيرها بالحلول في بانوراما الجبال والأشجار والآفاق الممتدة أعلى الطريق.

في هذا اليوم الرابع من الرحلة، انكمش انفتاحها وانبساطها. كانت ورقتها في الصمود مع الجماعة هو التواصل الوتر مع السيدة أسية. وكأنها طفل يبحث عن مداواة لآلامه عند طبيبة أطفال. لا يخاف وخز إبرها ومرارة دوائها. وكأنها في حاجة إلى طبيب طفولي الآن وليس إلى طبيب نفسي مشرح ومجرّح دون اندمال.

مدّ الشهقات متصاعد دون أن ينفجر بعد. بدا لها، مع إحدى تموجاته، نصب تمثال سبع إيفران الباسم عابسا، رغم تخاطف آلات التصوير على تسجيل ذكريات زيارته ومساكنته وألفة استيحاشه.

رأت في عبوسه هو الآخر محنته في الانقراض الذي تعرض له. في زحف الإنسان على مملكته وتحويله إلى تمثال حجري رابض في زاوية العدم. منذ الرومان وقبلهم وبعدهم، لم يهدأ هذا البشر الزاحف على مجالات الحياة والطبيعة في الفتك بكل عناصر البيئة والحياة. هي الآن إحدى ضحايا هذا التدمير باسم الحضارة والمجتمع كذلك. شعرت بمغص ودوخة، مقدمات غيبوبة هي راغبة فيها كخلاص ونهاية. تسكّل اللون البرتقالي لدواء (سوبرادين) في لوحة جفنيها الداخلية. رسمت عليها شمس إيفران الصيفية أشعتها الجبلية.

استشعرت الخوف فجأة من هذا الأسد وغرابة التفكير فيه ككائن حي، كأنه مستعد لافتراسها. وما الغاية إلا عالم موحش مليء بالعيون المتربصة بالفريسة الآتية والضحية التالية.

أما السيدة سعاد، فقد لاطفت ضيفتها وفاء غانم. اشترت لها بعض الهدايا كذكرى رمزية لهذا السفر الجماعي. ذكرت في حواراتها باللحظات الجميلة التي قضياها معا خلال هذه الأيام. أبعدت عن الحديث كل ما يتعلق بالحسين وثالا، وما كان من أفكار حدسية راودت حواراتهما حول حب منشود وزواج مأمول يحقق حبل الخلود:

- في الحقيقة، هذه إحدى إيجابيات السفر. الاستمتاع والاكتشاف والخروج من ملل العمل وضجيج المدن وتلوثها ورتابة اليومي وواجباته ومشاقه.

قد تجيبها الأنسة وفاء وتجاريها. وقد تشرّد بذهنها عن بعض الكلمات وتعتبر صوت سعاد ضجيجا في حد ذاته. ورغم عودتها كل مرة إلى توازن ألفة وتواصل وحوار، بقيت دواخلها كوعاء سدّ امتلأ بالضغط في انتظار انفجار وانهمار.

- على الإنسان أن يعيش ببسمة الأطفال وبلحظة الحاضر، وألا يتعلق بأوهام بعيدة.

هكذا افتتحت وفاء حوارها مع السيدة أسية.

- أتساءل: كم من مرة في الحياة تكون عند الإنسان محطات اختيار في الطريق متعددة. لماذا لا يقف ويتروّى فيها في الاختيار؟ بدل أن ينساق مع الظن والوهم والإرضاء للآخرين. لماذا لا يكون مشترطا للضمانات في كل خطوة، في الأولى قبل الألف التي تنهك نهجه وسيّره؟

- أنت على صواب آنسة وفاء. تجيبيها السيدة أسية بنظرات مشفقة لما لمستته من تجاذب مواضع خلال رحلة القرية والبحيرة. وتتابع:

- يجب أن نُعامل دائما نفسيتنا تعاملنا مع طفل صغير. لا بد أن نبعده عن كل المؤثرات الزائدة والتي لا حاجة له بها في التفاعل معها بحواسه وشخصه وتواصله. لكنني رغم قولي هذا، أفرّ بأننا كلنا قد ننخدع ككبار في حياتنا وتجاربنا. هي الحياة، نخرج من وصفة إلى وصفة جديدة. يجب أن نختار البدء في وصفة جديدة. متى وكيف؟

- صحيح ما قلته سيدة أسية. أظن أنني سأبرمج رحلة مع صديقتي لطيفة بعد أسبوع من الآن لجنوب المغرب. أتمنى أن تكون جميلة.

- ما رأيك أن نشاهد الفيلم الذي اقترحه حليم هذا المساء؟ فيلا إقامتنا تتوفر على شاشة بلازما كبيرة ومناسبة لمشاهدة الأفلام السينمائية.

- سيكون ذلك ممتعا ومرّوحا على النفس. كفانا أشعارا ومناجاة. لنبحر داخل الفن السابع إذن.

هكذا فتحت وفاء جسرا للتغيير مع السيدة أسية، رغم أنها لم تكن تدرك جديد هذه المشاهدة ومفاجآته العيادية المتوخاة عند الدكتور حليم السيد.

تعرف مدينة إفران اهتماما متميزا يجعلها تأخذ وصف (سويسرا المغرب). يلخص الوصف ذاك الاستثناء الذي تحظى به هذه المدينة المفترشة في حضن جبال الأطلس والمحاطة بالغاب المخضر. جمالية عمرانية وطبيعية وهندسية رائعة تفتن الزائر من كل حذب وصوب، كما فتنت ضيوف السيد هشام باصليح الآتين من مدينة الرباط. قد يظنون بأن عيشهم في عاصمة، يجعلهم ينعمون بكل الامتيازات التي قد تتوفر في مدينة وعاصمة إدارية، لكنهم بمجرد ما يتفكرون مشاكل السنوات الماضية والمرتبطة بأزمة الأزبال والنفايات، وأزمة المواصلات العمومية التي تجعل العاصمة كسوق نقل بشري داخل حافلات نقل مهترئة أو سيارات خواص تجعل الوضع بضاعة بشرية متكومة، وعن الفوضى التجارية واحتلال الشوارع وانتشار الجرائم، ستكون المقارنة مخجلة لهؤلاء الآتين من العاصمة.

استمر السهر بفضاء الساحة أمام قاعة المناظرات لساعة متأخرة من الليل. فيما توجه الشباب إلى طريق جامعة الأخوين والتي قُبلت بها سلمى لمتابعة دراستها الجامعية ما بعد الباكلوريا حيث حصلت معها على ميزة حسن جدا، آثرت السيدة أسية البقاء مع السيدة سعاد والأنسة وفاء، والعودة معهما إلى مكان الإقامة. كانت الساعة تشير إلى العاشرة

والنصف ليلا، وكان السيد عماد مع السيد حلیم في حضور جلسة عمل وعشاء عقدها السيد هشام على شرف منظمي مهرجان (تورتييت) الدولي والذي تنظمه جمعية بنفس الاسم، أيام 14 و15 غشت هذا الصيف من سنة 2014. بقي على انطلاق فعالياته حوالي خمسة أيام. وطبعا ستشارك مدينة عين اللوح التي تنتمي إلى دائرتها قرية أسرة آيت باصليح ورئيس جماعتها السيد هشام باصليح. كما سيشارك نسيج المجتمع من خلال جمعياته الفنية وبالخصوص في فن أحيديوس والغناء باللغة الأمازيغية. كان شعار هذه الدورة الثامنة هو (الطبيعة ملتقى الثقافات). وكان ضيوف السيدة سعاد قد عاشوا دورة مصغرة لما سيكون من فعاليات المهرجان من خلال سهراتهم بساحة (حراشة بين الضيعات)، وعلى ضفاف (بحيرة ويوان)، وفي الساحة الداخلية من (منزل أسرة آيت باصليح) بعمق الجبل في أعلى طريق الغابة وعلى حدودها مع قرية تيمليت.

مرة أخرى كانت الفرصة مناسبة للثلاثة لكي تتبادلن مناقشات متنوعة، ولكي تشاهدن الفيلم المقترح (ANTWONE FISHER)*، من طرف السيد حلیم.

دزينة الأفلام أمامهن، لكن الاختيار كان فضولا من طرفهن. ثرى، ماذا يحمله هذا الفيلم من تشويق وجديد؟

بعد الانتهاء من المشاهدة، كان الشباب قد عادوا لتوهم من جولتهم عبر شوارع مدينة إيفران التي تزينت بمصابيح وابتهجت بسياحها المغاربة والأجانب. كما أن ساحاتها تهيأت للحدث المرتبط بدورة المهرجان والتي ستنتقل يوم الخميس

*- فيلم سينمائي أمريكي من إخراج دينزل واشنطن Denzel Washington سنة 2002.

من الأسبوع المقبل. أُجِلَّت المناقشة إلى ما بعد ذهاب كل إلى مكان نومه بغرفته. وبقيت من جديد السيدة أسية مع الأنسة وفاء، واللذان خرجتا في بذلة نومهما إلى فضاء الحديقة جالستين على أرجوحة خشبية تحمل عقب الطفولة وحنينها.

كان الفيلم يحمل رسالة علاجية يحتاجها كل واحد في حياته. يطرح سؤالاً حول كيفية التصالح مع الطفولة من أجل عيش الحاضر والمستقبل بشكل سوي وخالٍ من ضغط المشاكل النفسية. عملية احتاجها جندي البحرية في مراحل عيادته للطبيب النفسي. وصُعِبَ عليه البوح لطبيبه بكل الذاكرة المرتبطة بماضيه الشخصي. لكن المشاكل التي عاناها والاصطدامات التي تسببت له في ليالي التأديب بمخافر الشرطة، عملت على تفجير مكنون طفولته الذي حاول ما أمكن طيّه في غياهب النسيان ما أمكن، حتى على طبيبه النفسي. وهو الأمر الذي أثر على علاقات صداقاته التي اتهمه فيها بعضهم بأنه عاجز جنسيا لا يقدر على إقامة علاقات، أو بانطوائية شخصية تدل على ضعفها وعدم قدرتها على عيش الحياة بشكل طبيعي كما باقي رفاقه في البحرية. وهو الأمر الذي حاول تجنبه وحاول بدله بناء علاقة غرامية سليمة مع صديقته، لكنه يبدو أنه احتاج إلى كم من جرأة ومحاولة لكي يبنيها صحيحة وسليمة.

احتاج إلى مصارحتها كما مصارحة طبيبه بالأفعال التي سجنت شخصيته ونفسيته. عمليات تعرضه للاغتصاب من طرف بنت الحاضنة له في منزلها، بعد أن تخلّت عنه أمه التي أنجبته وهي داخل السجن وأصبحت بعد ذلك مدمنة ومتسكعة في العلاقات. كان هذا الجندي البحري في سن الثامنة من

عمره تقريبا، وكانت الفتاة المغتصبة في سن يفوق سن الرشد. أكيد هي عمليات اغتصاب، حيث كانت تنفرد به وتضطره لمضاجعتها كلما خرج الجميع، مع عملها على ضربه وتعنيفه قبل أية عملية وبعدها. كان يفر إلى صديقه مخنوقا مما يحصل له. وكبر ونما على هذا الوضع الذي يزداد تازما مع وسط الفقر والتهميش الذي يعاني منه جل السود الأمريكيين في الولاية التي يعيش فيها على الأقل. حينما كبر، كان الابن الشرعي أو الطبيعي للسيدة الحاضنة أكثر تدللا واستفادة من حرите، ما أقحمه في عالم المخدرات والسرقة. أقحم (أنطوان) في مرافقته لواحدة من سرقاته، انتهت به مقتولا برصاص صاحب المتجر.

فرّ (أنطوان)، ولم تُلصق به تهمة ما دام لم يبد ما صدر عن الآخر المقتول من رغبة في السرقة أو التهديد بالقتل. بالعكس كان ناهيا وصارخا على المتهم والمحاو الذي فشل في مهمته وسقط مقتولا برصاصة في صدره.

حينما اختار الدخول في البحرية في ولاية أخرى، طوى صفحة ماضيه والحادثة المروعة. حاول نسيان كل شيء، إلى أن طفا هذا الشيء وهذا الكل على السطح مع اصطدامات مرافقيه في سهرات الكاباريه، وفي علاقته مع صديقه الجديدة، ومع طبيبه الذي دفعه إلى صدمات جديدة كان لها الفضل في حسمه في ضرورة التصالح مع ماضيه.

لا بد له أن يزور مكان طفولته. ولا بد له أن يبحث عن أمه الطبيعية. وبعد ذلك فليقرر مصيره الشخصي لحياته. انتهت مهمة الطبيب النفسي والتي لم يقبلها المعالج (أنطوان)، كأنه

فطام من رضاعة أجهشه بالبكاء والصراخ. مشاهد الفيلم بينت أن حضور علاقة الحب ضروري وأساسي ومساعد على تحدي صعاب الحياة الشخصية ومعالجة عُقدها النفسية.

تجربة الطبيب الشخصية، وكذا تجربة مريضه، تطابقتا في استنتاج أهمية العلاقة القائمة بين جنسين داخل قيمة الحب المتبادل في الخروج من كل أزمة والخلاص من كل عاصفة داخلية. وكذلك كان الشأن بالنسبة ل (أنطوان فيشر)، بطل الفيلم وجندي بحريته الذي سيغسل ماضيه ويظهر صدره من تلوثاته.

مراجعة ملخص الفيلم بين الطرفين قاد الأنسة وفاء إلى استنتاج الرسالة التي بعثها الطبيب حلیم السيد لها. فيما اقترحت السيدة أسية الخلود إلى النوم والساعة قد دنت من الثانية صباحا، آثرت الأنسة وفاء البقاء لدقائق قبل أن تلتحق بسريرها. أما السادة الرجال، فلم ينتهوا بعد من جلستهم وسهرتهم الخاصة.

كانت منهكة بأثر وتسارع تراكم الأحداث خلال هذه الرحلة. زادها تعباً وأرقاً، قلة الاستفادة من ساعات النوم خلال الأيام الأربعة الأخيرة. جهدُ بدا على جفونها التي شحبت واغرورقت في هذه الساعة المتأخرة من الليل. لم يخطر ببالها أن السيد حلیم السيد سيحول مجرى اهتمامها إلى بيئة طفولتها وصباها. كيف له أن يدعوها إلى زيارة الشرق والتصالح مع الشخصيات التي آثرت في صغرها؟ لماذا لم يخاطبها مباشرة ويصارعها بالمسألة؟ وكيف لها أن تقوم بالأمر في وضعية خارج سياق المنتظر؟

لابد لها من تأجيل مزيد تفكير في التخمينات، ولا بد لها من انتظار عملية الرجوع من رحلة جبال الأطلس، قبل أن تناقش هذا الموضوع سواء مع نفسها أو مع طبييها، وبالخصوص مع صديقتها لطيفة التي طلع طيف بسمتها وسحاب دعابتها في جوف هذا الليل. كانت صورة صديقتها في ذهنها شفيعا لها صاحبها إلى سريرها، ودعاها إلى النوم قليلا حتى الصباح. الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحا. حينها وهي في طور رحلة الإغفاء، سمعت دخول السيدين إلى حديقة فيلا الإقامة.

صرير الأبواب المغلقة لتوها، وتراكم الصُور والمشاهد والأصوات، بين الفيلم والطبيعة والحوارات، كلها أمور اختلطت مع حلم غريب بدا فيه وجه القمر شاحبا وعابسا. بتقويس شفتين عريضتين مقطبتين. محيطه ظلمة حالكة. حاولت ما أمكنها وهي تتقلب في فراش نومها، أن تجد للون آخر غير حلُكة الليل موقعا في سماء الحلم والرؤية. جاءها صوته مستفهما:

- عمّ تبحثين؟

- عنك في سمانك وبرجك. أنت نوري الذي يسقيني بإكسيره ويغذي روحي برحيقه. أعشقتك دون سواك، وبك أعيش.

- لا تبحثني عني في هذه السماء. أنا بداخلك عطش مرّتو، وارتواءٌ يعب من أنفاسك لونه ولونك: لازوردك الذي يسكنك ولم يفارقك لحظة. لم أغب عنك. إنما المسافات يخلقها الزمان والمكان والنتيه في اللا مجال. أنا قلبك الذي ينبض ويقودك في سفر الأيام: اللازورد الخالد فيك.



إلى أين؟ OÙ ? where ?

ملحق:

رحلة عنوان

كانت فكرة أن تكتب بواسطة خيط رابط يجمعك مع جواهر الموضوع. كان (حبل الخلود) هو هذا السر الذي سينتقل وسيبحث له عن تواجد مستمر يريد به الخلود والبقاء والاستمرارية، على الأقل في الآتي المرتقب. حينما ترتبط فكرة الكتابة بهذا السر الإكسيري في تحقيق الخلود فإنها تبحث لها عن خيوط من بخار أو دخان أو أشعة نور تنسلقها وربما توصلها إلى قرص ما.

وكانت فكرة شخصية مسيحية، امرأة، هي المنطلق. أمّا لماذا ستكون امرأة، فلأن استمرار الوجود البشري مرتبط بقوتها وسحر جنسها الذي ينفلت من الفهم السطحي والظاهر. فكانت قصة قصيرة ارتبطت ببحث المرأة عن حمل جنين في رحمها. كان بحثها عن شخص محكوم بالإعدام. أمّا لماذا هي مسيحية، فلكون الثقافة المسيحية العميقة نهلت من شخصية المسيح في ذلك الفناء المادي والجسدي الذي يحقق الخلود للذات الجماعية ويمسح عنها تهديدات الألم والعدم...

وبما أن البحث استثناء، فهو تساؤل في اللحظات القصوى لانفلات الوجود من قبضة تحكم الإنسان ومساهمته فيه بشكل طبيعي تطوري. ماذا لو كانت وضعية هذه المرأة التي لم تتزوج يوماً ما والتي أرادت ان تساهم بشيء نوعي في تاريخ البشرية بما تملكه مما هو طبيعي وبيولوجي وجنسي عندها؟ ماذا لو كانت تؤمن بأن خلاص البشرية هو بمساهمتها؟ ماذا لو كانت الروح الإنسانية واحدة لكنها متشكلة في التماثل بين هذا وذاك وعند هذا وذاك؟ ماذا عن روحها هي كامرأة؟ مسيحية تؤمن بما قام به المسيح من تقديم ذاته خلاصاً لأمة ستؤمن برسالته؟ وتبقى نظرة العين وبصر الرؤية ورؤية البصيرة، كل هذا يبقى ماثلاً في تشخيص النظر الذي يتم شحنه بالنفسي والتاريخي الشخصي، بالمشاعر وحسرات الوجود وأرقه المعيشي.

هكذا ستبحث المرأة عن رجل محكوم داخل سياق حياة

الجماعة البشرية بالإعدام، إنقاذاً لروحه من الزوال ستجعل
روحه تنتقل عبر العلاقة التي ستقيمها معه من أجل أن تحمل
منه. أفعال مرتبطة ستحضر فيها النشوة واللذة، وستكونان
بلسما لجراح ومفقد منفلت من الإمساك به. وسيكون الحمل
الذي سيولد معه جنين ربما سيصرخ ويقطع حبله السري
لحظة وضع الحبل حول عنق المحكوم بالإعدام. بين الولادة
والموت، ربما ستطلب المرأة أو السارد أو القارئ تأجيل تنفيذ
هذا الإعدام حتى يرى المحكوم به صورته البديلة واستمرار
روحه. هل من حقه كل هذا؟ وهل من حقه أن تعيش لحظة
انتصار على النسبي وعلى كل تهديد للوجود الإنساني
والطبيعي؟

بالرجوع إلى بعض المشاورات القانونية والقضائية وما يرتبط
بها من تخصصات سوسيو نفسية، قد نجد بأن القانون يذهب
بعيدا في سحق الإنسان وفي حرمانه من بعض حقوق وجودية
خارج قفص اتهامه الجنائي النسبي الذي تسبب له في وضعه
الإعدام. فكيف نراجع هذا القانون بهذا البعد الوجودي
والفلسفي والحقوقي الجديد؟

وانتقلت التجربة من صياغة قصة قصيرة مكثفة ومعالجة
لفكرة حبل الخلود إلى صياغة مشروع رواية ستبحث عن
تحقيقها في حقل أوسع. هذه المرة ستكون رواية مفصلة. وهذه
المررة ستكون الشخصية مواطنة مغربية من نتاج واقع سوسيو
ثقافي ونفسي وتربوي مغربي. تُرى كيف سيخوض السارد

تجربتها بشكل موضوعي ونسبي وواقعي وحالم في نفس الآن؟ ما هي حدود الخيال وتمديد الإمكانيات في الحرية، في البوح، في التصرف وتحقيق المحال الذي تتمانه نفس الإنسان والذي تعشقه روحه بافتتان؟ وكيف ستتشكل الفكرة بين ثقافة مسيحية وثقافة إسلامية داخل ذات هي نتاج خليط سوسيو ثقافي معين؟

لم ينفلت البوح ولا السرد ولا الخيال من فضاء النفسية المغربية والتجوال بين الذكور والإناث في بحث عمّ ستكون صاحبة الفكرة المجنونة التي أرادها وفكر فيها وبدأ مشروعها هذا الكاتب المجنون والمفتون بخياله. فكانت رواية حبل الخلود حيث واقع المرأة المغربية الذي يشبه واقع مجتمعات وثقافات مجاورة في الثقافة والتاريخ، وداخل حقل العلاج النفسي السريري الذي سيساعد على حسن اتخاذ القرار الموافق للذات قبل كل شيء، لأن السعادة خيار شخصي داخلي أولاً، وكان اختيار المرأة المناسبة للحكي والتي استلهمت من شخصيات عدة وحوارات عدة ومن ذاكرة للفرد والمجتمع. في بحثها عن تحقيق حبل الخلود، هذه المرة سيكون بثقافة مغربية وليس مسيحية غربية. وهذا المحكوم بالإعدام، كيف يمكننا تشكيله منفلتاً من قبضة القانون والعدالة والقضاء؟ كيف يمكن للخيال أن يراقص الواقع ويطوّعه حتى يصبح داخل دائرة اشتغاله وحرية رقصه المشتهاة.

هكذا سافرت الروح وسافرت الرواية وكتابتها فكانت بصيغتها الحاملة الجديدة وبأرواحها وشخصياتها وفضاءاتها التي صنعت عوالم جديدة في الكون والخلائق. لكن السفر أصبح عشقا لازورديا وارتبط بعالم البحيرة في مقاضاة عالم المدينة. وأصبحت العناوين متعددة لكنها دالة على واحد ومشيرة إلى أسسه وأعمدته التي يقوم بها بنيانه:

حبل الخلود.

البحيرة والمدينة.

البحيرة والعشق اللازوردي.

عشق لازوردي يسكنني

بحيرة العشق اللازوردي

...

هي مداخل الإحرام. علّها تجعل القارئ يؤدي مناسكه في عري من كل ثقافة ومن كل قيود تكبّل بخيوطها خياله الذي سيشتاق إلى سقاية وثمالة بالفن والشعر والموسيقى والرقص، ثمالة بعشق لازوردي كوني ممتد صمتا وسرا وغاية وجمالا وتجدا في الآفاق كما في أعماق النفس. وكانت الرواية.

هي مداخل قراءات نافذة إلى أعماق الحكى والبناء الإشكالي المتداخل بين شتى جوانب وزوايا اشتغال تحليلي. هي سحر ولحن خالد يسكن السماء في اللادوران واللا ليل أو نهار. ربما يسكن الكاتب ويسحره هو حينما يفتح نافذته في الثلث الأخير من الليل فيرى بروحه فؤاده المحلق خارجه، محاولا معانقة لونه اللازوردي الساحر.

حسن إمامي

من مواليد 1963 بمدينة مولاي إدريس
زرهون بإقليم مكناس بدولة المغرب.

- صدر له سنة 2014 عمل روائي
بعنوان: (قرية ابن السيد) - سنة 2015
مجموعة قصصية بعنوان (مدائن
ليلات). رواية صرخة المصاييح.

- رواية أفاص نونبر 2016 - رواية
شجرات وخرائط نونبر 2016 - زهرة
الرجس نونبر 2017 - ديلار.. شرفة
الريح نونبر 2017 - رواية باب
القصبة - رواية بحيرة العشق
اللازوردي 2018 - رواية الساعاتي
2020.

رواية فضاء كهف الحمام - إصدار
رقمي 2023

في انتظار الطبع: عندما تتساقط أوراق
التوت - فيلا ماري روز - ملحمة
مدينة مولاي إدريس زرهون (رباعية
روائية)...

حسن إمامي